عبد الزهرة زكي

واقف في الظلام

كتاب عن الآلام والأحلام

مكتبة
الفكر
الجديد

المؤلف: عبدالزهرة زكي
عنوان الكتاب: واقفٌ في الظلام
الناشر: دار المدى
تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
الطبعة الاولى: ٢٠١٥

جميع الحقوق محفوظة

للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي ابو نؤاس - محلة ١٠٢ - شارع ١٣ - بناية ١٤١
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102-13 Street - Building 141
www.almada-group.com info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول
info@daralmada.com
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع ٢٩ أيار
al-madahouse@net.sy
ص. ب: ٨٢٧٢
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدما.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recoding or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

عبد الزهرة زكـي

واقف في الظلام

كتاب عن الآلام والأحلام

مكتبة
الفكر
الجديد

في الظلام

سقطتْ

نجمةٌ وحيدةٌ

من فم الهدهد..

من ديوان (صغراء النور والماء) للمؤلف.

إلـى..

روح والـدي، في الذكرى الأولى لرحيله.

وإلى..

حفيدي ليث، في عيد ميلاده الثاني.

لم تكـن قد مضت على نيسان عـام ٢٠٠٣ إلا أيام حينما كنت في ضيافـة الصديق الشاعر والكاتب علي عبـد الأمير حيث سألني عـن اعتقالـي من قبـل المخابـرات العامّـة قبل حرب ذلـك العام. كان علـي بصدد إعداد تقريـر ثقافي لجريدة (الحيـاة) اللندنيّة عن المثقفيـن العراقيّـن والسجـون. وكان مثل هـذا الموضوع حينها مغرياً للإعلام، سواء داخـل البلد أو خارجه، وهو أمر معتاد، يتطلّبه الفضول الصحفي، وعادةً مـا يتحرّاه متابعو وسائل الإعلام، وذلك مـع انكسـار أي نظـام شمولي حديـدي قائم على خنـق الحريّات وإشاعـة الخوف. كان ذلك فعلاً ما جرى تكثيـف الضوء عليه بعد انتهـاء العمليات العسكرية ودخول الأمريكان إلى بغداد وانكشاف الغطـاء الثقيل عن سجون ومعتقلات ومقابر جماعية. لم يكن صعباً علـى وسائل الإعلام الوقوف علـى قصص وحكايات كثيرة، حيث بـدت الحاجة متبادلة بيـن بشر يريدون أن يتكلّمـوا، وهم يتعرّفون للمـرّة الأولى على حريّة الـكلام، وبين إعلام يريـد المزيد من هذا الـكلام الـذي بقي عقوداً متواريـاً وراء حجب الخـوف ومطموراً تحت قوّة المنع.

كان المنفيّـون والمهاجـرون واللاجئـون العراقيّـون فـي كلّ القـارات قد نجح بعضهم في تسريب حكايات عن معاناة السياسي المعارضـ والمواطن العراقيّين بشكل عام في ظـل نظام استبدادي تحـرّروا منه، لكنّ شهادة المعارض المنفـيّ واللاجئ تبقى في كلّ الأحـوال قابلة للطعن بفعل المحمولات السياسيّة التي تُقرأ بها تلك

الشهادة سلباً وايجاباً. وفيما كان المناخ السياسي الدولي طيلة عقد الثمانينيات، في الأقل، يميل إلى تقديم صورة أخرى لنظام صدام غير صورة المستبد، صورة النظام المدني العلماني الذي يواجه نظاماً ثيوقراطياً في حرب طويلة ينوب فيها عن (العالم الحر)، فإن شهادات المعارضين باتت تواجه مشكلات كثيرة أسهمت، مع الخوف من مطاردات السلطة للمنفيين أنفسهم في المنافي أو لعوائلهم المرتهنة داخل العراق، في تغييب كثير من الحقائق القاسية والمعلومات والبيانات عن العالم الحر فعلاً.

أذكر، وقد يذكر علي الآن، أنّي اعتذرت عن الخوض في تجربة السجن؛ كنت أجد وازعاً أخلاقيّاً يمنعني عن التحدّث في تجربة شخصيّة خرجت منها سالماً فيما كان العراقيّون، في تلك الأيّام من عام ٢٠٠٣، يبحثون في المقابر الجماعيّة المكتَشفة، وفي وثائق دوائر الأمن والمخابرات عن مصائر آباء وأمّهات وأبناء وبنات، عن شيوخ وعجائز وشبّان وشابّات وأطفال كانوا يؤخذون ويختفون ويُغيَّبون، حتى أفقنا على حقيقة أنّ البلد لا يطفو على بحيرات نفط حسب وإنّما أيضا على طوفان من مقابر جماعية.

لقد كتبت مرّةً عمّا كان قد رواه لي صديق أديب عن مصادفته سيّدةً عجوزاً عام ٢٠٠٣، بعد انتهاء الحرب، كانت تنتقل بعينيها وبقلبها بين قوائم المعدومين من قبل أمن ومخابرات النظام السابق علّها تعرف مصير ولدها الذي غُيِّب عنها منذ مطلع الثمانينيّات؛ لم تكن تعرف شيئاً عن مصيره ولا حتى عن جهة اعتقاله، لكنّها بعد أكثر من عشرين عاماً ها هي تقف، يائسةً، على قوائم ورقيّة تريد من خلال بياناتها أن تطفئ بصيصاً من أمل بقي طيلة تلك

السنـوات عذاباً أكثر منه رجاءً، فجـاءت لتتحرّى عن مصير الغائب في قوائـم المعدومين التي جرى تثبيتها علـى حائطٍ لمنظّمة مدنيّة، تأسّسـت في الأيّـام الأولى لسقوط النظام، وكانـت تُعنى بالسجناء السياسييـن ومصائرهم. شيخوخة العجـوز وضعف بصرها وأميّتها الأكيدة أثارت انتباه الصديق، وهو يتابع انهماكها في فحص القوائم والعودة إليها لأكثر من مرة، وما كان منه إلا أن يسألها عمّا إذا كانت تستطيع الاستدلال بنفسها علـى اسم ابنها في هذه القوائم الكبيرة. ومـن دون أن تلتفـت العجوز للأديـب، ومـن دون أن ترفع عينيها الكليلتين عن القوائم، أجابته باختصارِ مَن يريد أن ينهي كلاماً يشغله عـن عمل مهم: « يمّهْ هـو ابني، شلون ما اعرف ابنـي!.. لا، يمّهْ، لا». كانت تبحث عن الاسم ببصيرة الروح لا بعين الجسد، البصيرة التـي تشمّ رائحـة الاسم، لا العين التي تتهجـى حروفه. وحال هذه السيـدة هو حال كثيـرات بقين خلال هذه السنـوات يواصلن بحثاً غير مجدٍ عـن مصائر وحيوات انطفأت سواء في السجون والمقابر الجماعيـة لمـا قبـل ٢٠٠٣ أو في دوائـر الطب العدلـي والأنهار والصحارى والمزارع بعـد ٢٠٠٣ حيث جرائم الإرهاب والعنف الطائفي وثأرات وانتقامات متعددة الدوافع والأشكال. ولعلّ مقال الناقد العراقي حاتم الصكر، المنشور في مجلة دبي الثقافية (تشرين أول ٢٠١٢)، عـن (فقدان) ولده عـام ٢٠٠٦ على أيدي مجموعة مسلحـة اختطفته من بين أسرته حين كانـت الأسرة في سيارة أجرة في الطريق البرّي إلى عمّـان، هو صورة أخرى لفقدان تلك السيدة العجوز لولدها، مع أمل أتضرّع الآن من أجله لأن ينتهي صبر الأسرة المنكوبة، أسرة حاتم الصكر، نهايةً أخرى تخفّف من وطأة الخاتمة السوداء لانتظار تلك السيدة عند قوائم المعدومين.

يمكن هنا رواية آلاف من القصص، سوى قصّتَي الابنين السابقين مجهولَـي المصير في زمنيـن مختلفين ما قبـل ٢٠٠٣ وما بعدها، قصص ستتماثل في بداياتها: اعتقال أو اختطاف، إعدام أو اغتيال، كمـا تتماثل في نهاياتها، نهايات يكون معها حتّى الوصول إلى خبر إعـدام أو اغتيـال المفقود شيئـاً من حلٍّ لإنهاء معانـاة عائلات بقي الفقدان يجعل من حيواتها كوابيس وسجوناً مفتوحة في احتمالاتها ومآسيها.

وأمام هذه الكوابيس التي تُروى وتعاش، فإن الحديث عن تجربة حبس (عابرة) سيكون شيئاً مـن بطر، لا يقلّ في خفّته، ولم أقل في سفاهته، عن انشغال امرئ بتنظيف حديقة منزليّة من ورق ميّت فيما المنزل خلفه يحترق.

ربّما يبدو مثال التنظيف والحريـق منطوياً على مبالغة بدرجة ما حيـن نكون، كما في حالتي، أمام تجربة شاعر وكاتب في الحبس، وذلك بعدما نتفق على أن مهمة الكاتب هي أن يكتب.. ولا يمكن، فـي كلّ حال، تجـاوز التجربة الشخصية حتّى فـي الكتابة عن أكثر التجارب والشـؤون عموميّةً؛ يحضر الكاتـب كلما كانت التجربة المكتـوب عنها بتماس مباشر أو غيـر مباشر مع تجارب كان قد مرّ بهـا وعاشها. ولا أدري بالضبط مـدى نجاحه عندما تكون التجربة الشخصيّـة مجـالاً مفتوحاً يتضمّـن وينطوي على تلـك التجارب والشؤون الأكثر عموميّةً.

حقيقـةً لم أستطع الفكاك، نفسيّاً في الأقل، من أيّام الحبس، أيّام (الحاكميّة) سجن المخابـرات الذي سيجد القارئ، بعد قليل، أنّي قلت عنه في هذا الكتاب: ما زلت يوميّاً أمرّ ببنايته (سجن الحاكميّة)

ولا أستطيع إلا أن ألتفت باتّجاه تلك البناية التي تختصرها ذاكرتي بكل طبقاتها إلى مجرد زنزانة وغرفة تحقيق وقبو تعذيب، وهي الأماكن التي تشكّل تلك الذاكرة عن هذا السجن وعن بنايته التي ما زال يؤلمني أنها بقيت حتى الآن مكاناً أمنياً. وحين فكّرت بإنجاز هذا الكتاب كان من دوافعي الأساسيّة فيه هو العمل من أجل الضغط لإنهاء الصفة الأمنيّة للمكان الذي يستحيل أن يدور في خلد العراقيّين أنه موئل لرحمة وملائكة. هذا المكان يظلُّ في التصوّر العام سجناً لا تديره إلا شياطين لا صلة لها بالعدل والرحمة واحترام كرامة الإنسان. إنّ الصورة النمطيّة عن (الحاكميّة) لا ينفع في تغييرها القول العربي المأثور: المكان بالمكين. من الصعب محو الذاكرة، لكن من اليسير تغيير صفة المكان، وسيكون مثل هذا التغيير حافزاً لتمتين ما يطمح إليه العراقيّون من قيم جديدة تترك خلف ظهرها بشاعات التعذيب والهزء بالكرامة الإنسانيّة وسحق الحريّات.

كان لا بدّ من أن أفكّر أنّ بين عشرات وربّما مئات أو آلاف ممّن جرى اعتقالهم خلال سنوات ما بعد الاحتلال والتغيير وقضوا في السجون شهوراً وسنوات مَن كانوا ضحايا دعاوى كيديّة ووشايات ليتبيّن في ما بعد أن البلاغات المقدّمة ضدّهم من قبل مخبرين سرّيين، وربّما مجهولين حتى للسلطات الآمِرة والمنفّذة للقبض، لا تتعدّى كونها إبلاغاً كاذباً أو مغرضاً، وقد لا أستبعد أن أطرافاً، من داخل الحكومة وخارجها، تقف وراء هذه التبليغات المغرضة، أو بعضها في الأقل، وقد أرادت بها توريط الحكومة باستعداء أكبر مساحة ممكنة من الناس، فيما تتكرّر تقارير ومعلومات إخباريّة عن تيسير هروب عشرات من الإرهابيّين والمجرمين الحقيقيّين عبر

الفســاد وشراء الذمــم، ناهيك عن كسر السجون مــن قبل إرهابيّين يجري التواطؤ معهم من داخل السجن أو خارجه وتحرير مجرمين خطيرين.

الذمّة التي تُشترى من أجل اطلاق سراح إرهابي أو تسهّل عملية هروبه قابلة أيضــاً لأن تُشترى وتتورّط بحبس وتعذيب أبرياء، وهي حــالات لم تكن محــدودة. صحيح أنها خارج السيــاق المفترض لفلسفــة الحكم فــي الدولة الجديــدة كما ينص على ذلــك دستور هــذه الدولة، لكن، وفي كل الأحوال، فإنّ هذا السلوك الذي يرتبط بأفــراد ودوائر ضيّقة لن يعفي الدولــة وجهازها التنفيذي والقضائي والرقابي والمجتمع، بشكل عام، من مسؤوليّة ظلم يتعرّض له حتّى ولو شخص واحد.

بعــد عامين مرّا على اعتــذاري عن إجابة علي عبــد الأمير بشأن تقريــره لصحيفــة الحيــاة، عــدت فواربت فــي الإجابة فــي الشأن نفســه، حين سألني مرّةً الشاعر حسين علــي يونس في حوار أجراه معــي ونشرته جريــدة الاتحاد عن خلاصتي مــن تجربة اعتقالي في سجــن الحاكميّة، حيث لــم أجد ما أقوله له ســوى إنّ تلك التجربة (خرجت منهــا، وقد ازداد حنقي على طغيــان السلطة، أيّة سلطة.. هــذا هو المهــم، كما أرى، فــي قضية اعتقالــي.. ينبغــي أن يتركّز عملنا، كمواطنين وكمثقّفين، على أن لا نسمح للسلطات بارتكاب (أخطــاء) يذهــب ضحيّتَها الناس، وتُسحَــق حريّاتهم وكراماتهم.. من السخف أن تتحوّل قضيّة الاعتقال إلى امتياز، ولكنْ من الشرف أن تتحوّل إلى مسؤوليّــة، مسؤوليّة الإيمان العميق بالحريّة وقيمتها وبحفــظ الكرامــة الانسانيّة مــن أن تُهــدر على أيــدي المستهترين

بمصائـر الناس، على أيدي بشر يستخفّـون بإنسانيّتهم هم أنفسهم قبل ضحاياهم).

مـا زلـت أعتقـد أنّ العِبـرة الأهـم لأيّ مثقـف فـي مشاركتـه الإنسانيّـة، وفي حياتـه اليوميّة والفكريّة، سـواء أكان قد مرّ بتجربة حبـس أو اضطهـاد أو لم يعشهما، هي في العمـل الحثيث من أجل توسيع مـدى الحريّة وتقليص مساحة الظلـم والقمع. لقد كان هذا التصـوّر حاضراً، إلى جنب الحضـور القاسي لتجربتي في الحبس، حين نجحت، مع أصدقاء وزملاء آخرين، في أثناء عملي في صحيفة المـدى بعد ٢٠٠٣، بحشد تواقيع مئات الكتّاب والأدباء والفنّانين فـي أوّل بيـان موجّه للسلطـات العراقيّة من أجل العمـل على إنهاء اعتقـال الصديق الكاتب محسن الخفاجـي لدى القوّات الأمريكية التـي بقي في سجونها شهوراً من دون أيّة تهمة، حيث جرى اطلاق سراحـه بعد أقل من أسبوعيـن على نشر البيان الذي كان، إلى جنب ضغوطات وتضامنات أخرى، دافعاً أكيداً للإفراج عنه.

فـي أرشيفـي، أحتفـظ بصـور لزوجتـي كنـت قـد التقطتهـا، بكاميرتـي، عـام ٢٠١٢ في اثناء زيّارة لنا إلـى هولندا، وتظهر هي فـي بعض تلك الصـور في باحة كبيرة تتوسّط مبنـى كبيراً تُقدَّم فيها عروضـ فنيّـة لفنّانيـن تجريبيّين هواة؛ لقـد كان هـذا المبنى، قبل أكثر مـن قرن، سجناً في مدينـة خرونيغن شمالي هولنـدا، ولمّا لم يعد السجـن منسجماً مع معايير تطوّر السجـون ومراعاتها حقوقَ السجين إلى جنب انخفاض معدلات الجريمة ودواعي الحبس فقد قرّرت السلطات إغلاقـه وتحويله، من ثَمّ، إلى هذه الخدمة العامة. وشخصيـاً، كنت مثل غيري من ملايين العراقيّيـن، آملُ بعد التغيير،

إن لـم تنتـه كلّ السجون وتتغيّر، أن يتحوّل بعضهـا، في الأقل، إلى متاحـف ومراكز أبحـاث تذكّر بتاريخ الإجـرام وتَحول دونه، وأن يتحـوّل بعضها الآخر إلى منشآت وتجمعات تُعنى بحقوق الإنسان وحفـظ حريّاته وأمانه واطمئنانه على حياته وتفكيره واعتقاده، وأن يجري التفكير بصور أخرى لتلك السجون من الممكن أن يقترحها ويقدّمها مواطنون آخرون أكثر خيالاً وطموحاً مني.

لقد بقـي السجن، علـى مدار التاريـخ، جزءاً عضويّـاً من حياة المجتمعـات المنظّمـة والمحكومـة بأعـراف ودساتيـر وقوانين. لا يمكـن تجاهل هذه الحقيقـة وضرورتها. لكـن، وبموازاة هذه الحقيقة، فإنّ تقلّص مساحات السجون وتطوّر أنظمتها، من العقوبة كانتقام إلى العقوبة كمحاولة لإعادة التأهيل، سيبقيان مؤشّراً واضحاً علـى مدى تمـدُّنِ المجتمعات، بمعنـى نأيها عـن الطابع الوحشي للجريمة وردّ فعلها العقابي، وتقـدُّم سلوكها النفسي والثقافي. لقد عبّـرت في ثنايا هذا الكتـاب عن اعجاب بالجهـد الفكري الجبار لميشيـل فوكو، كما في كتابه (المراقبة والمعاقبة) الذي أصدره عام ١٩٧٥، وهو كتاب رائد فـي التعبير عن جهد فكري منظّم وواسع اهتم بنقد مشكلات مؤسسـة السجن، وجاء في سياق حركة تالية، أسسهـا الفيلسـوف الفرنسي بعد أعوام، بالضبـط في عام ١٩٨١، وكتب لها بياناتها التي سعت إلى كشف الحجب عن عالم السجون والاعتراض عليهـا وتحفيز الرأي العـام لصالح مناوءتهـا من أجل إصـلاح أحوالها، إن لم يمكن اغلاقها نهائياً. ولقد وقف إلى جنب فوكو، بهـذا المسعى، عدد من المثقّفيـن والناشطين من مستويات مختلفـة. كان فوكو ومجموعته، بمثل هذا الجهد، يواصلون عملاً بحثياً وفكرياً كان قد نظّمه باحثون من الثقافة الأنجلو سكسونية في

مطلع أربعينيّات القرن الماضي، وكان كلا الجهدين، جهد فوكو وقبله جهد الأربعينيات، يتمركزان على نقد مؤسسة السجن، التي أراد لها فوكو أن تكون مؤسسة تهذيبيه تسمح بإعادة التأهيل بينما رأتها جهود سابقة على أنّها جزء من المؤسّسة الكليانية.

لكن، وفي تاريخ ثقافتنا العربية المعاصرة، كما هو الحال في موروثنا، لا نعدم أن نجد كثيراً من الأدبيّات التي عنيَ مؤلّفوها بالسجون، وقد نوّهت إلى بعض هذه المصادر في متن الكتاب، وكان نقد سلطات الحبس ودوافعهم يأتي في تضاعيف تلك الأدبيات وذلك في اطار أرشفة التعذيب، أكثر من أن تكون قد عنيت بالإطار الفكري للموضوعة. واحسب أن أبواباً فكرية ستفتح، مع رياح التغيير العاصفة سياسياً في المجتمعات العربية، سيكون من شأنها تعزيز الأرشفة من جانب وتهيئة الفرص من جانب آخر للمراجعات الفكرية الأكثر تفهماً لدواعي الظلم وسوء استخدام السلطة وما ينجم عنهما من قهر واستعباد.

كان كلّ هذا حاضراً في ذهني وأنا أشرع، بعد هذه السنوات، بإنجاز هذا الكتاب الذي لا تريد فكرته أن تكتفي بإدانة ماضٍ متعسّف حسب، وإنّما تطمح أيضاً إلى نقد راهنٍ ما زالت أفكار الناس وطموحاتها تريد له صورةً أخرى، صورة أكثر تعبيراً وتمثّلاً للإرادة الحالمة ببلد يُصان فيه العدل وتُحترم الحريّات وتُحفظ الحرمات.

لم أشغل نفسي كثيراً بتجنيس الكتاب والطبيعة المتحكمة بكتابته. لقد سعيت إلى إنجازه بالإفادة من حرّيّتي بأقصى طاقة ممكنة، حريّة التصرّف بالمعلومات والأفكار والتصوّرات من

جانـب وحريّة التمنّع علـى أيّ تقييد فنيّ أو تعبيـري أو أسلوبي من جانب آخر. لقـد خرجت من السجن وأنا أكثر إصرارا على حريّتي واستقلاليّتـي، وكان لا بـدَّ مـن التنعُّم بهـذا الفضاء الحـر في كتابة التجربة.

ثمّـة ملاحظات مهمة لا بدّ من الإشارة إليهـا هنا، وسيكون في مقدّمتهـا مثـلاً أن أوضح أن كثيراً من أسمـاء الأشخاص بقيت على حقيقتها، بينما حفظت لأشخاص آخرين كثيرين في الكتاب حقَّهم في سريّـة أسمائهـم، فتعاملتُ معهـم بأسماء مستعـارة لاعتبارات عديـدة منها أنّ بعضهـم لم يُتح لي المجال للاتّصـال به واستئذانه، بينمـا كان الحرص على احتـرام خصوصيّـة البعض الآخر الذي اختفـى اسمه الحقيقي وراء اسم مستعـار هو الدافع الأخلاقي لمثل هـذا الإبدال، من المؤسف فعلاً أن ذكرياتنا عن آخرين ليست دائماً من الإيجابيـة بحيث تسمح بذكرهم بأسمائهـم كما هي، وهو أمر يحزنني كثيـراً. لكنّ المهم هو أنّ جميع الأشخاص الوارد ذكرهم، سـواء بأسماء حقيقيّـة أو مستعارة، هم أشخاص واقعيّون ولم يجر المسّ أو التشويـه أو التعديل بشكل أساسي على كل ما نسب إليهم أو قيل عنهم هنا إلّا بحدود ما تتطلّبه ضرورات الكتابة كفن.

لـن أستطيع أن أفـي كثيراً مـن الأصدقاء والزمـلاء حقّهم في ما قدموه مـن ملاحظات وتصويبـات ومقترحات: أعبّر عـن امتناني وتقديري لقاسم محمد عباس والدكتـور نصير غدير وسهيل سامي نـادر والدكتور لؤي حمزة عباس وجمال جمعة ووارد بدر السالم وعبدالستـار البيضاني ومصطفى الكاظمي ومحمد غازي الأخرس وعبدالكريم العبيدي وأحمد سعـداوي، كانت ملاحظاتهم مهمّة،

وكان كـرم تحفيزهـم دافعاً لتجاوز الكسل المعتـاد من شاعر مثلي ليتورّط في مثل هذه التجربة الكتابية.

الصديقـات والأصدقـاء والمعارف والزملاء الذيـن وقفوا معي ومـع محنة عائلتي في فترة اعتقالي هم أكثر مـن أن تستوعبهم هذه الصفحـات وتستوعـب مـا يستحقون من ثنـاء وشعـور بالعرفان. لقـد كان بيتـي مزاراً يومياً لعشـرات منهم طيلة أيّـام الحبس وطيلة الأيّـام التي تلتـه، بعد الإفراج عني، وذلك فـي وقت كانت فيه مثل هـذه الزيارات تضـع أصحابها في دائرة الشبهـة والخوف والريبة، وبالتأكيد سيسمح كلّ هؤلاء الرائعين والرائعات أن استثني صديقين عزيزين فأخصّهما بالذكر والإشادة وذلك لرحيلهما: الصديق محمد درويش علي، زميلـي الذي حرصت على أن يكون معي في جريدة الجمهوريّة، قبل ٢٠٠٣، وفي جريدة المدى، بعدها، والذي توفي بمرض عضال قبل أشهر من تحرير الكتاب، كان لمؤازرته الشجاعة لوالـدي وأسرتي أثر مـا زال حيّاً في ضمائر جميـع أفراد عائلتي.. وصديقي، فـي الحياة والشعـر ومشاقّهما، رعد عبـد القادر الذي تُوفـي بعد أقل من يومين على اعتقالي، تـاركاً فراغاً هائلاً لا تشغله سوى محبة الجميع له وسوى أسئلة ظلت محيّرة عن مثل هذه الميتة المفاجئـة وتوقيتها وصلتهـا باعتقال صديقه، إنها ميتـة لا تتأتّى إلّا لشاعر عظيم وإنسان فذ.

الصبـر الدائم لعائلتـي وتحمّلها، بشرف وشجاعـة، والتشارك لسنوات في شظف العيش قبل آلام معاناة تجربة الحبس، ثم توفيرها الجـوّ المناسب للعمل والكتابة والسهر وتقلّـب المزاج.. كلّ هذا وسواه لا يمكن أن يكافئه سوى حبّ بلا حدود.

قبل أشهر من بدئي بكتابة هذا الكتاب، كان قد تُوفي والدي بعد حياة شكّل القلق، قلقه الدائم على مصيري ومستقبلي، هاجساً كبيراً فيهـا.. وقبل أشهر أيضاً، أهدانا بـلال وزوجته سارة حفيدي الأول ليـث الذي لوّنت سعادة الحياة قربه الكثير من وقت الكتابة، والذي آمل له ولجيله مستقبلاً لا خوف فيه..

ولهمـا، لوالـدي ولحفيـدي، لماضيّـي ولمستقبلـي، أهديت الكتاب.

بغداد / حي أور

تموز ٢٠١٢

(١)

بحركـة واحدة فتـح الحارس بـاب الزنزانة، ورفـع خرقة قماش كانـت قد عُصبت بها عيناي وأخرى أوثِقـتْ بها يداي إلى الخلف، ودفع بي إلى الظلام.. سألني، وهو يغلق الباب ويضع الأقفال فيه:

- هل أنت جائع؟

كان ذلك آخر سؤال أتوقّعه من حارس سجن، وقد كان أوّل سؤال قد لا أحتاج إلى إجابة له في مثل هذا الظرف وهذه اللحظة..

قبل أربع ساعات من هذا، وحال وصولي إلى (سجن الحاكميّة)، كنـت قد تركت ساعتي وعلبة سكائري وقداحتي وملابسي وأوراقي الثبوتيّة وراتبي الذي كان معي لدى غرفة الأمانات لأستبدلها ببيجامة مخطّطة ونعـل بلاستيكي وبطّانيّتين. كان فـي الغرفة موظفان أصغر منـي عمراً، سألنـي أحدهما عـن قضيّتي، عن القضيّـة التي جيء بي بسببها إلـى السجن، وحين أجبته بعدم معرفتي أيَّ شيء عن أيّة قضيّة أو مبرّر لمجيئي، ردّ الثاني عليه، وعليَّ ضمناً بالقول:

- دعه، كلُّهم هكذا، حين يؤتى بهم يقولون لا نعرف. ثم يتبيّن أن كلّهم بعد ذلك يعرفون .

هذا التوضيـح المنطوي على تهديد من الموظّف الثاني لم يوقف فضول زميله الذي عاد، في أثناء ما كنت أخلع بنطلوني، فسألني ما إذا كنت قد كتبت فـي الجريدة شيئاً ممنوعاً. يبدو أنّه أُحيط عِلماً مسبقاً بعملـي، اكتفيـت بقـول: لا! كان واضحاً عنـدي أنّ مهمّة الرجلين

هي (حفظ الأمانات) وتجهيز السجين بملابس السجن الموحدة وليست التحقيق فلم أبدِ جديّةً، سواء في سماع تعليقاتهما أو عند الإجابة عليها، كان كلّ بالي يتركّز في ما ينتظرني بعد الخروج من غرفتهما: أين سيمضون بي، وماذا سأواجه؟

لا أعرف الكثير عن (سجن الحاكميّة) الذي كان، كما هو حال جهاز المخابرات نفسه، يحاط بسريّة تامة وغموض يضاعفان الخوف الذي يراد أن يثيره الاسم في نفوس العراقيّين. كانت بشاعات معتقلات (الأمن العامّة)، سواء الرئيس منها في حيّ البلديات ببغداد أو تلك التي في المحافظات وكثير من الأقضية واضحة لمعظم الناس بفعل كثرة الذين يدخلونها ويغادرونها إلى (سجن أبو غريب) بعد الحكم عليهم وما يسرّبونه عن تلك المعتقلات وعن زنازينها وأساليب التحقيق والتعذيب فيها، لكنّ غموض (الحاكميّة) بقي يؤكّد للناس أنّ الناجين منه نادرون، وعادة ما يلتزم هؤلاء النادرون صمتاً مطبقاً عن ظروف اعتقالهم وعما شاهدوه ولاقوه، وستكون نجاتهم والحفاظ عليها هما الدافع الأكبر لنسيان ما حدث أو لتناسي حياتهم في (الحاكميّة). يوقّع المعتقل قبل مغادرته ((الحاكمية)) بريئاً مطلق السراح أو منقولاً إلى سجن آخر على تعهد بنسيان كل ما رأى وسمع وعرف وقرأ وقال داخل أسوار السجن.

– خذ ملابسك وحاجاتك وامضِ، إنسَ كل شيء واحذر أي شيء حتى لا تعود إلى هنا!

هذه هي الجملة الأخيرة التي يسمعها المعتقل مطلق السراح وهو يغادر حذِراً من أي قول أو تصرف، ولهذا، ربما، لم يحظ هذا السجن بالشهرة التي كانت قد حظيت بها سجون عراقيّة أخرى

مثل سجن (نقرة السلمان) في صحراء السماوة وسجن (رقم واحد) في قلب بغداد، وسواهما من السجون العراقيّة الكثيرة التي بات أشهرها سجن (أبو غريب) بفعل ما توفّر له من شهرة دوليّة بعد الفضيحة التي سرّبها جنود أمريكان عن سوء تعاملهم مع معتقَليهم، لقد أخفت هذه الفضيحة وأزاحت إلى الخلف منها جرائم الإعدام وآلاف القصص التي كان قد تعرّض لها في (أبو غريب) سجناء عراقيون طيلة عمر هذا السجن، ولن أنسى من بين هؤلاء المعدومين ابن عمي طاهر الذي نقلنا جثته من هذا السجن عام ١٩٨٤ إلى مقبرة وادي السلام مباشرةً، من دون المرور بالبيت أو إقامة عزاء، حسب ما نصّت أوامر رجلَي الأمن اللذين حضرا إلى بيتي في الغروب قبل ليلة إعدامه بساعات لتبليغنا بذلك، ولندفع لهم ثمن الرصاصات التي سيعدم بها، ولا أذكر الآن ما إذا كان ذلك الثمن الذي دفعناه لهما، صامتَين أنا ووالدي، دينارين وأربع مئة فلس. إنه مبلغ تافه بقيمته المالية، ولكنها تفاهة مقصودة لتضاعف الشعور بالتحقير ومدى الطغيان.

داخل الزنزانة، خمّنت أن الساعة تقترب من الثالثة عصراً. قلت مع نفسي لم يكن سؤال الحارس الذي لم أره تماماً إلّا من أجل تحفيز الجوع في داخلي، فقد سمعتُ وقعَ خطواته في الممر تبتعد عن الباب المُغلق.. لم أجبه ولم ينتظر إجابتي.

لم أرَ الظلامَ في الزنزانة المقفلة؛ فاستدرت، يائساً، نحو الباب الذي لم أرَه هو الآخر، حاولت تلمّسه، خمّنت أنّه كتلة حديد صلبة وملساء أُطبقت عليّ وعلى هذا الظلام الذي سيأخذ شيئاً فشيئاً بالتخفّف، ليكشف أخيراً عن مصباح صغير أزرق شاحب الضوء

وُضِع على رفٍّ هو بقايا نافـذة صغيرة في أعلـى الجدار المجاور للبـاب، أُزيلـت النافـذة بتغليفهـا بطبقـة معدنيّة صلبـة من خارج الزنزانـة، وجـرى تشبيك الرفّ من الداخل بأسـلاك معدنيّة تحفظ المصبـاح داخل الـرف من محاولات محتملـة، ربما حصلت، قد يقوم بها السجناء بهدف الوصول إليه وربما الانتحار بواسطته، لقد زُوِّد المصبـاح بتيّار كهربائي محدَّد بفولتيّـة معيَّنة تسمح له بتزويد الزنزانة بإضاءة شحيحة لا تتغيّر.

في أثناء مرافقة الحارس لي من غرفة ضابط التحقيق إلى الزنزانة، وعلـى السلَّم الضيّق، وأخيراً في الممرّ ما بيـن الزنازين، كان يقول لي، بين حين وآخر وهو يمسك بزندي الأيسر، بضع جمل متقطّعة، أحفظ منها الآن، بعد هذه السنوات:

- سنبلغك بأوقات الصلاة، فلا تسأل عن المواقيت .

- لا تفكّر بالنكران.. في الأخير ستعترف حتماً!

- أنت هنا إنسَ اسمك.. أنت هنا اسمك ١٦.

- إذا عرفـتَ أيَّ واحـد، سـواء منّـا نحن الموظفيـن والضباط والمحققين أو من الموقوفين، يجب أن تبلّغ عن ذلك فوراً.

- ستجد في زنزانتك حنفيّتين (صنبورين)، إحداهما للماء البارد والأخرى للماء الحار.. تحتاج إليهما في الاستحمام وتنظيف أواني طعامك، فلا تزعجنا بأسئلة لا داعي لها وتعرّض نفسك للإهانة.

تعاملـتُ، صامتـاً، بجديّة مـع التوضيحات والتبليغـات الأولى لكنّي استغربت، بصمت أيضاً، من السخرية الأخيرة وكلامه عن ماء بـارد وحار؛ عجبت أن يكون له هذا المزاج لمثل هذه السخرية في

تلك اللحظة، ففي بيتي وحتى في مقر عملي الصحفي في الجريدة، وليس هنا في الحبس، لا أتوفر على أنبوب لماء ساخن.

كان تفكيري بالوقت يشطرني إلى اثنين، أحَدهما كان يفكّر بالوقت الذي يجري خارج السجن وما كنت قد دأبت على عمله يوميّاً في مثل هذا التوقيت وما أتوقع حدوثه الآن في ذلك الوقت الذي فُصِلتُ عنه بحادث القبض عليّ واعتقالي، فيما كان ثانيهما منشغلاً بهذا الوقت الجديد على حياتي، الذي هو وقت الحبس والزنزانة و(الحاكميّة). كان وقتي الجديد هذا يتطلّب هو الآخر تفكيراً فيه وفي ما يجري في نظامه وظروفه وتقلّبات الأحوال فيه.

توجّهت مباشرةً في الظلام إلى الحنفيّتين الموجودتين فعلاً في آخر الزنزانة على مساحة ضيقة مرتفعة بحوالي أربعين سنتمتراً عن الباقي من مساحة الزنزانة المخصص للنوم. كانت إحدى الحنفيتين لا تحتاج أصلاً إلى فتحها، فهي مفتوحة؛ كان وقع صوت الماء الساقط منها شديداً وسط الصمت والظلام والوحدة. اقتربت منها، مددت كفّي، فاسترجعتها بسرعة خاطفة تحت لسعة الحرارة؛ كانت حنفية لماء ساخن جداً، وهو ما ضاعف دهشتي التي امتزجت بشيء من خجل وبمشاعر تأنيب لعدم ثقتي بما قاله الحارس، لكنّ الدهشة سرعان ما تبدّدت وتحوّلت إلى حيرة وارتباك حين فتحت الحنفيّة الثانية فقد كانت هي الأخرى أيضاً توصل ماءً حاراً بالسخونة ذاتها. لا وجود لماء بارد في هذا الحبس والظلام.

في سنوات التسعينيّات، وفي غمرة اجراءات التفتيش الدولية التي تعرّضت لها كلّ مرافق ومؤسسات النظام السياسيّة والصناعيّة والأمنيّة، كان جهد دوليّ متنامٍ، لدوافع كثيرة، قد تكرّس لمراقبة

أحوال حقوق الإنسان والحريّات والسجون والإعدامات في العراق، ولقد بدا هذا الجهد أشبه بصحوة متأخّرة محاطة بتساؤلات العراقيّين المستفيديـن من تلك الصحوة عن الاستخدام السياسي الواضح لهذا الجهـد الإنساني النبيل. لقد اجتاز العراقيّـون أكثر من عقد قبل هذه الصحـوة كان صمـت العالم خلاله علـى الفظاعات التـي تمارسها السلطـة يبـدو أشبه مـا يكون بقبـول دولي متواطئ مـع جرائم تلك السلطـة وراضٍ على خنقها الحريّـات وإعدام وقتل عشرات الآلاف مـن أصحاب الرأي أو الموقف وحتى ممّن لا رأي لهم بالإضافة إلى السجناء والمنفيين. وكانت تقارير المعارضة العراقية، خلال سنوات التواطـؤ تلك، تُواجَه بالإهمال والإعراض عنها من قبل هيئات دوليّة وحكومات ومؤسّسـات معنيّة بحقوق الإنسان بتبريرات واهية ومن دون تبريرات.

كانت فائدة العراقيّين من تلك الصحوة الدوليّة التسعينيّة المتأخرة محدودةً. لقد جاءت من بعدما أُفرغ البلد تماماً من أيّ جهد معارض منظّم. لقـد تحوّلت المعارضـة الشعبيّة إلى دواخـل الناس الناقمين الصامتيـن، إلـى معارضـة باطنيّـة متستّـرة تنتظـر فرصتهـا للظهور والانفجار، مثلما ظهرت بعد حرب ١٩٩١ وها هي في عام ٢٠٠٣ تنتظر ثانيةً فرصة الإيقاع بالنظام السياسي وتركه ليلقى مصيره بإرادة خارجية..

لقـد كان مـن تلك النتائج العرضيّـة لصحوة العالـم المتأخّرة هو (التحسّن) النسبي في ظروف السجن الذي يتعرّض لزيارات مفاجئة من قبـل منظّمات ومؤسّسـات دوليّة؛ كان أبرز هـذه (التحسينات) تغييـر لون جـدران الزنازين مـن الأحمر الصارخ الـذي كانت عليه

لسنوات إلى لون آخر أصفر باهت، وربّما هذا الماء الساخن ومعه ماء بارد توقّعت وجوده في الزنازين الأخرى وتعطيله في مثل هذه الزنزانة الانفرادية التي حُشرتُ فيها والتي تستخدم حتّى التحسينات فيها لأغراض نفسيّة تعذيبيّة.

فكّرت للحظة أن أنادي على الحارس، فلربّما ثمة عطل أو خلل ما جعل الحنفيّتين تنقلان ماء ساخناً. لقد بدت الزنزانة، ولا أدري كيف تأتّى لي هذا التصور، كما لو أنها كانت مهجورة منذ أشهر، وهو ما جعلني أفكّر في أنّ هذا سببٌ كافٍ لنسيان هذا الخلل. استسخفت حماقتي، وتذكّرت للحظة هاتفَ الغرف في الفنادق والاتصال من خلاله بموظفي الخدمة أو الصيانة واستدعاءهم في مثل هذه الحالات، فضحكت بمرارة وبدأت أفكّر بضرورة البحث عن حل.

لا مفر، ليس أمامي سوى مواجهة كثير من حالات أخرى ربّما ستكون أكثر قسوةً من هذه، وعليّ أن أدرّب النفس منذ اللحظة على مواجهتها.

عشت حياة فقيرة في عائلة كبيرة سنواتٍ طويلة من عمري، غير أنّ الفقر لم ينجح في تأهيلي لأن أكون رجلاً عمليّاً، ولا سنوات دراستي المقطوعة في كليّة الهندسة تمكّنت من ذلك التأهيل الذي لم تنجح فيه حتّى سنوات الخدمة العسكريّة في الحرب لمدّة ثماني سنوات. لكن في هذه اللحظة، في هذه الزنزانة، في هذه الوحدة التي لا أعرف كم ستمتد، لا بدّ من حياة أخرى، حياة لا ينبغي أن يعتمد فيها المرء على نفسه حسب، وإنّما يكون أيضاً مطالباً باختراع حلول حين لا يكون هناك من حل.

كان على مقربة من أحدى الحنفيتين إبريق ماء بلاستيكي ممّا

يستخـدم للتنظيف بعد إكمال الحاجة فـي دورة المياه، حيث كانت بين الحنفيتيـن سيفونة تواليت. تناولت الإبريـق وتأكّدت من سلامته من أيّ ثقب يتوقع حصوله في معظم الصناعات البلاستيكيّة المتداولة آنذاك في سنوات الحصار التي كان يُعاد فيها تصنيع المواد البلاستيكيّة وبمـا يجعلهـا عرضة للتلف السريـع. غسلت الإبريـق لأكثر من مرّة بالمـاء الساخن، ثم ملأته به، وتركته جانباً في انتظار أن يبرد. هذا هو الحلّ الذي لا بدّ منه لمواجهة العطش ولتأمين ماء قابل للاستخدام في مختلف الاحتياجات إليه.

كان يوم اعتقالي من مبنى الجريدة يوماً شتائيّاً معتدلاً من أيام كانون الثانـي؛ شعرت بالعطش، للمرّة الأولى، بعـد استجواب دام ساعةً في غرفة ضابط التحقيق، نقيب المخابرات حميد، الذي استأذنته لتناول بقايـا ماء في قنينة مرميّـة على أرضية الغرفة أسفـل النافذة، التفتَ إلى القنينة، وقد أحسست بحرجه من منظرها مرميةً، ردّ بفتور:

- لا، هـي قديمة ومهملة هنـا، يمكنك تناول المـاء بعد قليل في زنزانتك.

صمت قليلاً، ثم قال:

- تعلّم الصبر، الأشياء لا تُطلب هنا، الأشياء تُعطى فقط..

لكن في الزنزانة اختفى الشعور بالعطش. تركت الماء يبرد، دارت عيناي على جدران الزنزانة التي لا تتجاوز مساحتها أربعة أمتار مربعة، لـم أنشغل بأثر نافذة صغيرة ثانية مـا زال على الجدار المقابل للباب، لقـد أُغلقتْ تلك النافذة ببناء من خارجها بالطابوق، ومع هذا البناء تمّ إحـكام الزنزانة من أيّ نفاذ للضوء وللهواء، والاكتفاء بذلك المصباح الصغيـر وبتهويـة مركزيّة معتدلـة وثابتة عنـد درجة معيّنـة محايدة،

وسافهــم بعد فترة أنّها كان يــراد بها عزل الموقوف عن نظام الفصول وتغيّرات المناخ في خارج محيط الزنزانة، فلا يعود السجين يعرف ما إذا كان في الشتاء أم في الصيف.

تدريجيّــاً، وبعد أقل من ساعتين، بــدأت عيناي تتكيّفان مع درجة إضاءة الغرفة؛ لاحظت آثــار الطلاء الأحمر القديم على الجدران وقد توارى تحت الطــلاء الباهت الذي بدا جديداً، لكن الطلاء الجديد لم يخفِ بيتــاً من الشعر كان قد حفره سجينٌ سابق في الزنزانة عند أعلى أحد الجــدران، وما زلت أجهل كيف تمكّــن ذلك السجين من حفر البيــت الشعري على الجدار، بأيّة أداة، وكيــف بلغ هذا الارتفاع. لم تكن إدارة السجن تمنع إدخال أيّة قطعة معدنيّة أو زجاجيّة إلى الزنزانة حسب، وإنّما كانت أيضاً تراعي تقنين الأدوات البلاستيكية وحصرها بإبريــق وصحن للطعام ومعهما إناء متعدد الاستعمالات لتناول الشاي والماء والحساء، كما عرفتُ ذلك في الأيام التالية.

الآن نسيــت اسم السجين السابق حيث كان مكتوباً تحت البيت، لكــنّ بيــت الشعر كنت أحفظه قبــل دخولي الزنزانــة: " ضاقت فلمّا استحكمت حلقاتها / فرجت وكنت أظنّها لا تفرجُ"، وهو بيت شعري مشهــور مع بيت آخر: (ولربَّ نازلةٍ يضيــق بها الفتى/ ذرعاً وعند الله منهــا المخرجُ)، والبيتان ممّا ينسب للإمــام الشافعي. تفاءلت بالبيت الشعري، غير أنّ الهامش الذي وضعه السجين تحته حرّك فيّ مشاعر متضاربة بين القلــق والاطمئنان والخوف والقــوة؛ يضع السجين في الهامش اسمه وتاريخــاً غير واضحين، التاريخ هو يوم صدور الحكم بالإعدام ضده وهو يوم كتابته البيت الشعري على حائط الزنزانة، كما تفصح عن ذلك البقيّة الواضحة من الهامش المتروك أسفل البيت.

فـي الظلام، في اللحظة التي رماني فيها الحارس في الزنزانة، وأنا أسمـع صوت الأقفــال ومفاتيحها، لـم أكن أرى شيئــاً، فكان أوّل ما فعلـت هو التوجّه بصوت مسموع إلى الله: "كنت دائماً معك.. كن هذه المرّة معي".

لم يتبدّد خوفي وقلقي، لكنهما امتزجا بمشاعر جديدة ممّا حسبته اطمئناناً واستقراراً داخلياً.

قبـل السجــن بسنتين، كنــت قد قلت فــي حوار صحفــي أجرته معي صحفيّــة شابة إنّ طبيعــة تفكيري العلماني تمتــزج دائماً بشيء من التديّن الذي تربّيــت عليه طفلاً، وتغذّى بعد ذلــك بروح الشعر وبثقافــة منفتحة على قيم كنــت أراها في الجوهر مــن التديّن العميق الــذي ارتبطت معه بالله في إطار علاقة روحيّة باطنيّة قد يشعر بها كل من يعرفني لكن ليس بالضــرورة يعرفها. شعرت بقوّة خفيّة ابتسـمت معها ثم ضحكت بصوت مسموع.

لــم أرد على الحارس الذي سألني ما إذا كنت جائعاً، بقيت واقفاً في الظــلام، لكنّ البيت الشعــري الذي قرأته، وكما لــو كنت للمرّة الأولــى أتعرّف عليه، تداخل مع ذلــك الاطمئنان بما أثاره من خوف التفكيــر بالإعدام ومن قوّة الثقة بأمل ما، بفرج ما، قد يأتي حين نظنّ أنها لن تفرج.

في السجن دائماً ثمّة أمل ما..

وسيُختَلــق مثلُ هذا الأمل حين يتلاشــى أيّ بصيص لأمل واقعي، سـواء في السجن والحياة فيه أو في خارج السجن، في عالم السياسة الذي يصنع السجون والذي يهدمها أيضاً.

مــن الصحيــح أنّ السجــن، فــي وجــه مــن وجوهه، هــو مجال

زمنـي مقتطع من الزمـن العام للسجين والحياة لكـنّ الحياة الداخليّة للسجيـن، وكجزء مـن مناعات البشـر، تبقى تحرص علـى أن تديم الصلة بين زمنها المقتطع في الحبس والزمن العام الذي يجري خارج السجـن، وعادةً ما يكون الأمل هـو الوسيلة الأكثـر استدعاءً لإحياء الصلـة وتجسيرها بين الزمنين. لا يريد السجيـن أن يذوب ويتلاشى في هذا الزمن المجمَّـد في الحبس، سيكون الأمل هو جسره لإعادة الاندمـاج بذلك الزمن الذي يصبـو إليه، الزمن كما يجري في الحياة هناك خارج السجن.

عـدت ثانيةً مع انكشـاف الضـوء فاستدرت نحو البـاب؛ أطبق بأسٍ كامل عليّ، كانت كتلته الحديديّة أفظـع مما خمّنت قبل قليل. انحنيـت وانبسطت على الأرض، لا يوجد أيّ منفذ للضوء بين قاعدة البـاب وأرضيّة السجن، لكـن النافذة الوحيدة التـي بقيت تعمل في الزنزانـة هي تلـك النافذة الصغيرة التي وُضِعت علـى الباب والتي لا تتجـاوز عشرين سنتمتراً ارتفاعاً ومثلهـا عرضاً، نافذة تكفي لمناولة الغـذاء ولتطلّع الحارس إلى السجين وزنزانتـه ومغلقة بحديد بنفس السمك الذي عليه حديد الباب، ومقفلة هي أيضاً وكما لو كانت باباً في الباب.

البطّانيّتـان ما زالتا ملفوفتين على الأرض أمامي كما تسلّمتهما من غرفة الأمانات مع البيجامة التي أرتديها والنعل الرصاصي المصنّع من البلاستـك المعاد والذي أخطّ به علـى أرضية الزنزانة الآن بخطوات عشوائيـة. احتجـتُ إلـى أن أدخّن سيجارة، فمـددت يدي بحركة لا إراديـة إلى المكان المفترض للجيب، فلا جيب في البيجامة، تذكرت أن العلبـة سُحبـت مني من قبل الموظفين في تلـك الغرفة، تذكرت أن

آخر سيجارة كنت قد دخّنتها كانت قبل ثلاث ساعات تقريباً، سيجارة (كِنْت) قدّمها لي مدير القسم (هكذا سمّوه لي) في لحظة مجاملة لم يكن صعباً تخمين دواعيها، كان شاباً وسيماً وأنيقاً، لم أعرف رتبته، قدّم نفسه لي على أنّه زميل يدرس الإعلام مساءً في كلية الإعلام، قال:

- أحترمك قبل أن نتعارف.

ثم أضاف توضيحاً:

- احترمُ رصانتك!..

دخّنت سيجارته وأنا أفكر ما إذا كانت هذه (الرصانة) تعبيراً فعليّاً عن احترام أم هي تلميح خفي إلى تهمة، فالرصانة في وضع يُراد فيه للجميع التحولُ إلى رعاع ستكون وصفاً داعياً للشك والتحسّب وللاتهام..

بعد صدمة السيجارة والفشل في العثور على جيب وعلى علبة سكائر قرّرت ترك التدخين والامتناع عن التفكير به. " ستذلّني السيجارة" قلت ذلك مباشرةً حين سمعت سجيناً آخر، في زنزانة أخرى، يتوسّل الحارس من أجل سيجارة، وكان هذا يردّ عليه بشتيمة نابية. هذا القرار الصارم ربما كان محاولة لا واعية لإيهام النفس بموقف إيجابي حر من ترك التدخين بينما هو يخفي وراءه الدافع الاضطراري السلبي لعدم توفر السيجارة. رأيت أن مطالَبة السجين بسيجارة وشتيمة الحارس هما شكل طبيعي من أشكال تصارع الإرادات والمواقف؛ يريد السجين أن يعبّر عن احتجاجه على إرادة الحبس والمنع ويطالب، ولو بصيغة توسّل، بما يراه حقّاً ممنوعاً عنه، فيما تعبّر شتيمة الحارس عن استخدامه لحقّ السلطة الممنوحة له، سلطة المنع والقهر والنهر، وهي السلطة التي تجعله

طليقـاً يتمشّـى في الممـر لمراقبـة مسجونيه وتجعل مـن السجين رهين حبسه في داخل الزنزانة الضيّقة المظلمة خلف الباب الحديد بأقفالـه وبالمفاتيح التي هي في يد الحارس. ولعلّي الآن، بعد هذه السنـوات، وأنا أدوّن هذا لا يبدو لي ذلـك الحارس إلّا سجيناً، هو الآخـر، رهيـن محبسين: هذا المـكان بأجوائـه الكابوسيّة والذي ينفـق فيه أيّامه وسنيّ عمره، وذاته التـي تبقى أسيرة المكان والمهنة وأخلاقهما ونظامهما حتّى حين يكون في الخارج منهما.

كان مـاء الإبريـق مـا زال دافئاً عندمـا ارتشفت جرعـةً منه، لم استطـع ابتلاعها حيـن تذكّرت وظيفـة الإبريق في هـذا المكان.. كان مـن الطبيعي أن لا أعرف عمر هذا الأبريـق هنا، ولا الوظائف التـي أدّاها، غيـر أن اطمئناني إلـى نمط سجنـاء (الحاكميّة)، وهم عادة مـن المتّهمين السياسيّين في معظم الحـالات، لم يمنع من أن أرمي جرعـة الماء من فمي في فتحة السيفـون لتخرج منه ثلاثة من الصراصـر، انزعجت منها فدفعتها بطـرف النعل نحو السيفون من دون أن أسحقهـا، لكـن الصراصر والحشـرات الأخرى والديدان بقيت طيلة مدّة السجن واحدة من مشكلات كثيرة جعلت من النوم امراً مستحيلاً.

بعـد ساعتين تقريباً، حسبما أخمّـن الآن، من الوقوف والتمشّي والـدوران في محيط الزنزانة، بدأ الركـون إلى الواقع، واقع الحبس والتسليم بـه والتكيّف مـع الممكنات المتاحة فـي الزنزانة يفرض نفسه على التفكير.

فتحـت البطّانيّين اللتين أعادتاني إلـى أيّام الحرب والجيش. لا فرق؛ هنا حبسٌ في سجن الحاكميّة، في زنزانة، بين أربعة جدران في

أمتار محدودة، وبنظام إدارة يُبلغ المرءَ أنّه سجين وعليه أن يتصرّف على وفق هذا الوضع، وهناك في الحرب، قبلٍ سنوات، كان الحبس في الصحراء المفتوحة، صحراء الشِيب والفكّة ورمالها وعواصفها الترابيّة وحشراتها وديدانها وأفاعيها، ولكن بنظام إدارة آخر كان يريد أن يوهم المرء أنّه حر وطليق وأنّ كل تصرفاته محكومة بإرادة الحريّة التي يتمتّع بها، لكنّها حريّة القبول وتطويع الذات على الإذعان والتنفيذ بما تقتضيه الإرادة الكليّة، إرادة الحرب. كان ذلك شكلاً من أشكال الحبس لا يقلّ فداحةً عن هذا الحبس الصريح. لكن، وفي كلا الحبسين، كانت الحياة مهدّدة، وكانت الحريّة إمّا مستلبة أو منظّمة للعمل بعكس ما تقتضيه الحرية الحقة، وكان الموت مؤجّلاً، هنا بقرار من سجّان وهناك برصاصة، ومن دون أن نعرف متى يُطلَقان: القرار والرصاصة.

لقد عشت سنوات الحرب والجنديّة، وكان الشعور بالحبس فيها لا يخفّف من وطأته سوى الشعور بنعمةِ أنّي ما زلت حيّاً وسط ذلك الجحيم، لكن هذا الشعور كان يخفي تحته فظاعة ذلك الموت المؤجّل الذي لا أدري متى يحين. كانت سخرية مريرة تلك التي تساءل بها صديقي والجندي معي حميد المحامي في إحدى المرّات التي دخلنا فيها موضعنا القتالي، عائدَين معاً من إجازة بين الأهل، هو في ناحية غماس في الديوانيّة وأنا في بغداد، حيث قال لي:

– ما أكثر المرّات التي دخلنا فيها وخرجنا من هنا ونحن بوضع عمودي.. لكنْ مرّة واحدة فقط قد نخرج فيها من هنا بشكل أفقي.. هذه المرّة، إنْ حدثت، فلن تتكرّر!

وهكـذا استمرّت سعـادة وجودنا العمودي تـرزح تحت مرارة عـبء انتظار تلك المـرّة الأفقيّـة التي نُحمل فيهـا كقتلى حرب.. انتهت الحرب ولم تأت تلك اللحظة، ولكن كم دفعنا جرّاء تأخّرها من ثمن نفسي وسلوكي باهظ طيلة تلك السنوات.

فرشت إحدى البطّانيّتين علـى أرضيّة متربة، اختلط فيها التراب بحشـرات وديدان ميّتة. حاولت أن أنظّف الأرضيّة بطرف من تلك البطانيّـة قبل أن أفرشها، كـوّرت الثانية لأعمل منها وسادةً، لم أعتد أن أنـام من دون وسادة. بقيت أراقـب الفراش عن بعد، ولم أستطع التمدّد عليه.

(٢)

كثيراً ما بقيت الصورة الأفقية والعمودية التي حفظتها عن حميد المحامي، صديقي في الحرب، تحضر إلى ذهني في مواقف مماثلة كثيرة مررت بها بعدما انتهت الحرب مع إيران ثم حرب الكويت التي لم أشارك بها بفعل مدّتها الخاطفة وتخلّفي عنها ثم تسريح الجميع، الملتحقين والمتخلّفين والأسرى والهاربين والمفقودين، بفرض من الأمريكان المنتصرين على السلطة المهزومة في تلك الحرب والتي أُلزمت بتقليص الجيش، عدةً وعدداً.

كانت حكمةُ الصديق المحامي تأخذ أشكالاً كثيرة؛ ففي عملي في جريدة (الجمهوريّة) التي اعتُقلت فيها، بقيتُ طيلة سنوات العمل أعاني من شعور يومي ينتابني كلّما اقتربت من باب الجريدة، شعور أنتظر معه أن أدخل الجريدة لأجد من رجال الأمن أو المخابرات مَن يرقب قدومي، حيث كنت اعتدت على الحضور يومياً للعمل بين الساعة التاسعة والتاسعة والنصف، ليعتقلني..

عشت تحت هاجس انتظار الاعتقال سنوات لم أكن فيها مرتبطاً بأيّة صلة بأيّ عمل سياسي، سواء معارض أو حكومي، لكن هذا وحده لا يكفي المرء للاطمئنان على الحياة والحريّة. أنْ لا تكونَ مخلصاً ومطيعاً فهذا ما يجعل منك في وضع مريب، وفي حدٍّ آخر ألطف يكون عليك معه أن لا تطمئنّ على وضعك ما دامت السلطات الأمنيّة نفسها هي غير مطمئنّة على هذا الوضع المقلق. كان يجب أن نضبط اطمئناننا وقلقنا على مقاس اطمئنان وقلق تلك السلطات

إزاءنا. كان الأشد فظاعة من هذا، وهو ما كان يزيد الأمر سوءاً، أنّ المخْلصين أنفسهم لم يكونوا في حال يدعو الى الاطمئنان، وكم ورط الخوف كثيرين ليدفعهم إلى الوشاية بآخرين ليس كرهاً فيهم وإنما لتفادي عقوبة إخفاء معلومات كانوا في لحظة نحس سواء قد عرفوها عن الضحايا أو منهم مباشرة. كانت فلسفة السلطة في علاقتها مع أصدقائها وتابعيها والسواد الأعظم المحايد من المواطنين تقوم على الإخافة، علاقة خائفين بمُخيف: أنت في أمانٍ وسلامٍ طالما أنت تعمل وتتصرف كخائف.

كنت مرّةً في ضيافة الصديق الشاعر سعد أرشد، وهو واحد من أقرب الشعراء إلى صدام، لكنه من أكثرهم مرونةً وتسامحاً مع أدباء وفنانين يُحتَمل أنهم من ذوي النزوع الثقافي المعارض أو المحتج، كنّا معاً في بيته، حين تورَّطنا في نقاش امتدّ وتشعّب من الشعر والتّصارع بين أشكاله وأجياله إلى طبيعة استخدامه الدارجة في تلك السنوات، كشعر للتعبئة والمديح وهجاء الخصوم، في مقابل اتّجاهات أخرى من الشعر بدأت تتنفّس وتنمو في الظلال، عبر ما يكتبه شعراء شبّان من شعر تفادى الحالين: مدح السلطة من جانب والتعبير السياسي الصارخ المحتج عليها من جانب ثانٍ وذلك بالانشغال في عمل آخر، ربّما هو الأجدى في ضوء تلك الظروف، عمل تركّز في الحفاظ على صيانيّة الشعر ورصانته بقيم وفنّ يحصّنه من الاندراج في طابور الاستهلاك. استمر بنا الحوار حتّى بلغنا كلاماً صريحاً في التّشكّي والألم من ضيق مساحة الحياة والحريّات الأساسية التي يحتاجها الإنسان، ليس من أجل عمل سياسي معارض وإنما في تصاريف يومه وعلاقاته وراحته في البلد. قطع سعد ذلك التطور في الكلام بنكتة مفاجئة، لا صلة لها بالحديث، تبعناها بالضحك، مع إشارة واضحة

من عينيه بضـرورة التوقّف عن الكلام، اقترح أن نمضي إلى نزهة في شـارع أبي نواس، وفي الطريق من باب بيته إلـى مرآب سيارته تكلّم باقتضاب وصرامة:

- لا تتكلّـم بشيء من حديثنا في السيّارة! نكمله في الشارع، في أبي نواس!

وحيـن تركنا السيّارة في أبي نواس بعد اغلاق مسجّلها الذي كان كاسيت يدور فيه بأغنيات لنجاة الصغيرة، قال لي:

- أرجـوك أن لا تزعل من قطع الحديث، أنا أخشى من أن تكون هنـاك لاقطات صوت مركّبة سرّاً في منزلي ومكتب عملي وحتّى في السيّارة.

لم اتفاجأ بهذا الحـذر والتحسّب، ولـم أعلّق بشيء. أراد سعد أن يكون أكثر لطفاً معي وربّما أشدّ تحذيراً، فقال:

- تعرف أنا محسـوم أمري ويمكن أن أخْلَص، لكن خشيتي هي عليك أنت!

كان الجانب الإنساني في سعد يقظاً وحيويّاً في التعامل مع الأدباء خصوصاً أولئك البعيدين منهم عن التنافس على التقرّب من السلطة. كانت معظـم خصوماته تتركّز في مواجهاتـه المستمرّة مع (أقوياء)، مع منافسين مـن دائرة الولاء الضيّقة، وهذا مـا جَعله الأقرب، نفسيّاً واجتماعيّـاً، إلـى قطاع عريض مـن شعراء وأدبـاء محسوبين خارج الـولاء. لقد ساعدَنـا الرجلُ كثيراً، وكثيراً ما يسّر خـروج أدباء شبّان وشيـوخ من البلد عبر حصولهم على جواز سفر بيسر أو بإعفائهم من مبلغ الرسومات الماليّة، أربع مئة ألف دينار، المفروضة على العراقيّين الراغبين في السفر، كان يعرف نيّات كثير منهم للالتحاق بالمعارضة

العراقيـة في عمّان، لأسباب سياسيّـة وغير سياسيّة، ومن ثم الحصول علـى لجوء في الغـرب، لكن حتى الخوف الذي عبّـر لي عنه كثيراً، وهو خوف مـن أن يستغلّ منافسوه، وهم اعـداؤه، هذه التسهيلات للوشاية والإطاحة به لم يمنعه من مواصلة إبداء المساعدات.

كان هـذا الخوف يجـد أكثر من داعٍ له في الحيـاة العراقيّة. كان القرّاء يتداولون بالسـرّ نسخاً تجري إعادة طباعتها بالفوتو كوبي من كتـاب كنعان مكيّة (جمهوريّة الخوف) الذي صوّره الأمريكان على أنه دافع أساس لهم من أجل العمل على إسقاط صدام ودخول العراق واحتلاله . كان الحديث في العراق عن الخوف يتداخل بين تعبير عن احتجاج وغضب من الحـال وبين تحذيرات يائسة يتناقلها الناس مع بعضهم من أجل تفادي بطش السلطة التي لم يعد أمر بقائها أو زوالها مرهوناً بقدرة العراقيين أو عدم قدرتهم على ذلك، فمنذ عامين تقريباً صار واضحاً للجميع أنّ الأمريكان حسموا أمرهم لإنهاء سلطة صدام حسين، ولم يجد العراقيّون في داخل البلد ما يفعلونه إزاء ذلك سوى الانتظـار، انتظار حرب رأوا أنّهم ليسوا طرفـاً فيها، وعليهم الحفاظ على الحيـاة لتجاوز أيّام تلـك الحرب وما يسبقها مـن أسابيع آخذة بالتقلّص أمام لحظة الانفجار المنتظرة.

١١/١/٢٠٠٣ كان يوم اعتقالي.

دخلـت مبنى الجريـدة بالقلق اليومي ذاته مـن احتمال الاعتقال. كان عملـي الثقافي، والشعري بشكل أخص، قد بقي، إلى حدٍّ بعيد، فـي منأى عن الاستخدام السياسـي الترويجي، وهذا وحده يدفع إلى القلق والتحسّب.

خـلال السنوات الأولى من مدة إدارتـي الصفحة الثقافيّة في أكبر

صحف البلد، في جريدة (الجمهوريّـة)، وهي الجريدة شبه الرسميّة للدولة والمملوكة للحكومـة حينها، عملت على الالتفاف على سوء الإستخـدام المطلـوب من تلك الصفحـة، فعمدت إلـى استحداث صفحـات أسبوعيّة لتتوزّع طيلة أيّام الأسبـوع على مساحة الصفحة الثقافيّـة نفسهـا، وهـي صفحات متخصصـة في قـراءة التراث وفي الترجمة والفنون والثقافة الشعبيّة والتجارب الأدبيّة الجديدة وعروض الكتـب، هذه مجالات عامّة يمكن معها التحـرّر، إلى حدّ كبير، من الاستخـدام التعبوي الـذي تركت له صفحة ومساحـة تناسبه خلال الأسبوع. استعنت من أجل تنفيذ هذه السياسة الثقافيّة في النشر بعدد مـن أقرب الأصدقاء المختصّين في تلـك الحقول وتركت لهم حريّة تحريـر الصفحات وتأمين موادها، وبما خلـق حيويّة ثقافيّة سواء في الجريـدة أو في الوسط الثقافي الـذي كان في حاجة إلى مساحة نشر محترمة ورصينة، ولو نسبيّـاً، لكن، وفي مقابل هذا المسعى، كانت هنـاك حاجـة متنامية أيضاً إلـى أدب استهلاكي رخيص. كان هناك صـراع صامت يعمل معـه الطامحون إلى أدب جيّـد على الاستفادة من مساحـة الحريّة النسبيّة المتاحة للنشر بعـد حرب ١٩٩١، بينما يستغـلّ فيه آخرون قوّةَ شهـوة السلطة إلى الاستخـدام ليضغطوا من أجـل تكريس أدب رخيص. وكان هذا التنازع يكفي لمثل هذا القلق الـذي اضطررت معه مراراً، بعد مرور ثلاث سنوات على عملي، إلى تقديـم استقالتي، لكن تلك الطلبات كانت تُرفَض جميعها بلطفٍ في أكثـر الأحيـان وبتلميحات تنطـوي على تهديد في أحيـان معينة. كان آخـر تفكير لـي بالاستقالة من العمل قد جرى قبـل حوالي عام من يوم اعتقالي، حين قصـدت مقهى الزهاوي لاستشارة أكرم فخري بشأنها، وما أن انتهيت من كلامي حتّى وضع كفّه على كتفي وهمس لي :

– اتـرك هذا الموضـوع أرجـوك. البارحة في اجتمـاع الوزارة الأسبوعـي لرؤسـاء تحرير الصحف؛ جرى حديـث (حاول التهوين والتخفيف من تأثيره حين تـدارك فوصفه بالحديث العابر والسريع) عن احتمال هجرتك والتحاقـك بالمعارضة، حاولت الدفاع عنك، لكنّ استقالتك ستؤكّد صواب الكلام عنك.

خمّنـت أنـه رامي ذيـاب حتمـاً. كان رامي ذيـاب رئيس تحرير صحيفة أخرى غيـر (الجمهوريّة) التي أعمل فيها، لكنّ كراهيةً ما لا أعـرف دافعهـا هي كلّ ما كنت استخلصه مـن علاقة ذيب بي، وهي علاقـة معرفة عامـة لم تجمعنا يومـاً في مكان أو عمـل أو مشروع. في واحدة من انتخابات المجلس المركزي لاتّحاد الأدباء كنت قد رشّحت، حصـدت في تلك الانتخابات أعلـى الأصوات، مما حدا برامي ذيب الذي كان يقود قائمة انتخابية لحزب البعث إلى الاتّصال هاتفيّاً بي ودعوتي للحضور ومناقشة وضع الاتحاد بعد الانتخابات، وكان ظاهـر الاتصال هو التهنئة والتعبير عـن السرور بحصولي على أعلـى الأصوات والمناقشة في حال الاتحاد، لكنّ باطنها كان إيصال تبليغ لي:

– مبـروك، أمـر لطيف فعلا أن تحصل علـى أعلى الأصوات ولم تكن مدعوماً سواء من الحزب أو أيّة جهة. يبدو أنّ الأدباء يحبّونك؟

– شكراً. فعلاً، أنا ممتن لهم، وسعيد بتهنئتك.

كان كلانـا متوتّرين. هـي المرّة الأولـى التي التقي فيهـا مباشرةً معـه؛ كلمات مقتضبة ونظرات تريد من طرفـهِ الإيحاءَ برسالة أخرى للّقـاء، ومن الطرف الآخر، منّي، تريد استعجال الاستفهام عن الدافع الحقيقـي للدعوة ومـا يقف خلف هـذه التهاني الزائفـة. كانت لغة

مجاملة متقطّعة بدت لي مباشرةً أنّها لا تعبّر عن جوهر حقيقي، وهذا ما تأكّد من دخوله سريعاً إلى غرض اللقاء:

- أحببت أن أرجوك باسم المكتب المهني للحزب ولو أنت مستقل.. أرجوك أن تبقى عضو مجلس مركزي وأن لا ترشّح للمكتب التنفيذي.

- لم يكن في وارد تفكيري الترشّح.. لست متفرغاً، ولو كنت شعرت أنّه مفيد لرشّحت. ولكن هل هذا تبليغ أم رجاء..؟

- نتمنّى أن يبقى بحدود الرجاء!

بقيت أحسب هذا الفوز على أنّه الدّاعي لكره ذياب لي، وهو ما يحذّرني منه أكرم بموجب تفسيري في تلك اللحظة. ضحكت وقلت لأكرم فخري:

- لقد سافرت أكثر من مرّة إلى عمّان وعدت إلى البلد ولو كانت لديّ رغبة الهجرة فالأجدر أن لا استقيل. تعرف أنّ عملي في الجريدة يسهّل امكانية خروجي وحتّى حصولي على اللجوء..

قاطعني، متضايقاً من هذا التبرير ومن الاستطراد:

- لا داعي لكلّ هذا، دع الموضوع رجاء!

واستدار مواصلاً حديثاً كان قد انقطع مع صديق آخر. كان الرجل حذراً، وهو بوضع لا يسمح له بتحمّل مسؤولية كلام كهذا في مكان عام.

في اليوم التالي سألت الصديق الشاعر رعد عبد القادر عن رأيه بما كان قد دار بيني وأكرم فخري، فاتّفق معه وطلب مني الالتزام بنصيحته.

– إنّه يحبّنا ويحترمنا، وتعرف كراهية ذياب لنا.

قال لي رعد ذلك باقتضاب.

لا تحتمـل تلك السنـوات أيَّ شكل للخطأ، خطأ قـد يُفقِد المرءَ كرامتَه الثقافية والإنسانية أو خطأ آخر من الممكن أن يُفقده حريّته أو حياتـه. كان التوازن صعباً، مع هذا نجحت فيه أحياناً وفشلت أحياناً أخرى.. وبين الحالين كان الاطمئنان مستحيلاً.

دخلـت مكتبي في الطابق الرابع فـي بناية الجريدة التي استحالت الآن إلـى غـرف مقطّعة تسكنهـا عائلات تجاوزت علـى البناية بعد ٢٠٠٣ تحت ضغط أزمة السكن..

وبخـلاف العادة، لم يكن سواي في المكتـب. تأخّر المحرّرون أو ربّمـا تركوا المكان لتناول إفطارهم في مطعم قريب من الجريدة، باستثنـاء محمـد الهجول المحـرر الخفر لذلك اليوم الـذي فاجأني بالقول:

– هل عرفت؟ لقد اعتقلوا صباح محسن يوم الخميس!

– صباح محسن؟ لماذا؟..

سألـت محمد الذي لـم يكن يعرف السبب، وفكّـرت بأيّ مبرر ممكن لاعتقال صباح محسن، المدير الفنّي للجريدة، فلم أجد سوى احتمـال ضعيف عمّا إذا كان قد تفوّه بكلام ما في أثناء سهره المعتاد في نادي اتّحاد الادباء. كان الاحتمال ضعيفاً لمعرفتي بتحفّظ صباح فـي مثل هذه الحـالات والأماكن، كان يحتج ويشتـم ويسخر كثيراً ولكـن فقط حين يكـون مع أصدقاء يثق بهم بخـلاف ما يكون عليه من تحفُّظ فـي الأماكن والمواضع التي لا يطمئـنّ فيها. بقيت قلقاً،

حاولــت أن لا أبدو هكذا، بـدأت أموّه لأخفي قلقــي بفحص مواد محــرّري وكتّاب الصفحة الثقافيّة، لم أفلح في ذلك. غادرني محمد إلــى القســم الفنّي لمتابعة تصميــم صفحة يوم الغـد الأحد، وبقيت مشكلة صباح محسن معي.

استغربــت، بعد عشر دقائــق، حين لاحظــت أنّ إحسان فاضل، وهو أحــد منضّدي الجريدة، كان يتمشّى فــي الممرّ الذي يقع عليه مكتبــي، وهو ما لم آلفه من قبل، فموظّفــو التنضيد عادةً ما يكونون منهمكيــن في عملهم طيلة النهار، ويـنــدر أن تصادف أحداً منهم في الخــارج من مكان عمله الذي لا يقبــل التأخير والتأجيل.. لاحظت عينيه تتّجهان نحوي في كلّ مرّة يجتاز فيها المكتب. وقبل أن أنهض لملاحظـة مـا إذا كان ثمّة آخر فــي الممر سوى إحســان المعروف بكونــه أحد أفراد خليّة أمن الجريــدة، رنّ الهاتف الداخلي للجريدة على المنضدة أمامي. كان على الجانب الآخر من الخط نائب رئيس التحرير عبدالستّار يعقوب الذي طلب منّي الحضور في غرفة صغيرة في الطابق الثاني مقابِلة لغرفــة رامي ذياب الذي انتقل رئيساً لتحرير الجريــدة قبــل أشهر والــذي كان قد ذهــب في سفر إلــى عمّان قبل اعتقالي بيومين.

نهضــت بصعوبة من المقعــد، هذه الغرفة التــي سأذهب إليها لم تستخدم مطلقاً لغير التحقيق والاستجوابات.

قلت في داخلي: "خلاص، لينتهِ القلق.. أكيد اعتقال، هذا الاعتقال الــذي انتظرته أو توقعته طيلة هذه السنوات، لقد حان أوانه". تألّمت لأنّ أحــداً مــن زملائي لم يكن حاضراً ليعرف مــا حصل، وليستطيع تبليــغ العائلــة بحقيقة غيابي عنهــم. اكتفيت بترك إشــارة قد تفيدهم

وذلك بوضع حقيبتي وعلبة سكائري في مكان يثير انتباه أيّ منهم تأكيداً على عدم مغادرتي المبنى بإرادة مني.

حين اجتزتُ باب مكتبي، كان إحسان في نهاية الممر بالقرب من التواليت ينظر ناحيتي قبل أن يستدير ويفتعل الدخول إلى التواليت ليتفادى ربما التقاء عينيّ بعينيه. تركته خلف ظهري واتجهت إلى السلّم، لم أفكر بالهروب الذي خطر للحظة ببالي ولكن أين؟ وماذا عن العائلة؟ الانشغال بمثل هذا التفكير مضيعة للوقت وتلف مضاف للأعصاب.

في الطابق الثاني، لم يكن في الفضاء غير الواسع والفاصل بين السّلالم ومصعد الجريدة العاطل أكثر الأحيان سوى السكرتير الشخصي لرئيس التحرير، رجل طيب في أواخر الأربعينيّات من العمر، اعترضني وأنا اتجه إلى غرفة الاجتماعات:

– أين..؟

استمرت خطاي باتجاه الغرفة:

– نائب رئيس التحرير اتصل وطلب حضوري.

قبل أن افتح باب الغرفة التفتّ إليه، كان مصفرّاً ومتفاجئاً ومضطرباً:

– هو أنت؟

قال لي، فأومأت برأسي بنعم. انصرف هو لانتهاء مهمّته التي كان يمنع بموجبها أيّ شخص من دخول الغرفة سوى الشخص المطلوب، ودخلت أنا. نهض مباشرةً شابّان قبل أن أسلّم وقبل أن يقول لي عبدالستّار يعقوب الذي كان محرجاً ويتفادى النظر في عينيَّ:

– أستاذ، الإخوان من أحد الأجهزة الأمنية ومحتاجان إليك!

فيما قال أحدهما بلطف واضح الاصطناع وكما لو كان يكمل ما قاله عبد الستار يعقوب:

- ساعتان أستاذ.. ليس أكثر من ساعتين وتعود!

كنت واقفاً بين الاثنين القادمَين أستدير باتّجاه الباب حين ودّعا يعقوب:

- شكراً، مع السلامة.

لم أقف عند وعد السّاعتين المعروف لدى كل العراقيين، لكنّي احتقرت سخريتهم من العقل بمثل هذا الوعد. لو لم يعداني بالسّاعتين ولو كانا قد صارحاني حتى بالإعدام لمضيت معهما. لا مهرب، وهذا ما يعرفانه، ولكن الذي قد لا يعرفانه، وهو دافعي الأكيد للاستسلام والذهاب معهما، أنه لا يمكن أن أترك آخرين يدفعون الثمن بدلاً عني، ولا بدّ من ثمن يدفعه آخرون سواي من العائلة في حال هروبي.

في لحظة خاطفة تأمّلت في الشابين؛ كان أحدهما جافّاً تختلط سمرة وجهه بقسوة وغِلظة وكراهية لم أشعر أنّها ضدّي وحدي، وإنّما ضدّ العالم كلّه كما بدت لي. كان يحرّك عينيه الصغيرتين بأكثر من اتّجاه في وقت واحد، عينان بدتا كما لو أنهما كانتا قد أصيبتا بتراخوما لم يتعافيا منها إلا بآثار لها ظلّت واضحة على الأهداب وأجفانها القصيرة والمتباعدة، كان حريصاً على أن تبدو عيناه نهمتين، وبما يكرس انطباعاً عن أن له شهيّة فضولٍ جشعٍ وكما لو كان يريد رؤية كل شيء بنظرة واحدة، نظرة تتداخل فيها تعابير متغيّرة عن الاحتقان والتشكّك والوعيد وتدعم ذلك التوتر الذي يشدّ عضلات وجهه وحركة جسمه وتأفّفه المتكرّر بمناسبة

ومن دونهـا، فيما كان الشابّ الثاني، الـذي وعدني بالسّاعتين لا أكثر، يبدو أكثر وداعـةً وانبساطاً بملامح هادئة يمتزج فيها الذكاء بشيء من الحزن المكتـوم. كانت أناقته أكثر ترتيباً وبساطةً وأرفع ذوقـاً من زميله المختنق بربطة عنقـه البرّاقة وجاكيت بدلته الضيق والقصيـر. كان واضحاً مـن تصرّفهما أنّ الشـابّ الأكثر أناقةً هو الأعلـى رتبةً، فحيـن اتّجهتُ، متصرّفـاً بتلقائيّـة متعمّدة بوصفي دليلهمـا داخل بنايـة جريدتي، ودعوتهما لانتظـار المصعد الذي أعـرف تأخّـره الدائـم وعطلاتـه المتكرّرة لننـزل به إلـى الطابق الأرضـي، وكنت بهذه المحاولـة التي سعيت لأن تكـون تلقائية أريد كسب ما يمكن كسبه من الوقت ليراني أكبر عدد من العاملين في الجريدة وليعرفـوا مصيري، تأخّرَ المصعـد للحظات، فطلب الأعلـى رتبةً أن نستخـدم السلّم في النزول. انفتـح المصعد فجأة وخرج منه محمّد درويش المحرّر معي في القسم الثقافي، توقّفت ومددت يدي إلى جيبي بقصـد إعطائه الراتب الذي كنت تسلّمته حـال دخولي الجريـدة، وبالضبط لم يكن هو الراتـب وإنّما كان مبلغـاً فصلياً يُمنَح من نسبة مستقطعة من الأرباح كانت توزّع على العامليـن من ناتج الإعلان فـي الجريدة كل ثلاثة أشهر، كنت أريد مـن محمد إيصال المبلغ إلى عائلتي التي غادرتها صباح اليوم ولم يكـن في البيت سوى أجرة باص النقل العام الأحمر ذي الطابقين الذي أوصلّني الي الجريدة. تردّدت، خشيت على محمّد درويش مـن أن يطوله شكٌ ما. أخرجت يدي من جيبي، واستدرت باتّجاه السلّـم، ليبقـى محمّـد ورائي حائـراً يحدّق فيَّ بحـزن وبوجهَي الرجلَين باستغراب، سمعته يتساءل:

- ليش ؟ وين ؟

وكان هذا هو آخر ما سمعته في الجريدة.

رمى محمّد السؤالين في الفضاء الخاوي بين السلّم والمصعد، بنبــرة فيها استنكار وخوف واضحان، فيمــا كنا نحن الثلاثة نهبط السلّم بصمت.

(٣)

أمام الشائعات التي تتكاثر عن مبرّر الاعتقال، أيّ اعتقال، سيكون الاعتقــال نفسه فــي معظم الأحيان أخفّ وطأة مــن هذا الأثر الفادح الذي تخلّفة الشائعات في نفوس ذوي المعتقل وأصدقائه والمقرّبين اليه. وستكون أسوأ حــالات الاعتقال هي تلك التي يُعتقَل فيها المرء بظـروف غامضة ومجهولة لا يُعرَف معها مــكان الحبس ولا الجهة التي اعتقلته ولا دواعي الاعتقال.

بعد هــذه السنوات العشــر التي أعقبت ٢٠٠٣ وتغييــر النظام ما زال كثير مــن العائلات لا تعرف مصائر أفراد منهــا غُيّبوا ولم يُعرف عنهــم شيء حتّى فــي المقابر الجماعية التي اكتشفــت ولا في وثائق الأمــن والمخابرات التي نهبت وجرى تداولهــا بين الناس خصوصاً ذوي المعتقليــن والمفقودين. لا شيء أقســى على تلك العائلات من هــذا الانتظار الذي لا تريد له أن ينتهي برغم انطفاء آخر بوارق الأمل أمامهم.

فكّــرت كثيــراً في هــذا التغييب بالسجــن وفي دواعيــه الغامضة بالنسبــة للجميع، عائلتي واصدقائي وسواهم. انشغلت بما يمكن أن تسمعــه العائلة والأصدقاء من أسبــاب حقيقيّة ستختلط بأخرى ملفّقة عــن دواعي الاعتقال. كان هذا التفكير قد شغلنــي لوقت أشدّ معاناةً وأطــول ممّــا كرسته مــن وقت للتفكيــر بمصيري؛ كــم سيقلقهم ما يقــال..؟ كم سيشتت تركيزهم من أجل مساعدتي، كم سيضعهم هم في دائرة الخوف من احتمال أن يطولهم شيء ما من جراء اعتقالي؟

دائمـاً ما تتعدّد، وقد تتضـارب، الأسباب التي يجري تداولها بين الناس عن دافـع الاعتقال. في بعض الأحيان تسهـم جهات الأمن نفسهـا في تغذية محيـط الشخص المعتقـل ودائرة علاقاتـه، عائلياً واجتماعيّاً ووظيفيّاً، بالشائعات المتباينة والمتضاربة، ويكون الدافع إلـى ذلك إما السيطـرة على اجراءات التحقيق ومنـع تسرّب السبب الحقيقـي لحين اكتمال تلـك الاجراءات، أو تضييـع الحقيقة بقصد تضييـع مصير المعتقل نفسه، لكن يظـل الدافع العملي الأهم في فكر السلطة هـو توسيع دائرة المخاوف والمحظورات التي ترسّخ الجبن وتوسّعـه حيث يتوجّب معهـا على الجميع الاتّعاظ مـن هذا المصير الذي انتهى اليه المعتقل الذي لا يُعرف مصير له.

ستكون المشكلة أكثر تعقيداً حيـن يسهم المجتمع نفسه بتطوير وتكثير شائعات دواعي الاعتقال؛ يساعد الخوف من هذا المصير في الدفـع بكثيرين نحو إيجاد أسباب وحتى اصطناع هذه الأسباب التي أدّت إلى الاعتقال، وفي هذه الحالة سيكون إلقاء القبض على شخص بعينه، دون سواه، محكوماً حتماً بأسباب وجيهة تدعو إلى الاعتقال، وهي أسباب عادةً ما ينسجهـا رواتها أو ملفّقوها بحيث تجعل منهم فـي الجانب الأمين، من خلال البحث عـن أيّة ثغرة في حياة المعتقل يمكـن النفاذ عبرها لاختلاق أسباب موجِبة للاعتقال. تجري صياغة الأسباب بحيـث لا يوجد ما يماثلها في حيواته أو سِيَر أولئك الرواة وصنّاع الأسبـاب ، ليس في حيواتهم وسيرهم ما يتماثل ويتطابق مع هـذه الأسبـاب لا من قريب ولا مـن بعيد، هذا يؤمّـن حصانة نفسيّة داخليّـة من الخوف من مصير المعتقل، يسعى معها الملفّق إلى التوفّر على اطمئنـان داخلي على براءتـه من الجرم، من مسـوّغ الاعتقال. ليس ثمة ما هو أغرب من الطرق التي يعمل فيها الخوف على تحطيم

الإنسـان من داخلـه، على سحـق إنسانيته من أجل ضمـان السلامة الشخصية بدرء الأخطـار عنها وحصرها في الآخر الضحيّة وتحويله إلى مذنـب نال عقاباً لن ينالنا ما دمنا لسنا بذنوب ذلك الضحية. ذلك شكل مـن أشكال التطهّر ولكن ليس أمام الله وإنّما أمام ذات مرعوبة من سلطة باطشة.

فـي سنوات العنف التي أعقبت ٢٠٠٣ كان مثل هذا يحصل أيضاً حيـن يجري اغتيـال أو اختطاف شخص ما. فـي عديد من الحالات أو معظمهـا حتـى الآن، لا تجري معرفة القاتـل ولا يُعثر على بيانات منه عن دافعه للجريمة، فيبدأ كثيرون بالتبرّع باختلاق دوافع وصياغة أسباب. في أغلب الجرائم بقيت الأسباب المباشرة مجهولة، فالهويّة الطائفيّة أو الدينيّة أو السياسيّة لا تكفي وحدها لتكون سبباً للجريمة، ولهـذا كنّا نستمع إلى مـن يجتهد في البحث عن سبـب الاغتيال أو الخطف. يجري تقليب سيـرة الضحية وحتى ملء فراغات فيها، بما يصنعـه خيال الرواة، وبمـا يساعد في توقّع أو توهّـم أو تلفيق سبب للجريمـة، تمامـاً مثلما يحـدث في كتـب التاريخ التـي يضطّر فيها المؤرّخـون إلى إعمال الخيال والعقل من أجل إتمام حلقات مفقودة فـي سيرة مـا أو حدث معيّـن. تعْمَد الناسـ، في مواجهـة متطلّبات الخـوف من الموت وضرورة الاحتراز منـه، إلى التصنيف، تصنيف حـالات الجريمـة ومعها تصنيـف الدوافع؛ لا بدّ مـن دافع للجريمة يجري تصـوّره أو حتى اختلاقه وبما يؤمّـن جانب هؤلاء المنشغلين بالتصنيف وتحري الدوافع وتصورها ليكونوا خارج التصنيفات التي يضعونها والتـي يجري القتل أو الخطف على أساسها. وهنا ينصرف الاهتمام عـن الجريمة والمجرم ليجري التركيز على الضحية بوصفه دافعاً للجريمة المرتكبة ضدّه ومسوّغاً لها.

في السجن كان تركيزي في أوقات كثيرة، وما أكثر الوقت وأبطأه فـي حياة السجن، ينصرف إلى ما يمكن أن يقال عن سبب الاعتقال. سيكـون مكان الاعتقال مغيَّباً حتماً عـن الجميع من عائلتي وأقربائي وأصدقائـي، وهـذا يساعد فـي مضاعفة الاحتمـالات والشائعات، ويضاعـف بالتالي معانـاة العائلة وقلق الأصدقاء، لكـن معرفة مكان الاعتقـال ستكون هي الأخرى مدعاةً لمعانـاة أعظم وقلق أكبر. فما يُعرَف عن (سجن الحاكميّـة)، ومن ثمَّ جهاز المخابرات الذي يدير هذا السجـن، هو تخصّصـه بالقضايا الكبرى ذات الصلـة بالسياسة واقتصـاد البلد وأمنه الوطني. وفعلاً لم يكـن سبب اعتقالي بعيداً عن جانـب من هذا، غير أنّ معرفة سبب واحد وواضح ومحدد للاعتقال شـيء، وهـذه المعرفة متاحـة هنا فقط فـي داخل السجـن وجهازه التحقيقـي، بينمـا التخمينات والتوقّعـات والشائعـات أشياء أخرى ستتكاثر وتنمو في خارج السجن حتماً.

حيـن غادرنا، أنا والرجـلان المكلّفان باعتقالـي، بناية الجريدة، تاركاً ورائي اندهاش جميع موظفي الاستعلامات وتعاطفهم الحزين الصامت وحيرتهم، انطلقت بنا السيّارة الحديثة تويوتا بيك آب، إنها واحـدة من آلاف السيـارات التي سمح بتوريدهـا للعراق في ظرف الحصـار وذلك بعد التوقيع على مذكرة التفاهم بين الحكومة والأمم المتحـدة عام ١٩٩٦ حيـث سمح للـوزارات الخدميـة، كالزراعة والصحـة والتربية والتعليم باستيراد سيارات لأغراض خدمية حصراً، وكان لهـذه السيارات أن تتسرب من خلال تلك الوزارات إلى دوائر أخـرى من بينها الدوائـر الأمنية التي أُنقَـل الآن بواحدة من سياراتها التـي سجلت لدى المـرور باسم الـوزارة الخدمية التـي استوردتها لتفادي عقوبات دولية ولتضليل الناس.

كان الضابط المسؤول إلى جنب السائق في المقدمة، فيما كنت إلى الخلف، بين الشاب الأسمر الفظ وشاب آخر كان ينتظر في السيّارة مع السائق، وكان لا يقلّ فظاظة وغلظة عن زميله. حاولت أن أتقدّم ما أمكن بين الشابّين لتتاح رؤيتي لمن كان يعرفني في منطقة الكرنتينة، حيث مبنى الجريدة ومقهى (الجماهير) ومطعم (أبو حسن) وهي أماكن لقائنا اليوميّ الذي كان يجمعنا، صحفيّين وأدباءَ وفنّانين وباحثين وأساتذة جامعة وطلبة دراسات عليا وشباناً آخرين عاطلين عن العمل أو هاربين من العسكرية وآخرين عدميّين هاربين من كل شيء.

لكزني أحد الحارسَين المحيطَين بي بكتفه، وقال من دون أن يلتفت إليَّ:

- ارجع إلى الخلف.. لا تتشاطر!

لم أتشاطر، فتراجعت من دون أن ألتفت إليه أو أعلّق بشيء. ومع وصول السيّارة إلى ساحة باب المعظّم، استدارت دورة كاملة، كان الصمت ثقيلاً، لا بأس في إجراء اختبار، قلت مع نفسي، وسألت من دون أن أحدّد أحداً من الأربعة الذين معي:

- تركت سكائري في مكتبي، هل يمكنني شراء علبة سكائر رجاءً؟

كانت السيّارة على مقربة من بائع رصيف قرب كلية التمريض، وجدت في مصادفة هذا البائع ذريعة للطلب الذي أنا نفسي أضحك من غرابته وسخافته في مثل تلك اللحظة. هذه المرّة التفت إليّ الشاب الذي كان قد لكزني، وقال بما يشبه الشماتة والأمر:

- أنصحك، لوجه الله، بالصمت وعدم التفكير بالسكائر.

وفعلاً صمتَ، لكن الضابط، ومن دون أن يلتفت إليه، أوعز سريعاً له وللسائق:

– لا، لا.. توقف، ليشترِ علبةً!

بفظاظة ونظـرة وعيد، تناول الشاب منّي المبلـغ وناولني العلبة. ولمـا رفض جميعهـم التدخين حين قدّمـت لهم السكائـر، أعدت سيكارتي للعلبة التـي بقيت في يدي. انتبه لذلك الضابط وهو يلتفت إليّ:

– دخّن..!

– شكراً، النوافذ مغلقة، وأكيد سيزعجكم الدخان.

– دخّن، لا عليك.

دخّنتُ من دون أن يوعز بفتح نافذة، واستمرَّ الصمت وسط انزعاج بدا واضحاً على الاثنيـن المحيطَين بي اللذين راعيت مشاعرهما، لا داعي لمضاعفة كراهيتهما المجهولة لي فاستغنيت عن السيكارة عند منتصفها وأطفأتها.

" أين سنمضي؟"

فكّرت بذلك فيما كانت السيّارة تستدير مع مقبرة الإنكليز باتجاه تقاطع كلّيتي الآداب وابن رشـد والمكتبة المركزيّة لجامعة بغداد ثـم صعـود الخطّ السريـع. قريباً من المكتبة، بقيـت أنظر باتجاه مكتب طباعـة عـادل زينـل الصديق الذي كان قـد اعتُقل قبـل عامين بتهمة اشتراكـه بتزويـر مستمسكات لشبّـان هاربين من الجنديـة ثمّ أطلق سراحـه بعد فترة حين تحمّل صديـق وزميل له في العمل مسؤولية ما حـدث، قلت ربّما يراني هو أو مَن يعرفني ممّن معه. لم أرَ عادل ولم

أرَ سواه. دخلت السيارةُ الخطَّ السريع باتجاه جنوبي بغداد فوضعتُ احتماليـن للجهـة التي نمضي نحوهـا: سجن جهـاز المخابرات أم سجن الأمن العامّة؟

في الحقيقة كنت أتمنى أن يؤخذ بي إلى (سجن الحاكميّة)، كنت (أفضّلـه) على سجن الأمن العامّـة، وهو تفضيل غريب على المنطق، ففي السيارة تويوتا بيك آب وفي الطّريق السريع وبين الشابّين الفظّين، تمنَّيت أن تنحرف السيارة باتّجاه (سجن الحاكميّة) في منطقة العلويّة لا أن تواصل السير باتجاه سجن الأمن العامّة في حيّ البلديّات.

كلُّهـا سجون. لكنْ حيـن تكون أمام خياري سجـن الأمن العامّة وسجـن الحاكميّـة، فبالتأكيـد ستختـار أحدهما في ضـوء وضعك ومشكلتـك التي حُبست بسببها، لكنـي حتّى هذه اللحظة لم أعرف المشكلة ولم أستطع تخمينهـا حتى أتمنّى. تمنّيت (الحاكميّة) لفعل اختصاصهـا وبفعـل تأكّدي التـام من أن لا صلة لـي بأيّة مشكلة هي من اختصاصـص هذا السجن، وبالتالي يمكن لـي أن اتفاءل بمغادرتي الحبسـ، لكن في سجن الأمن العامّة تكـون كل الاحتمالات السيّئة ممكنـة، وسيكـون أسوأها تقرير مـن واحد ما بادّعـاء زائف وتهمة ملفقـة سأحتاج معها إلى ما لا يقـل عن ستّة أشهر لتأكيد الزيف إن لم اضطر للاعتراف بما قيل في التقرير تحت التعذيب وبالإكراه فيُحكم عليَّ بالحبس وربما أُعدَم حسب طبيعة التهمة.

فـي الواقـع كنت في الطريق قـد اختصرت الزمن كلّـه، زمني في العمـل والحيـاة والكتابـة، لا شيء يدعـو لمثل هذا الإجـراء وهذه الطريقة فـي الاعتقال. مرات كثيرة كنت أُستدعـى فيها إلى التحقيق بشـأن ماضٍ طلابي أو بشأن قصيـدة أو مقال سواء لي أو لآخرين من

كتّاب الجريدة، وكان من أسوأ تلك التحقيقات هو التحقيق الذي أجري معي والصديق الشاعر فاروق يوسف، كلّاً على حدة، منتصف التسعينيّات بتهمة الترويج في الصفحة الثقافيّة لجريدة الجمهوريّة لأفكار ليبرالية لا تنسجم والفكر القومي الاشتراكي، كان التحقيق بفعل مقال نشرته لفاروق وكان نتيجة لتقرير كتبه شخص كان يستهدف به فاروق يوسف أكثر مما يستهدفني، لقد استمرّ حينها التحقيق أسابيع مقلقة قبل أن يجري انهاؤه بظروف غامضة لم أعرفها حتى الآن. وسوى تلك التحقيقات التي كنت أُستدعى فيها، فقد كان المحقّقون، في مرّات أخرى أكثر منها، هم مَن يزورونني في مكتبي وعملي، وينظّمون تحقيقاً بطريقة غير مباشرة يريدون معها أن لا أشعر أنّي في جلسة تحقيق، وكنت إما أن أساعدهم في تمرير الحيلة عليّ بافتعال عدم انتباهي إلى أنّ تحقيقاً يُجرى، وأمّا أن أوحي لهم، حين يكون المحقّقون أكثر تسامحاً، أنّي أدرك ما يجري معي من تحقيق أمني وذلك بطريقة تمتزج فيها المواربة بالدعابة، لكنّني الآن باتجاه تحقيق أمني من نوع آخر غير ماكنت اعتدت عليه طيلة أكثر من عشرين عاماً؛ كنت أخشى من وشاية، من تقرير منافق، من دعوى كيديّة، وكلّها من اختصاص (الأمن العامّة) ولا يمكن الوصول إلى براءة منها إلّا بقدرة قادر. قبل شهرين من اعتقالي كان شقيقا زوجتي، أحمد ومحمد، قد أُطلق سراحهما من سجن الأمن العامّة بعد اعتقالهما مع مجموعة من أصدقائهما بحدود التسعين شابّاً وذلك لعدم ثبوت شيء سياسي أو مذهبي ضد أيٍّ منهم، ولكن تمّ هذا بعد ستّة أشهر من الحبس غير المبرر والتعذيب القاسي الذي بقيا ينكران أمام زائريهما ومهنئيهما أنّهما تعرّضا له وذلك امتثالاً للتعليمات المبلّغة لهما ولزملائهما عند مغادرتهم سجن (الأمن العامّة).

قبل أن تنحرف السيارة باتّجاه الخروج عن الخطّ السريع، التفتَ إليّ الضابطُ، وطلبَ مني أن أنحني على المقعد الذي أمامي، وأن لا ألتفت بأي اتجاه. لم أنفّذ كما طلب، لم أفعل ذلك تماماً؛ فقد انحنيت فعلاً ولكن بزاوية معينة كانت تسمح لإحدى عينيّ الأقرب إلى الشارع أن تراقب الطريق واتّجاه السير ما أمكنها ذلك. تأكّدت أنّي ماضٍ نحو (الحاكميّة) وليس سجن (الأمن العامّة)، ارتحتُ، لكنْ، وبخلاف ما تمنيت وبعدما ضمنت الذهاب إلى (الحاكميّة)، فإن قلقي اشتدّ!

كان اعتقالي في (الحاكميّة) كافياً، مثلاً، لوحيد حمزة القريب من عائلتنا، عشائريّاً، أن يكرّر على كل من التقاهم في أثناء فترة الحبس: " جاسوس وأُعدِم.. الدولة على وشك حرب ولا تنتظر في مثل هذه الحالات". وكان كافياً لأديب كحوليٍّ مسكين مثل سعيد ماضي أن يتحدّث في جلسات السكر، وكما لو كان يبوح بسرٍّ: " رسائلُه مع جلال طالباني وأحمد الجلبي هي السبب.."، ثمّ يُتمّ كلامه، مبدياً مشاعر ضجر وترفّع غير معروف عنه فيقول: "لكنّي لم أقرر بعد ما إذا كنت سأعمل بديلاً عنه في القسم الثقافي للجريدة.. طلبوا مني ذلك وما زالوا في انتظار جوابي". وكان كافياً أيضاً لمَن تحدثوا بثقة: " كان يتلقّى أموالاً كبيرة من المعارضة، وانكشف الأمر"، بينما سعى آخرون، كانوا موظّفين في سجن ودوائر الأمن العامة، إلى ابتزاز والدي مؤكّدين له أنّهم التقوني في سجن (الأمن العامّة) وأني كنت في أسوأ حال، ويتطلّب الأمر ستّة ملايين دينار لتوزّعَ رشاوى من أجل العمل على تعديل سير التحقيق وتغييره قبل المصادقة على الأوراق التحقيقية وذلك بتبرئتي من جريمة التآمر على الدولة في هذا الظرف الخطير، لكنّ معلومات تسرّبت في

بغداد في اليـوم الأوّل لاعتقالي ونقلها الصديـق الشاعر حميد قاسم إلـى أدباء أصدقـاء معارضين في عمّان حين اضطر إلـى انهاء إجازته تحسّبـاً والعودة إلـى عمله في دبي، كانـت المعلومات تتحدّث عن تسجيـل صوتـي نقله أحد الأدبـاء إلى دوائر الأمن كنـت أرحّب فيه بالحرب المنتظَـرة وبالاحتلال المتوقع وأتهجّم علـى السلطة. وقد كتـب عن ذلك، وأثناء حبسي، الصديقان الشاعران والصحفيّان علي عبـد الأمير (في صحيفـة الحياة) وعبد الخالق كيطـان (في صحيفة الشرق الأوسط)، قرأت في ما بعد عبر أرشيف الصحيفتين اللندنيّتين على موقعيهما في الأنترنيت ما كتبه الصديقان، وحيّيتُهما حين التقينا في بغداد بعد عام ٢٠٠٣ على الذكاء والمناورة في الكتابة التي كانت تريد بثّ خبر الاعتقال دولياً والضغط على السلطات من جانب، فيما كانت تسعى من جانب ثانٍ إلى الدقّة والحذر في صياغتها وتحفّظها وهي تتحسّـب على مصيري أنا الذي كنت في السجن حينها. وكان مـن المصادفات أن شعـراء كثيرين من العالم تجمّعـوا في بيان يدين التخطيط لحرب جديدة في الخليج فيما كان شاعر عراقي يقاد عشيّة الحـرب المنتظرة إلى السجن، وهذا ما ركّـز عليه الصديق علي عبد الأمير في مقاله.

(٤)

كانت حسّاسيتي من فراش النــوم، البطّانيتين، شديدة. كانت هي أكثر من سواها ما يجعلني أعاني التمزق بين اقتناعي أو رفضي التسليم بحقيقــة أني سأقضي هذه الليلة هنا فــي السجن. لا أريد تصديق هذه الفكرة أو الاستســلام لها، لذلك كنت أتحاشى الاقتراب من الفراش وحتــى النظـر إليه، لكن مع مـرور الساعات، مع حاجـات الجسد، حاولت، غيـر عامد، أن أتمدّد علـى البطّانيّـة المفروشة، أحسست بتنمّل وخدر في ساقيّ، بلّلت كفّيّ بالماء ومسّدت الأصابع والقدمين قبل أن أرفع الساقين وأسندهما على الحائط الجانبي.

مـا زال الوقــت مبكّـراً على مثل هــذه المشكلات. لمــاذا يبادر الجسد بالتعبير عن خذلانه؟

فهمــت من ضابط التحقيق النقيب حميد أنّ وقتاً طويلاً أمامي في هذا المكان حين سألني في أعقاب تحقيق الساعة الكاملة ظهر اليوم:

– أعرف أنّك شاعر، هل ما زلت تكتب الشعر؟

– أحياناً، لكن في كلّ حال لست شاعراً محترفاً.

– ثلاثة دواوين مطبوعة ولستَ محترفاً؟ أنا قارئ شعر يا رجل، لا تتصورني مجرد ضابط مخابرات.

– أنت تكتب الشعر؟

أهمــل سؤالي ربّما عن عمد. كان خلال هذه الجلسة والجلسات التاليــة دقيقاً في السيطرة على مجرى الحديث بيننا، بحيث يطوّق أية

محاولة مني للمضي بالحديث في تفريعات أريده أن يمضي فيها بينما كان هو لا يريد التحدّث بها. ناور عليَّ ليتّهمني أنا بالمناورة على سؤاله عن الشعر والاحتراف حين قال لي:

– حسناً، لم تجبني على سؤالي.. ناورتَ عليه؟

– ....

– ساكت.. لماذا؟

– آسف، بجد لم أكن هنا.

– أين كنت إذاً؟

– أفكّر بالأولاد، اليوم بدء امتحانات منتصف السنة، كيف سيتلقّون الخبر؟ وكيف سيواصلون امتحاناتهم؟

صمتَ هو الآخر للحظات، وأدار وجهه، خمّنت أنّه دارى دمعة في عينيه، أو هكذا توهمت، قبل أن يستعيد جدّيّته الوظيفيّة، نهض بما يعني أمراً لي بالنهوض والتهيّؤ للمغادرة:

– سيكون لديك ما يكفي من الوقت هنا في زنزانتك لتكتب الكثير من الشعر..

– هل تعني سيطول بقائي هنا.. قيل لي هي مجرد ساعتين؟

– هذا يعتمد على تعاونك مع التحقيق، من الممكن أن تغادر الآن لو قلت الحقيقة.

كان واضحاً أنّه يقدّم ما يمكن فهمه على أنّه نصيحة، فيما هو تحذير أيضاً. لم يرد جواباً مني، فقبل أن يستمع إلى إجابتي استعاد جدّيّته، ونادى على حارس كان ينتظر خارج مكتبه، وذلك كإشارة لانتهاء الحديث. طلب منه بحدّة:

– خذه..

وطلب مني المغادرة، بحدّة أشد، والانتظار في الممر ليكمل كلاماً مع الحارس الذي لحق بي بعد ثوانٍ، فوضع خرقة القماش على عينيّ وأمسك بي من زندي لنصعد درجات السلّم باتجاه الزنزانة.

مرّت ساعتان لم أسمع فيهما صوت الحارس.

قلت انتهى الدوام وخلد الحارس إلى استراحته، وفي الحقيقة، لم يكن ممكناً لي التأكد ما إذا كانت الزنازين المجاورة مأهولة بالسجناء أم لا، فالصمت هو ما يخيّم على المكان، تتسلل أحيانا أصوات خافتة لا يتاح تمييزها، لكن لم يكن من السهل معرفة أن هذه الأصوات لحراس أم لسجناء، ولعل الخوف الذي يطبق على المكان هو ما جعلني أحيانا أفكر حتى بتوهّمي سماع مثل تلك الأصوات.

نجحت في التغلّب على رفضي النفسي لماء الإبريق، شربت رشفة لم أكن محتاجاً إليها تماماً، لكن قلقي وانزعاجي من الماء والإبريق كان يجعلني بانشغال متكرّر بهذا الموضوع الذي فكّرت بضرورة حسمه ما دام لا خيار آخر، وما دامت الحاجة إلى الماء ستأتي إنْ ليس الآن فبعد قليل حتماً.

صباح اليوم، كنت قد غادرت البيت بإفطار متواضع: قطعة خبز وبيضة مقليّة، تشاركنا بها أنا وزوجتي، وكوب شاي كان هو الأهم في تلك الوجبة وهو مبرّر تناول الخبز والبيض. لم أتغدَ، لكنني لم أشعر بجوع.

" الآن عرفوا بالأمر حتماً".

فكّرت، ومرّ شريط من صور متخيَّلة للعائلة، وهم يتلقون خبر اعتقالي.. ظهر والدي في هذا الشريط، وهو يتمزق بين انهياره من الداخل وبين محاولته تغليف ذلك الانهيار بقشرة من القوة لا بدّ منها

لتهدئة الآخرين، أمّي وزوجتي وأولادي وأخواتي وأخوتي، ولا بدّ من تلك القوّة المصطنعة أيضاً من أجل عمل شيء يعينني لأخرج.
أعرف والدي مزيجاً صعباً من قوّة إرادة ورهافة مشاعر، يغضب بحدّة ويرقّ بشفافيّة. قبل اعتقالي بعامين كان قد دعي مع عدد من شيوخ العشائر وكبار وجهاء بغداد الاجتماعيين إلى لقاء مع عضو قيادة الحزب لطيف نصيف جاسم، طلب فيه منهم التعاون مع السلطات لـ (ضبط) العشائر مقابل دعم الدولة لجهودهم بمحاصرة (المجرمين والخونة) والتبليغ عنهم، بعد انتهاء اللقاء فضّلَ نصيف جاسم الاستماع لضيوفه، كان والدي أول المتحدثين حين أكد للقيادي الحزبي أنه مستعد تماماً لتوضيح أنه غير معني تماماً بالسياسة لكنه غير قادر على معرفة مواقف الآخرين ولن يتعهد بالمسؤولية عن أي شخص سوى نفسه، قائلا: (صحيح أني وجه اجتماعي وعشائري، لكن لا قدرة لي على معرفة مواقف الناس السياسية، وهو موضوع ليس في وارد اهتمامي ومسؤوليتي كوني لا أعرف بالسياسة)، عندها طلب منه لطيف نصيف جاسم مغادرة القاعة مقترحاً على الوالد (الاستراحة) في البيت ما دام غير قادر على التأكد من ولاء أبناء عشيرته وضمان ذلك.

ظهرت لي أمّي بصورة مشوّشة أقلقتني على حياتها وهي تصارع السكّري والضغط وكلّ أمراض الشيخوخة، الصورة التي ما زلت أحفظها عن أمّي هي عبارة عن دمعةٍ دائمةٍ في انتظار أية مناسبةً لتنطلق.

لكنّ صورة زوجتي كانت تتوارى وراء عاصفة من نشيج ويأس وأمل ما، هكذا هي في الظروف الصعبة، بينما هي في ظرفِ الآن لا يمكن التكهّن بنتائجه عليها.

خشيت من انفعال قد يندّ عن أحد من أخوتي، خشيت على أخواتي وبناتي وأولادي من انكسارات نفسيّة قد يواجهونها في العمل أو الدراسة مع اضطرارهم على إخفاء الخبر عن محيط علاقاتهم وعملهم.

تلاحقت الصور، صور الآخرين، وقد تداخلت، وهم يواجهون كارثة خبر لا يعرفون عن حيثيّاته شيئاً، لكنّني هنا في هذه اللحظة، وانا متمدّد، سجيناً على بطّانيّة سجن، كم سأحتاج من القوة لأتحمّل عناء ومصاعب ما أواجه وما سأواجهه، ولأتحمّل قسوة هذا الشريط الذي يُستعاد بهيئات مختلفة، شريط الصور المتخيّلة للعائلة والأصدقاء تحت كابوس الخوف والتمنّيات.

حاولت عبثاً تخمين الوقت. فكّرت من أجل ذلك بالتطلّع في لون السماء الآن، فالتفتُّ إلى النافذة التي على الجدار الخلفي، فاصطدمت عيناي بالطابوق والآجر الذي جعل من النافذة مجرد ذكرى نافذة، ولا سماء.

استسلمت إلى صمت كامل، تعطيل تام للإصغاء إلى هذا التيار المتدفق من كلام وأفكار وتهيّؤات، لحظة يقظة ولكن في العدم الذي يقترب من النوم وربّما من الموت الذي لم نجرّب، نحن الأحياء، حقيقته.

وفي هذا السديم، في هذا الظلام والصمت والعدم، لم أصدّق ما بدأت أسمعه فجأةً الآن.. أغمضت عينيّ وعطّلت كلَّ حواسي لصالح حاسّة واحدة، لصالح السمع. رخامة صوت تتموّج بين الخيال والسحر والحلم، صوت يأتي من مكان هو ليس زنزانتي بالتأكيد، يمرّ خفيفاً وواثقاً ومترنّماً بصفو واطمئنان وهدوء:" بسم الله الرحمن

الرحيـم / لا أقسم بهذا البلد. وأنت حـلٌّ بهذا البلد. ووالدٍ وما ولد. لقد خلقنا الإنسانَ في كبد. أيحسبُ أنْ لن يقدرَ عليه أحد..".

مسحـتُ دمعةً من عينـي، حلّقَتْ روحي في فضـاء التلاوة الذي خلته يتجاوز حدود زنزانة ينطلق منها صوت هذا المرتِّل ويعبر الممرَّ والجـدران والبنايـة الصمّاء إلى مسـاء بغداد وسمـاء دجلتها وحزن بيوتهـا وسواد نخلها، كنت أمضي مع هـذا الصوت الملائكي الذي يتّشـح فيه الألم بسعـادة الاستبصار.. " ألم نجعل لـه عينين. ولساناً وشفتين. وهديناه النجدين. فلا اقتحم العقبة".

مـرّات كثيرة كنت قـد سمعت فيهـا بأصوات مقرئيـن كبار كثر ســورة البلد، هـذه التي لا أصغي اليها الآن قدر مـا أسمو معها، ومن بيـن كلّ تلك القراءات، كنت منسحراً دائماً بذلك الوجد الذي تلاها به الشيـخ عبد الفتـاح الشعشاعي، أعتقد كانت التـلاوة في مستهلّ الخمسينيّـات قرب صحـن الإمام الكاظـم في بغـداد بمناسبة وفاة الملكة عالية ، لقـد بقيت هذه التلاوة هي الأكثر شهرة وسماعاً لدى البغداديّين والعراقيّين عموماً، كان فيها الشيخ في أرفع صور التجلي، وهو يستثمر قدرته الفذّة على تنويع المقامات وتطويعها لتتجاور برفق على مساحته الصوتية التي ترتفع كإعصار في جواباتها وتهبط بسلام إلـى قراراتها الرخيمة، هذه القـدرة التي تأتّت للشيخ الشعشاعي هي مـا جعلت من قراءاته موضع اهتمام وعشق العارفين بأصول التجويد والفنّ فيه، وجعلت من الشيخ الصوتَ الأكثر عذوبة إلى جنب جيلين من المقرئين الكبار: محمد رفعـت وأبو العينين شعيشع والمنشاوي والحصري وعبدالباسط محمد عبد الصمد الساحر في استثمار طاقته الصوتيـة في الجواب، لقـد كان وما زال المقـرئ الأوسع شعبيّة في العالم الإسلامي.

ظهرت، في أثناء هذا، صورةٌ من السبعينيّات وبواكير الثمانينيّات كان فيهـا معلّم بغدادي يساري قد انتهى به السجن إلى الجنون. كان سعد الدين يُدهش كلَّ مَن يصغي إليه في مقهى البرلمان، قبل أن يُهَدَّم، وهـو يرتّل آيات من سورة البلد على طريقـة الشيخ الشعشاعي، كان ينهي التلاوة ويهمّ بالمغادرة وسط صمت الجميع. كان الدكتور مالك المطّلبـي والكاتبان الراحلان موسى كريدي ومحمود العبطة ومعهم الدكتور غالب المطّلبي كثيراً ما يرجونه ليقرأ الآيات خصوصاً حينما ينفعـل إثر استفزازه مـن سفيه في المقهى، يستجيـب للطلب ويقرأ، فيعـود هادئـاً متّزناً مستقـرّاً، ليكرَم بعد ذلك بحـب وحنان وليغادر مـن ثمّ إلى حيـث لا نعـرف. الآن، أنا مع هذه التـلاوة، في الحبس والصمـت والظلام والوحدة، أحسب أنّ كلّ هذا يتشارك في تجويد القـراءة التي أصغي اليها برهبة وأحلّـق معها بحبور، ويجعل منها من امتع ما سمعت في حياتي.

يستمر المقرئ بالتلاوة واستمرّ بالصمت حتى إذا وصل إلى سورة الشـرح، ليقرأ: " بسم الله الرحمـن الرحيم / ألم نشرح لك صدرك. ووضعنـا عنـك وزرك. الذي أنقض ظهرك. ورفعنـا لك ذِكرك. فإن مع العسر يسرا. إن مع العسر يسرا.."، وقبل أن يكمل التلاوة، دوّى صوت في مكان خلته بعيداً في الممر:

- ١٦..

تقدّمت جلبة أصوات المفاتيح، تكرّر الصوت بعدما بسخرية:

- السيد ١٦..

لـم يرسخ في بالـي بعد أنّ اسمـي هنا هو (١٦) حيـث السجناء أرقـام، مجرّد أرقـام تمرّ.. مـرّت المفاتيح في أقفـال زنزانتي، كان

صوت المفاتيح والأقفال يرجّ المكان ويعيدني إلى الأرض، إلى قاع الزنزانة، ويطيح بذلك الصفاء السماوي الذي كنت فيه. فتح الحارس نافذة باب الزنزانة أولاً، وحين وجدني جالساً على البطّانية ولم أنهض تلبية لندائه، صرخ:

– انهض قشمر، أتحسب أنّنا جئنا بك لتنام في شيراتون! لماذا لم تقل نعم؟

حدّقت فيه باستغراب، وقد فتح الباب، نهضت صامتاً، وتركت الزنزانة، سلمته رأسي وكفّيَّ ليعصبَ عينيَّ ويقيّد يديَّ ومشيت معه مقاداً.

لا أدري لماذا نسيت أنّ الحارس هو نفسه الشاب الأسمر الفظ الذي حضر إلى الجريدة لاعتقالي. كان كل تفكيري حينها يتركّز على تنظيم معلوماتي وإفادتي؛ أي خطأ أو تناقض سيكونان بالتأكيد باهظَي الثمن.

هل أتمكن يا إلهي من التغلب على مشكلتي مع النسيان؟

(٥)

أرهقتني كثيراً الجلسة التحقيقية حينما وصلت إلي السجن في الظهيرةَ. كان المحقق هو النقيب حميد الذي بقيتُ أفكر في طبيعته المتناقضة، كما تبدّت لي في سير هذه الجلسة التحقيقيّة والجلسات التالية. كان مناوراً ذكياً في محاولته انتزاع المعلومات والاعتراف المطلوب، عبر أسئلته السريعة والعودة إليها بين حين وآخر أو تكرارها بصياغات مختلفة. كان ثعلباً، هكذا رأيته، بينما تخفي ملامحه شيئاً من مشاعر هي الأقرب إلى الألفة والتعاطف اللذين يجاهد كثيراً من أجل إخفائهما عني.

لقد نجحت في أن انتزع من المحققين في تلك الظهيرة الأولى ما يقرب من نصف الساعة حين تعرّفت على سبب اعتقالي، نصف ساعة بقيت أراوغ من أجلها، وكانت كافية لأنظّم خلالها في داخلي إفادتي وما ينبغي قوله من معلومات وما يتوجّب اخفاؤه منها مهما كلّف الأمر.

فبعد مغادرتي غرفة الأمانات مباشرةً إلى غرف التحقيق، كنت قد سمعت، وأنا في الممر معصوب العينين ومقيّد اليدين، مُقاداً من قبل الحارس، صوتَ صراخ واستنجاد وتوسّل سجين كان تحتَ التعذيب. قلت مع نفسي: سواءٌ أكان هذا مشهداً معَدّاً لتخويفي أو حقيقياً فهو في كلّ حال رسالة واضحة القصد في مكان لا يحتاج إلى مثل هذه الرسائل الموجّهة إلى سجناء جدد هم أيضاً لا يحتاجون إليها، وإلّا ما الذي يتوقّعه سجين في مكان تحقيقي في جهة أمنيّة عراقيّة؟

في الممر كان الحارس يأمرني بين حين وآخر أن أخفض رأسي مرّةً وأن أنحرف مرّةً أخرى يميناً أو يساراً أو أستدير، وهي تصرّفات مفهومة يتناقلها الخارجون من السجون والتحقيقات، بين أن تكون لعبةً يستمرئها السجّانون بقصد الضحك على محبوسيهم وبين أن تكون محاولات لإرهاق السجين نفسيّاً قبل مثوله أمام التحقيق. لم يكن لي سوى أن أنفّذ ايعازات الحارس الذي أدخلني أخيراً في غرفة، سمعت صوتاً يأتي منها يأمره أن يجلسني على كرسي.

نودي على شخص، وجيء به بالضرب والإهانات.. وقف أمامي بالضبط ليسأله الصوت:

- هل هو؟

صمت الشخص للحظات، بدت بالنسبة لي دهراً، من دون أن ينقطع نشيجه، كنت أتخيّل خلال تلك اللحظات الثقيلة تركيزه وتحديقه فيَّ، حتى أجاب بصوت خفيض، يختلط فيه اليأس بالخوف، بالحزن، بالأمل، بالنشيج:

- لا.. ليس هو.

- هل هو؟ انظر إليه جيداً!

- لا، لا أعتقد أنه هو.

غريب، كيف لم يتعرّف علي..؟

أنا تذكّرتُه، وتذكّرت كلَّ شيء بمجرد سماعي صوتَه ولكنتَه الكرديّة، فيما عيناي معصوبتان.. لقد تعرّفت، مبدئياً، على هذا الشاهد الذي لم أره بعد ولم أدرِ حتى الآن ما إذا كان قد فشل في معرفتي فعلاً أم أنكر ذلك بقصد مساعدتي. صار واضحاً عندي سبب اعتقالي والمجيء بي إلى سجن الحاكميّة.

تظاهـرت بانفراج أساريري وبسعـادة كاذبة حينها، أردت بذلك أن أدعـم نكراناً محتمَلاً منه لمعرفتي أو استثمار جهله بحقيقة أنّي أنا المقصود الذي كان قد التقاه قبل عامين.

في مثل هذه اللحظات، وفي مثل هذا الموقف، يكون تركيز العقل وانتباهـه على أشدّهما. " هـل هو؟ معقول؟ كيـف تذكّرني ليبلغهم عنـي؟ ولمـاذا نسيني الآن..؟ هـل فعلاً نسي ملامحـي ومظهري أم تراجـع عن اعترافه ووشايته بي". بقيت هذه الأسئلة تدور في رأسي، لكن لابدّ من إزاحتها جانباً والتركيز على ما ينبغي قوله، وقد نجحت في ذلك. لقد عرفت القضية كلُّها وينبغي أن أرتّب إفادتي خلال هذه الدقائق المهمّة من وقت التحقيق الذي يتسارع ومن دون فراغات.

أُخـرج الشاهد بالضرب أيضاً، سمعتهم وهو وهم في الممر قرب باب الغرفة التي أجلس على كرسي فيها يقولون له:

– ركّز جيـداً وتعرَّف عليه! لـلآن جرجرنا اثنين مـن الصحفيين بسببـك وتعود لتقول لا ليس هو؟ هل تعرف ما معنى أن تكون تعرفه ومتأكّداً منه وتريد التستّر عليه ؟

أُعيد إلى الغرفة، وطُلِب من الحارس رفع الخرقة عن عينيّ، كان في جانب من الغرفة النقيب حميد، وكان الشاهد أمامي. سأله النقيب:

– ها؟ هل هو..؟

أجاب الشاهد مباشرةً:

– نعم هو. حتى أنه كان يرتدي الجينز حين رأيته في الجريدة.

أنـا، في داخلي، أيضاً قلت: " نعم هـو". كان تخميني للصوت وصاحبه قبل قليل صحيحـاً. أمر النقيب بإخراج الشاهد، بعدما وفّر

لي ثواني كافية من أجل التعرّف عليه، طالباً مني التركيز، ليسألني:

– هل تعرفه؟

– لا..

– لـم أقصد تعرفه شخصياً، هو لا يعرفـك شخصياً.. هل التقيتما أقصد؟

– لا أعرفه، ولم نلتق.

– لم يأتِ إليك في الجريدة؟

– لا يأتينـي سوى الأدبـاء والكتّاب، وهو لا أعرفه، ليس أديباً ولا كاتباً كما أتوقع.

– أعـرف هو ليس كاتباً، لكنه جاءك في الجريدة، جاء قبل أشهر، تذكّر جيداً!

– لا أذكره، ولا أتوقع أنه جاءني.

– كيف؟ هل تتوقّع أنه يعرفك ويريد الإيقاع بك؟

– لا أتوقّع أنه يعرفني، لكن لا أدري إنْ كان يريد الإيقاع بي.

– إذا لا يعرفك لماذا تضع احتمال الايقاع بك..؟

– حضرتـك سألتني وأنا أجبت بما فكرت به. ربما كان تفكيري مخطوءاً.

– فكّـر جيّداً قبل أن يتطور الأمر، ما زال ممكناً أن تقول الحقيقة وتغادر!

– اي حقيقة يمكن أن أقولها لأغادر؟

– هل تعرفه؟

- لا.

- حسناً، هذا لا ينفع معك، توقّعت أنك مثقف وتحترم نفسك وتقدّر حساسية الموقف الذي نحن وأنت فيه.

- ....

طلبَ عصْب عينيّ وتقييد اليدين، وأمر الحارس، وهو يغادر الغرفة، بأن أبقى أنتظر فيها. لم يكتفِ الحارس بتنفيذ ما طُلب منه، وإنما انهال عليَّ فجأةً بصفعات وركلات من دون أن يتكلّم ويطلب شيئاً، لم يتوقف حتى عاد النقيب بعد دقائق ومعه شخص آخر.. تظاهر النقيب بالانزعاج وبتوبيخ الحارس على تصرّفه معي، طلب مني النهوض من الأرض، أمسك بي الشخص الآخر الذي لاحظته من طرف الخرقة التي تزحزحت عن مكانها قليلاً بفعل الصفعات، كان هو الضابط الذي اعتقلني في الجريدة.

خرجنا معاً، أنا والضابط، إلى الممر، اقترب مني كثيراً، أثناء سيرنا، وهمس لي:

- أنا آسف أستاذ أن أكون بمثل هذا الوضع معك، أرجوك أغفر لي، أنا أحترمك كثيراً.

كنت ما أزال تحت تأثير ألمي وحزني مما تعرضت إليه، فاستغربت كلام الضابط ورقّته، تماسكت وأجبته بصوت مبحوح:

- لا عليك أخي، أشكرك جداً، أنت في واجبك، كنت كريماً معي.

- عرفتني إذاً؟ أنا اعتذر.

- شكراً، ولكن أين نحن ماضيان؟

- سأمضي بك إلى مدير القسم.

دخل قبلي إلى مدير القسم:

- سيدي، هذا الشاعر الصحفي في (الجمهوريّة)..

نهض مدير القسم من مكتبه، وصاح بالضابط بودّ:

- لا داعي، لماذا عصبتم عينيه؟ قضيته بسيطة. سنتفاهم وينتهي الموضوع ليغادر اليوم، لا تؤخروه، قضية بسيطة لا تستدعي كل هذا.

طلب منّي الجلوس على كرسيٍّ حديد كان قريباً من الباب وبعيداً عن مكتبه في صالته الواسعة، لم يكن الكرسي من طقم أثاث الصالة، إنّه كرسي تحقيق حديدي قديم بقاعدة خشبيّة معدّ للسجناء. سألني:

- ما راح أدعوك لنتغدّى معاً، تبقى تطلبني غداءً في (عرصات الهندية)، أكيد في هذه اللحظة تحب أن تتغدّى في البيت؟

- أشكرك.

- حسناً، كيف هو حال الصحافة؟ كيف حال (الجمهوريّة)؟ أنا من قرّائها منذ زمان.

- نحاول دائماً أن تكون جيّدة.

- غادرها كثيرون، أعتقد؟

بدأ يقترب من الجدّ بهذا السؤال، فكّرت مع نفسي، فقلت له:

- هذا هو حال العمل الصحفي في كلّ مكان، لا يستقر.. ناس تغادر وناس تأتي.

-لكن حرامات، ما أن يصلوا إلى عمّان حتى ينسوا كلّ شيء.

- ....

- أوكي، أستاذي الفاضل، لا أريد أن تتأخر هنا، نريد أن نتعاون. نعرف مَن في المعارضة خارج البلد؟

- تقصد المثقفين طبعاً ؟.. السياسيون لا أعرف أحداً.

- نعم، نعم، أقصد المثقفين. مَن مِن المعارضين منهم تعرف؟

- والله أعرف كلّ المثقفين العراقيّين في خارج البلد. هم زملاء وأصدقاء وبعضهم معارف مجرد معرفة عامة.

- نعم، لكن أردت أن أعرف مَن مِن المعارضين منهم تعرف؟

- نعم، قلت إني أعرف كلّ المثقفين العراقيّين خارج البلد، المعارضين وغيرهم، لكن لا أعرف بالضبط مَن هو المعارض فيهم..

- لا؟، لماذا؟ الأمور واضحة، واضح مَن هو المعارض ومن هو مع العراق؟

- فعلاً الأمور في هذا المجال أوضح بالنسبة لك مما هي لي. ومن الممكن أن تقول حضرتك لي إن فلاناً معارض، تعرفه أم لا، وساجيبك، لأني حقيقةً لا أعرف المعارض من سواه، لكنّي أعرف الجميع أو اغلبهم طبعاً؟

ضحك، وهو يقول:

- لا، هذي بداية غير مشجّعة. بهذه الطريقة من المناورة أفهم انّك هنا لا تريد الكشف عن المعارضين من أصدقائك. هم في كل حال معروفون لنا، وكلامك عنهم لن يأتي بجديد.

- أكيد معلوماتكم دقيقة.

- حسناً دعنا من خارج البلد. مَن تعرف من المعارضين في الشمال؟ في منطقة الجيب العميل أقصد؟

هنا وجدت اللحظة المناسبة لتقديم معلومة مطلوبة، لا يمكن أن أستمرّ في نكران كلّ شيء، إخفاء كلّ شيء حماقة خصوصاً حينما يكون المخفي معروفاً لديهم. صار واضحاً عندي، بعد مقابلة الشاهد الذي أعرف قوميّته الكردية، أنهم يتوفّرون على كلّ المعلومات منه، تظاهرت بالصمت والتفكير الذي قطعه المدير بتساؤل:

- ها، صمتَّ، بماذا تفكّر؟

- أرجوك قبل قليل جيء لي برجل، وقال إنه يعرفني مع أني لم أعرفه لحظتها.. سؤالك عن منطقة الشمال جعلني أتذكّر أمراً أعتقد أنّ له صلة بالرجل، هل ممكن أن أراه؟

- نعم ممكن.

نادى على الحارس ليجيء به. هذه المرّة بقيت أتطلّع بوجه الشاب جيّداً، حين التقت عيناه بعينيّ أحنى رأسه، أحسست بخجله وشعوره بالعار لاعترافه ضدّي وتوريطي معه في هذه المشكلة، كان واضحاً عليه الإرهاق وآثار التعذيب والمعاناة. سألني الضابط بعد لحظات من حضور الشاب تاركاً خلالها مجالاً بدا كافياً لي للنظر والتأكد:

- ها، هل تعرفه؟

- نعم أعرفه، تذكّرته.

- إي تفضل؟

– جاءني قبل سنتين إلى الجريدة.

– هل هو صديق؟ بينكما معرفة ليأتي ويزورك؟

– لا، لم يكن صديقاً، وهي المرة الأولى والأخيرة التي التقيه فيها. أذكر أنه نقل لي تحيّات من صديق مقيم في المحافظات الكرديّة، أذكر هذا.

– مَن هو الصديق وماذا تعرف عنه؟

– سامي العبيدي، زميلي في الجامعة قبل أكثر من ثلاثة وعشرين عاماً.

– هو من ديالى، أليس كذلك؟، وأنت من بغداد.. كيف تعارفتما؟

– طالبان في شعبة واحدة وفي جامعة البصرة، جمعنا القسم الداخلي والشعبة الواحدة.

– هل التقيت به خلال الأعوام الثلاثة والعشرين؟

– زارني مرّة واحدة فقط في الجريدة قبل تسعة أعوام ولم نلتقِ بعدها اطلاقا.

– لماذا زارك؟

– قال لي إنه قرأ اسمي في الجريدة، كان مارّاً ببغداد، فهو من ديالى كما تعرف، وفكّر بزيارتي، هكذا قال لي حينها. لم يتعدّ الأمر سلاماً ومجاملات واستذكاراً لأيام الجامعة.

– أكيد استذكرتما العمل السياسي أيام الجامعة؟

– كان الرجل بعثيّاً في أيام الجامعة، وقيادياً في الاتحاد الوطني للطلبة في الكلّيّة، ولم يكن لي عمل سياسي.

– لا، هــذه غير دقيقــة، كان لك عمل سياسي فــي الكلّيّة، حتماً تعــرف أن معلوماتنــا لا تقبل الخطــأ، الحرص علــى العراق وعلى مواطنينا يمنع أي خطأ، وأنت صحفي وتعرف ذلك.. إما سامي، يا عزيزي، فسامي الآن هو مرتدّ خطير في ما يسمّى كردستان!

عام ١٩٨٠ افترقت عن سامي الذي كان زميلي في كلّيّة الهندسة فــي جامعة البصــرة، افترقت عن سامــي والكليــة والبصرة، تركت الكلّيّــة في الظروف الملتهبة في ذلك العام والعام الذي سبقه، وهما عامــان غيّرا ليس حياتــي وحدها وإنما كلّ تاريــخ العراق المعاصر مــع صعود صــدام حسين إلــى الموقــع الأول في الدولــة وإزاحته قبــل أن تبدأ الحــرب مع إيران. لكلّ خصومه مــن أقرب رفاقه، إلى المتحالفيــن معــه، إلى أعدائه، بقــي سامي العبيدي فــي الكلّيّة التي أكمــل دراسته فيها ليجري توظيفه بعد ذلك في التصنيع العسكري، وفــي أقسامــه الأكثر حساسيّــة المتعلقة بصناعــة الصواريخ. التقيته خــلال التسعينيّات مرّتين، وليس مرّة واحدة كما قلت في التحقيق؛ فقــد زارني مرّة في الجريــدة واتّفقنا فيها على موعد اللقاء الثاني في مقهــى في شــارع الرشيــد، كان كلا اللقاءَين بمبــادرة وطلب منه، وعرفــت فيهمــا طبيعة عملــه الذي بــدا متضايقا منــه، ليس لسبب سياســي، فالرجل بعثي، ولكن لطموحه للتحرّر من الوظيفة والعمل بمشــروع خاص يساعده في سرعة بناء حياته، كما قال لي في اللقاء الأول الذي كنت فيه كما في اللقاء الثاني أيضاً متحفّظاً، أصغي أكثر مما أتحدث، وهي طبيعــة اعتدت عليها حين أكون أمام صورة غير واضحــة ولست متأكداً من وضوح تفاصيلها، وما دام كل ما أعرفه الآن فــي اللقاءَين عن زميلــي القديم كان متأتّياً لي عن طريقه هو بعد افتراق لأكثر من عشر سنوات فكان لزاماً عليَّ التزام ذلك التحفظ.

الصورة القديمة التي أعرفها عن سامي، كفتىً مندفع بحيويّة في الحياة والمرح والصرف من أجلهما بلا كوابح، ما زالت كما هي ولكن بتلاوين أخرى. كان في السبعينيّات حزبيّاً، لكنّه كان أكثر انفتاحاً من أقرانه في التعامل مع الخصوم السياسيّين، مع الشيوعيّين بالتحديد. تحدّث لي في تلك السنوات السبعينيّة بما كان يريد أن يوحي به إليّ، ولو بشكل غير مباشر، عن عدم قناعته الحقيقيّة بحزب البعث وبالسياسة كلّها. « حياة الأحزاب ممر إلى السلطة والجاه والثروة. احترم ذكاء الشيوعيين لكنهم أغبياء فحياتهم وعملهم الحزبي يقودهم إلى الموت والسجون والفقر، لا يفهمون اللعبة»، كانت تلك هي فلسفته التي كرّرها أمامي أكثر من مرّة، وتأكّد ذلك التفكير، من دون أن يذكر تلك الفلسفة في اللقاء التسعيني الثاني الذي أخفيته في التحقيق. لقد قال لي إنه سيغادر إلى كردستان، سيترك العمل الذي لم يعد مجدياً ويهاجر إلى هناك. لم أهتم كثيراً بما قال، ولم أشأ أن أشغل تفكيري بالتساؤل عن مبرّر بوحه لي بمثل هذه الخطط التي ينوي تنفيذها، ولم أعلّق عليها بشيء. قلت ربّما هي حاجة نفسيّة للبوح، وربما ما زالت صورتي القديمة، معارضاً وموثوقاً به، تسمح له بهذه الصراحة غير المبرّرة.

قلت للمدير:

– سامي مرتد ومعارض؟ آخر ما يمكن أن أتوقّعه أن يكون سامي العبيدي معارضاً.. الرجل بعثي، وأثناء زيارته لي أكّد أنّه يعمل في التصنيع العسكري.

– حسين كامل صهر الرئيس وبعثي، كان يدير كلّ التصنيع

العسكـري، وتحوّل إلـى خائن ومرتد حيـن انهزم وغـادر البلد.. كيف، وأنت مثقف، تستغرب أن يكون مثل سامي خائناً؟

– لا، عفواً، كلّ شيء ممكن، لكن أقصد أنّي لا أعرف عن وضعه هناك أي شيء.

– ماذا كتب لك في الرسالة إذاً؟

– أيّ رسالة؟

– التي حملها لك هذا الكردي؟

– لـم أتسلّـم أيّة رسالة مـن سامي. هذا الرجل مجـرد حمل لي تحيّاته، وسألني ما إذا كنت محتاجاً إلى شيء ليبلغ به سامي.

– لا أعتقد أنّ الكـردي مضطر إلى الكذب والادّعاء عليك، لقد سلّمـك الرسالـة. تهمّنا معرفة فحواها منك أنت، هـذا كلّ ما يهمّنا من استدعائك إلى هنا. نريدك أن تغادر والدوام على وشك الانتهاء، لماذا التأخير؟ تعاون معنا!

– يـا أستاذ، قلت لك إنّ الرجـل جاءني وسلّم عليّ ونقل تحيّات سامـي. لو كنـتُ تلقّيت رسالة فما الضير مـن أن أقول لك عنها. إذا أتعمّد نكران الرسالة فالأجدر أن أنكر اللقاء كلّه من الأصل.

– لا، لا، لا، الرسالة شيء ومجرد اللقاء شيء آخر، لا أدري لماذا تصرّ على إنكار الرسالة. قل لي فحواها وأخرج يا أخي!

– أنا لم اتسلّم أيّة رسالة من هذا الرجل.

– شوف! هـذا الكردي حمل رسائل لك ولعميد في الجيش من منطقة المدائن ولشخص آخر من الفلوجة، الأثولان معتقلان عندنا،

واعترفا بتلقّيهما الرسائل، ما معنى أن ترفض أنت الاعتراف..؟ تحدّث لي عنها لتخرجوا أنتم الثلاثة الآن.

– لأنّي فعلاً لم أتسلّم أيّة رسالة، وما دام الرجل قد نقل أكثر من رسالة كما تقول فلربّما يكون توهّم بعد هاتين السنتين وحسب أنّه كان أيضاً حمل لي رسالة.

– لا تتحدّث لي عن تفسيرات وتأويلات! هذا شغلنا وليس شغلك، أريد منك معلومات. ماذا في الرسالة؟ بالمناسبة كنّا نتابع كلّ تحرّكات الكردي منذ سنتين وتركناه براحته يتحرّك، وسأكون متعاوناً معك وأبوح لك بما يجب أن لا أبوح به: لدينا نسخة مصوّرة من الرسالة التي حملها لك.

شعرت أن هذه المعلومة أربكت شيئاً في دواخلي قبل أن أفكر باستحالة صحتها وبرغم أن ثمة ما يقرب من اليقين صار يتضح عندي من أنها جزء من ألعاب محققين.

– مع كلّ احترامي هذا الكلام غير دقيق فيما يخصّ صورة رسالتي، لأن لا وجود لمثل هذه الرسالة.

– ما زلت أتعامل معك باحترام، لا تشكّك بما أقول.. نعرف كل فحوى الرسالة، ولكن نريد أن نسمع منك أنت حتى لا يتعقّد الأمر عليك، لا نريد أن نخسر مثقفاً وشاعراً وصحفيّاً مثلك.

– أنا آسف، أردت التوضيح وليس التشكيك، أرجو أن تثق بأنّي لم أتلقّ رسالة.

كان واضحاً لي أنّ مثل هذا الصبر الذي يبديه المدير معي لن يستمر إلى ما لانهاية؛ إنه صبر موقّت، وهو جزء من آليّة التحقيق،

وجهها المؤدب الأول الذي سيُخلَع حتماً في أية لحظة ليكشف عمّا يخفي وراءه من وجوه أخرى. لم أعوّل كثيراً على ذلك الوجه الناعم، الخشونة والقسوة قادرتـان على إزاحة تلك النعومة التي لن تستغرق حتما أكثر من الساعة الأولى، وكنت محتاجاً إلى تلك الساعة، كنت أفكّـر فـي استثمار وقت هـذا الصبـر لتنظيم وترسيـخ الشكل الذي وضعـت عليه إفادتي، وهو وقت قد لا يتوفّـر لي في مراحل تالية من التحقيـق حيـن أكون فيها بمواجهـة الوجوه التي مـا زال يصبر على اخفائها.

وفيما كان المدير يتنـاول علبة سكائر (كِنْتْ)، سألني ما إذا كنت أدخّن، وحيـن أجبته، تقدّم نحوي وأعطاني سيكارة، كانت المسافة بعيـدةً بيـن مكتبه وبيـن الكرسي الـذي أجلس عليه، هـذا البعد في المسافـة بين محقـق المخابرات والمتهـم هو تعبير عـن تباعد آخر فـي المسافة بين السلطة والمواطـن. أراد أن يستدير ليعود إلى مكتبه فتذكّـر أني لا أتوفـر على ما أشعل بـه السيكارة فعـاد ليشعل قداحة كانت مـا زالت في يده. لـم أدخّن (كِنْتْ) منذ عـام ١٩٩١، حيث بـدأ الحصار وشحّت السكائر الأجنبية فارتفعـت أسعارها إلى الحدّ الذي بات فيه مستحيـلاً على الموظّفين والفقراء الحصول عليها. لم أفكّـر بترك التدخين، بـدأت حينها بالتحوّل أوّلاً إلـى استخدام التبغ المحلي الرديء ولفّه، بقيت لأكثر من عامين أعتمدَ على زوجتي التي كانـت تحضّر لي يوميّاً مـا يكفي من السكائر الملفوفـة التي أضعها في علبـة معدنيّة كنت أحتفظ بهـا بالمصادفة وكانـت ممّا يستخدم فـي منتصف القرن الماضي مـن قبل الشيوخ والعجائـز لحمل التبغ وورق اللـف من نوع (بافرا)، لكنّ تدفّقاً مفاجئاً على السوق العراقيّة لسكائـر أجنبيّة بمـاركات مجهولـة وزهيدة الثمن أعـاد تلك العلبة

المعدنيّـة إلى مكان حفظها وحـرّر زوجتي من مهمّـة يوميّة لا شأن لهـا بها. بدأت أدخّن سكائر من أنواع كثيرة حسب ما يتوفّر منها في السوق (مونتي كارلو) و(ماغنا) و(أسبين) و(فايسروي) وسواها مما نسيـت الآن أسماءها. لكنّ السكائر من مـاركات معروفة ونوعيّات مقبولـة بقيت حكراً على طبقة التجّار التي انتعشت كثيراً في ظروف الحصـار وعلى كبار موظّفي ومتنفّـذي الدولة والحزب، ومن بينهم رجـال المخابرات الذين دخنّت في سجنهـم، ومن سكائرهم، وفي هـذه الجلسة التحقيقيـة، آخر سيكارة لي في فتـرة الحبس. لم أشعر بمتعـة التدخين، ولا بطعم السيكارة، كنت أدخّن بحكم الاعتياد اللا واعـي، فيما كان كل تركيزي وانتباهي مثبّتـاً على ما يدور بيني وبين مديـر القسم الذي طلـب احضار المتّهم الكردي ثانيـةً، ليبدأ بإعادة استجوابه بما يخصّني وأمامي.

انتهيـت من سيكارتي وأنهى سيكارته، بقـي عقب السيكارة بين أصابعـي لحين انطفائهـا، كانت المنفضة على مسافـة مني، لم يكن بوسعـي التحرّك، ولم يطلب هو مني أن أرميهـا في المنفضة، أشعل سيـكارة أخرى، كان يدخّـن بشراهة، مواصلاً التحقيـق مع الشابّ الـذي كان يعيد المعلومـات الصحيحة نفسها التـي يعرفها وأعرفها والتي أنكرت منها موضوع الرسالة.

التفت المدير إليّ بعدما أمر الشاب الكردي بالمغادرة وأمر حارساً بنقله إلى زنزانته، نفث نَفَساً كثيفاً من الدخان باتجاهي وهو يقول:

– أوكـي، ستعترف حتماً بموضوع الرسالـة. أنت تؤخّر نفسك هنـا، كان المطلوب أن تغادر اليوم. لنتـرك الرسالة جانباً، لكن لماذا لـم تبلغ السلطات الأمنيـة أو الحزب أو دائرتك بمجيء الكردي لك

من طرف سامي العبيدي؟ ألا تعرف أن التستّر على مثل هذا الحال يضعك في خانة الاشتراك في جريمة سامي والكردي..؟

– لماذا أبلّغ وأنا حتّى قبل هذا اللقاء، مع حضرتك، لم أكن أعرف أن سامي مرتد، ولا أعرف أن الرجل الكردي لديه مهمة سياسية؟

– كنتَ مغفّلاً، وتعرف أنّ القانون لا يحمي المغفّلين! (وقبل أن أجيب، عاد ليستدرك) إن كنتَ فعلاً مغفلاً ولا تعرف!

– أتوقّع أني لم أكن مغفّلاً، حدود معرفتي بسامي أنّه حزبي بعثي ويعمل في التصنيع، لم يمرّر شيئاً عليّ أو من خلالي لأكون مغفّلاً..

– لماذا، أما فكّرتَ ماذا يعمل مع الكرد..؟ أنت مثقف والمفروض يستوقفك وجوده هناك مع الجيب العميل. أنت صحفي ألم يثر اهتمامك انتقال موظف مهم في التصنيع ليقيم في الشمال بعدما ترك وظيفته؟ كيف لم تكن مغفلاً ؟

– عشرات ومئات من العرب العراقيين يعملون الآن بالتجارة بين المحافظات الكرديّة وبغداد، والدولة تعلم بذلك. كلّ ما جاء في بالي أنّه ربّما يعمل في التجارة، أعرف أنّ الرجل طموح، أعرف ذلك من أيّام الجامعة، وسأكون أكثر وضوحاً معك..

قاطعني مبتسماً:

– نعم هذا ما نريده، الوضوح، تفضّل!

– إذا كان لي أن أفكّر بشيء فالمفروض أن أتوقّع أنّ سامي مُرسَل من قبل أحد الأجهزة الأمنيّة للعمل هناك لصالح الدولة. لا يمكن أن أشكّ بسامي.

- المفروض؟ بدأت تبني افتراضات لتغطّي على ورطتك؟ أنت تَراوغ، لا تريد مساعدتنا لك.

نظر إلــى ساعته، ونــادى، فدخل النقيب حميـد الذي خاطب مدير القسم بكلمة (سيدي)، أومأ المدير لي بيده أن أخرج، وأعقبه النقيــب بالقول لــي: انتظرنــي. ثم نــادى حارساً ليعصــب عينيّ، ويخرجنــي من الغرفة، في انتظار أن يتمّ كلامه مع مديره، ولأمضي معه إلى تحقيق الساعة الثقيلة الذي رويتُ جانباً منه قبل قليل.

(٦)

ماذا لو وقعت الحرب وأنا سجين هنا؟

بقـي هذا السؤال يتكرّر بقوة منذ ساعـات العصر التي قضيتها في الزنزانـة وفي أثناء ما تركني الحارس منذ قليـل في الممر، حين طلب منّـي أن أجلس على الأرض في مواجهة جدار قرب باب غرفة تحقيق منتظراً أن يُنادَى عليّ:

- لا تنسَ أنـت رقم ١٦، حين تسمع هذا الرقـم قل (نعم) يا سيد ١٦ وانهض ليدخلوك الى التحقيق..

كرّر هذه الوصيّة مرّتين بسخرية معلم فظّ يلقّن تلميذا كسولاً.

في السجـن السياسي تحتاج إلى كلّ ذكائـك، تحتاج إلى تنشيط كلّ حواسّـك حتـى لا يفوتك شـيء، ولا تخطئ في شـيء، لكن في مواقـف معيّنة في السجـن تحتاج أيضـاً إلى الظهور بمظهـر التلميذ الكسـول بطيء الفهم قليل الإدراك، الذي لا يصغي جيداً، وإن أصغى لا يفهـم كما يبغي منـه المعلم. في الأقل، يساعد هـذا التغابي، الذي يقدّمه السجين، في إشباع رغبة سخيفة لدى الحارس أو حتى المحقّق بتفـوّق يحتاج إليه في علاقته وحـواره مع مسجونيه. لا ينبغي تجاهل هـذه الرغبات التسلّطية التي تنطلق من رواسب قاع مُحطَّم في نفوس هـؤلاء وهم يتعاملـون مع مساجينهم القادمين عـادةً من نخب مدربة علـى الـذكاء والفطنة وحسـن التخلّص، وإنْ كان ذكاؤهـا كثيراً ما يورّطها فيأتي بها إلى هنا، إلى تحت سلطة الحارس والمحقّق والمدير

ومـن خلالهم الحكومة.. ينفـع ذلك التغابي أيضاً فـي كسب وقتٍ، مهـمّ مهما بدا محدوداً، لكن له أهميّتـه في التركيز وعدم التسرّع في القول والتصرف. حين ينجح السجين في تنظيم هذا التوازن يكون قد نجح، ليس فـي استعادة ضريبة التغابي الّتي دفعها حسب، وإنما أيضاً في تعميق ذلك القاع المحطّم في نفوس السجّانين والسلطة، وتدمير شعورهم الفارغ بالقوّة، وقهر تذاكيهم الأبله.

بقـي الحارس يضحك مع زميل له، وهو يروي له معاناته معي، أنا الذي لم أعتد بعد على نسيان إسمي والتكيف مع الاسم الجديد (رقم ١٦). كان مستغرِباً من سماع الضبّاط ووصفهم لهذا السجين، الذي هو رهن تصرّفه الآن، بالمثقّف والصحفي والشاعر:

- لا، ويقولون عنه شيطان، ولا يعطي لزمة!

يقول لزميله ضاحكاً فيردّ هذا بضحكة أعلى:

- خلّي يعطوني إياه نصف ساعة، وخلّي يبقى شيطان!!

كنـت منصرفاً عن ضحكاتهمـا وتعليقاتهما التـي حسبتها مجرد ازعـاج واضح لـي واستعراض أجوف لمهـارات حمقـاء يعدونها امتيـازاً، بينمـا كان حديثهما ينطـوي على استهانة خفيـة بعمل وأداء مسؤوليهم، لقد كنـت منشغلاً بالإصغاء، ما أمكن، إلى صوتٍ يأتيني مـن تلفزيون في الغرفة المجـاورة، كان واضحاً لـي أنّ التلفزيون لم يكن على القناتين الأرضيّتين، تلفزيون العراق وتلفزيون الشباب، ولا المحطـة الفضائيـة العراقية التي أُنشئت مؤخراً، قبـل الحرب بأشهر، وتستقبلها تلفزيونات العراقيّين بالتردّدات الأرضيّة من دون حاجة إلى طبق فضائي لاقط. الأطباق ممنوعة، والعثور على طبق في بيت تترتّب عليه جريمة حيازة جهاز ممنوع يسيء للأمن القومي والأخلاق العامة.

في المـرّات القليلة التي سافرتُ فيها إلـى الأردن كان وقت طويل من أيام السفـرات يستقطع للبقاء في غرف الفنادق لمتابعة الفضائيات بفعل الحاجة إلى رؤية صورة بلدنا وأحوالنا عليها وبفعل حاجة أخرى يتطلبها عملي الصحفي لمعرفة آفاق ومديات حرية الصحافة وما يتوفر من معلومات على هذه القنوات الجديدة العابرة للحدود. ما زلت أذكر أن آخـر سفرة لعمان كنت موفداً فيها كصحفي لتغطية فعاليات أسبوع ثقافـي عراقي في المملكـة الأردنية، كنت قلقاً فـي يومها الأخير فقد التقينـا، أنا والصديق عبدالستـار البيضاني زميلي في الايفاد الصحفي، عـدداً مـن أصدقائنا الأدبـاء والصحفيين المعارضين فـي عمان، كان هـذا يستدعي فعلاً الخوف، خصوصاً أن ضابط مخابرات كان يرافقنا السفـرة كما هو الحـال في جميع السفـرات، وكان رصـد مثل هذه اللقـاءات من مسؤوليته، في ذلك اليوم سألـت عبدالستار عما إذا كان يشاطرني القلـق ففوجئت به يدعوني إلى الاطمئنـان فالرجل، ضابط المخابـرات الشاب، وكان مـن عائلية ريفية، لم يغـادر غرفته إطلاقاً، يؤتـى لـه بوجباته الغذائيـة طيلة الأيام فـي الغرفة التي لازمهـا لمتابعة قنوات القمر الأوربي على الساتلايت.

نسبيـاً وفَرَت لي تلـك السفرات معرفةً متواضعـة تكفي بشكل ما لتمييـز قنـوات مهمـة وبرامجها ونشراتهـا الإخبارية بمجـرد سماع أصـوات المذيعـات والمذيعيـن وموسيقـى الفواصـل ومقدّمـات النشرات والبرامج الأساسية فيها؛ تأكّدت أنّي أستمع إلى أخبار فضائيّة (الجزيرة)، ومن الواضح أن هذه النشرة ما زالت في مستهلّها؛ سيطرت أخبـار العراق والولايات المتّحدة والاستعداد للحرب والتحرّك داخل مجلـس الأمن والسعي إلى كسـب دول للمشاركة في حملة الولايات المتحدة على كلّ مساحة النشرة. قبل مجيئي السجن وقبل هذه النشرة

الخبريّة الواسعة والمدعمة بتقارير وتحليلات وآراء، كانت إذاعتا (بي بي سي) و(مونتي كارلو) وإذاعة (صوت أمريكا) التي تحوّلت برنامجها العربي إلى (راديو سوا) مصادري الأساسية، مثل جميع العراقيين، للحصول على أخبار استعدادات الحرب بالإضافة إلى ما يوفّره الإعلام العراقي من أخبار ومعلومات لا أحتاج إلى جهد كبير، بفعل خبرتي، لمعرفة المخفي والمحذوف منها والموجّه فيها من الأخبار والتعليقات.

في السنتين الأخيرتين سُمِح لدوائر المخابرات ولرؤساء تحرير الصحف الأربعة في البلد ودوائر حكوميّة معينة أخرى بالتقاط البث الفضائي الذي غامرت عوائل محدودة من أجل الحصول عليه بشراء أجهزة من السوق السوداء ونصبها بسريّة تامة في بيوتها؛ ففي طريقنا إلى دمشق عام ١٩٩٩ تحدّث لي الصديق الشاعر والأستاذ الجامعي محمد حسين آل ياسين عن الكيفيّة التي تمّ بها اقتحام منزله ومصادرة الطبق اللاقط وتغريمه أربع مئة ألف دينار (من دون وصل بالمبلغ) وذلك بعد ثلاثة أيام من تلقّي تلفزيونه البث الفضائي، قال لي إن الذين اقتحموا البيت لم يعرفوا حتى أنّ هناك جهاز استقبال (رسيفر) مع الطبق اللاقط فلم يأخذوه، كانوا سعداء بالمبلغ المالي الذي كان من حصّتهم، بتواطؤ صامت بين الشاعر وبينهم، مقابل أن ينتهي الموضوع ولا يجري تحقيق فيه.

ربّما كانت النشرة التي أخّرت التحقيق كلَّ هذا الوقت هي (حصاد اليوم) من (الجزيرة)، وهذا ما يسّر لي في هذا المكان المنقطع تماماً عن أيّ شيء الوقوفَ على حقيقة ما يحدث في العالم الذي ينتظر كلّه حرباً ثالثة في الخليج بعد حربنا مع إيران وحرب إخراجنا من الكويت.

وقبـل هذا اليوم، كان الوقت الذي نقضيـه في مقهى (الجماهير) القريـب من الجريـدة يُكرَّس جانبٌ منه لتبـادل الأخبار التي يحصل الأصدقـاء عليهـا. كنـت بفعـل المعلومـات والأخبار التـي يقدّمها الأصدقـاء أكاد أكـون متأكداً من أنّ أكثر من صديـق كانوا يمتلكون ستالايـت فـي بيوتهـم، وكان ينبغي تجاهل هـذا فـلا نتوقّف عنده ليطمئنّ الصديق ولنجنّب أنفسنا التورّط بسرٍّ لا مبرر للتورّط بمعرفته، ربمـا كان سهيل سامي ويحيـى الكبيسي ورياض قاسم يستقبلون في منازلهـم بثّاً فضائيّاً، لكنـي كنت متأكّداً أنّ خالـد مطلك جلب معه فـي أحـدى زياراتـه لأسرته، عائـداً من (أبـو ظبي)، جهـاز رسيفر ليشتـري من السـوق السوداء طبقا لاقطـاً، كانوا كرمـاء في تزويدنا بما يحصلون عليـه من أخبار وتحليـلات وآراء تستغرق منّا ساعات فـي تقليبها واستخلاص فحاواها وذلك في الوقـت الذي يغلب فيه تظاهرنا بالصمـت أو النقاش في قضايا الشعر والأدب والفنون، فيما تتشاغل أيدينا بقطع الدومينو التي وحدها تتيح لنا مجالاً منعزلاً وآمناً في المقهى الذي لم يكن بعيداً عن الرصد الأمني.

لم يستطع أيٌّ منا أن يكون ماهراً في الدومينو، اللعبة الأكثر شعبيةً فـي مقاهي البلد، برغم السـاعـات الطويلة التي كنّا ننفقها في المقهى قبـل الحرب، وهي ساعات تجمعنا فيها طاولة منعزلة بشكل ما، ولم ننسَ معها الإيحـاء لمن حولنا بانهماكنا في اللعبـة لنطرق، بين حين وآخـر، بقوّة قطع الدومينو، مثلما يفعل ذلك اللاعبون المهرة، إعلاناً عـن دحر خصم وتعجيـزه، أو تعبيـراً عن سخط على عـدم انسجام أداء الزميـل المقابل حين تكون المبـاراة بزوجين متقابلين، فيما كان محمّد، نادل المقهى، دقيقاً في تشخيص الوقت الذي يحتاج فيه أيٌّ منا إلى كوب شاي أو ليمون ساخن، فيأتي به قبل أن يُطلَب منه ذلك.

كان الحديث عن الحرب المنتظَرة يتستّر بحرب الدومينو الدائرة على الطاولة. بطريقته العدمية يحسم سهيل سامي نادر كلَّ شيء، كل نقاش يمتدّ إلى مدىً لا ينبغي له أن يمتدّ إليه، وهو يمارس لعبته الأثيرة فـي النسيان: « بابا.. لمـاذا تنشغلون وتفكّرون؟ لدينـا رئيس يفكّر بالنيابـة عنّا جميعـاً! ». كان هذا أكثر ما يحدث مـع أصدقائنا الشبّان الذين لا يتحسبون في التعبير عن آرائهم مثل محمّد الغزّي الذي يعود إلـى المقهى بعد جولة نهارية مضنية، يبيع خلالها أو يؤجّر المجلات الفنيّة والمنوّعة العربيّة في أزقّة زيونة لربّات البيوت والطالبات.

كان مجـيء سهيل إلى مقهـى الجماهير حدثاً. لقـد ملأ المكان بحيويّة لا أعرف كيف تحصل مع طابعه العدمي القانط من كل شيء، ومـع ما يبدو عليه من تشتّت وعـدم تركيز، ربما هذا هو امتياز سهيل فـي قدرته على اليأس الكامل من الحياة المـرّة وحيويته المتوثّبة في التفكيـر، لذلـك لا ترى سهيل إلّا في الكتابة التـي يتكشَّف فيها كما هو، دقيقاً منتبهاً وجريئاً حاذقاً قد يتخفّى بإشارات وتلميحات لكنها يسيـرة على قارئ بمثل ذكائه فـي الكتابة التي يحرص على أن يكون شحيحـاً فيها حتى لا يُرى. جـاء سهيل الى المقهى في لحظة احتياج متبـادل، كنّا نحتاج إليه، إلى حكمتـه وفطنته، وكان هو محتاجاً إلى هـذا الفضاء المشتـرك الحر والأمين الذي جمعه بنا فـي أشدّ فترات العراق حراجةً وإقبالا على تغيير مجهول، بوعود مجهولة.

كانت نشرة (الجزيـرة) ما زالت مستمرة، وهي مكرّسة كلّها عن العـراق وأمريكا والحرب والتغيير المتوقّـع. لقد نجحت (الجزيرة) سريعـاً في سحـب الأضواء من باقي وسائل الأعلام فـي أثناء تغطيتها الحرب في أفغانستان التي انتهت بسقوط طالبان، متقدّمة بذلك على

قنــاة (ســي أن أن) الأمريكيّة التي كانت المصــدر الأساس للعالم في حرب الكويت ١٩٩١ ويبدو أن (الجزيرة) تستعد لظفر إعلامي آخر مــن خلال حرب منتظرة، لاحظت أن سياســة القناة الخبريّة مرسومة باتجاه حســم اقتناعها بحتميّــة وقوع الحرب، لكنهــا لم ترد حسم رؤيتهــا لما ستــؤول إليه الحرب من نتائج، بخلافنــا نحن الذين بات واضحاً لدينا كلّ شيء: الحرب ونتائجها المباشرة.

فقبــل أكثر من عام، حُسم اليقين داخلنا بوقوع الحرب وبانتهائها حتمــاً بسقوط صــدام، مسألة وقت لا أكثر، ستقــع الحرب ولا دور لنا فــي إيقافها أو إشعالها. ما هو مهم فــي حواراتنا كان يتركّز حول تمنّــي استقالــة صدام وتركه البلــد وتجنيبها حربــاً واحتلالاً لا خيار سواهمــا. كان إصرار صــدام على التشبّث بالحكــم والسلطة، ومع عجز المعارضة، من جانب، والجيش، من جانب آخر، وحتى حزبه، عن الانقلاب عليه وإسقاطه والتفاهم، من ثمّ، مع الأمريكان، بشكل خاص، لتفادي الحرب ومع المجتمع الدولي، بشكل عام، لمنعها.

كان أحــد مراسلي (الجزيرة) يقــدّم، في اثناء النشــرة، تقريراً من بغداد، ويتحــدّث فيه عن استعدادات المواطنيــن في العراق للحرب المنتظرة؛ كان المواطنون يتحدّثون في التقرير بما يوحي بتيقّنهم من خيار الحرب ووقوعها، وكان عليهم أن يغلّفوا مثل هذا الكلام الذي لا تتمنّــاه السلطة بكلام هو الآخر متحمّــس للحرب ولكنْ مشفوع باستعــداد لمواجهتهــا. سمعت سيــدة تقــول: « ليأتــوا.. كلّنا فداء القائــد!». ضحكت في داخلي حيث تذكرت رجلاً كان في سنوات الحــرب مــع إيران قد هتف بمثل هــذا الاستعــداد للتضحية من أجل القائــد وأمام القائد نفسه، أتذكــر أن صدام بدا منزعجاً وهو يردّ على

الرجل: « فداء الوطن وليس صدام». لا ينبغي للعراقيّين أن يحمّلوا صدام مِنّة التضحية من أجله فهم يدافعون عن بلدهم المهدّد من الإمبريالية والصهيونية وقبلهما العدو الفارسي المجوسي في حرب الثمانينيّات ثم الكويتيون والسعوديون عملاء أمريكا وأسرائيل.

لقد أُرهقنا كبشر أنفقنا أكثر من عشرين عاماً من أعمارنا تحت وطأة الحروب أو هواجس الخوف من وقوعها، فيما أنفقنا كلّ سنيّ العمر تحت تهديد حروب لا مرئيّة، حروب في ظل خوف وتهديد وقمع لكل شيء: الحرية والكرامة والحياة الشخصيّة والعلاقات وحتّى التفكير مع النفس. كان يمكن للسلطة أن تغيّر أيّ شيء، في فترة الحصار في الأقل، بعد الإهانة الكبيرة التي جرّت إليها البلد، بشعبه وجيشه ومؤسّساته وبثقله الرمزي والمعنوي، في تلك الحرب المُذلّة وذلك الاستسلام الأكثر ذلّةً الذي لم يقبل به الرئيس الأمريكي بوش الأب إلا أن يكون بتوقيع صدام حسين، ثم لم يقبل به إلا بعد أن يبث من تلفزيون العراق حتى إذا ما بُثّ عاد بوش فلم يقبل به إلا بلسان صدام وعلى التلفزيون. كان توسّلاً مشيناً من أجل البقاء، ثم تعويض تلك الهزيمة باصطناع نصر سخيف على الناس الذين تعرّضوا لأكبر إبادة شهدها العراق عقب انتفاضة آذار ١٩٩١.. لم تسع السلطة إلى أيّ تغيير لصالح مجتمع سحقته الحرب والحصار والجوع والقمع، لم يحدث هذا، لم تفكر الناس، تحت ضغط تدمير الحياة اليوميّة، بالحقوق السياسية والحريّات اللازمة لها، كانت تنتظر قليلاً من تحسين الخدمات الاقتصادية والطبية والتعليمية والمعيشية، تحسين طفيف في هذه المجالات كان يُغني عن وعود كبرى في السياسة، لكن كلّ ذلك التحطيم والإذلال كان في حسابات السلطة جزءاً من استراتيجيّة السيطرة على شعب وتيئيسه ودحر كلّ شيء فيه. استمرّ

التباهـي بالبذخ والرفـاه الرئاسي بينما استمرّ جـوع الناس ومعاناتها وخوفهـا ويأسها مـن مستقبلهـا، كان الجدار يرتفع أكثـر فأكثر بين النـاس وسلطةٍ فاسـدة كنّا متأكدين أنها لن تجد مـن يدافع عنها حين تشتعـل الحـرب. أرادت السلطة أن تفرض قناعة علـى الشعب بأنّها هي الدولة وهـي الوطن، فتزعزعت قيم الوطنيّـة وانمسخت صورة الدولة واحتُقرت في نظر الناس. لقد باعت الناس كل شيء: انتيكاتها وأثاثهـا المنزلـي ومجوهراتهـا ومصوغاتهـا ولوحاتهـا ومكتباتها وأوانيهـا الأغلـى وحتـى أعضاءهـا الجسديـة، حيث بـات مألوفاً لمراجعـي المستشفيات منظر يتكرّر لطوابيـر كثيرة من (المتبرّعين) بالكلـى ممن كانوا ينتظـرون مريضاً قـادراً على الدفـع. كان الغذاء وحـده يتطلّب كل هذه التنازلات والخسـارات. لم أجد، أنا كواحد مـن شعب، بيضة واحدة في إفطار أسرتي طيلة عام ١٩٩٥ وهو أسوأ أعـوام الحصار. الآن الحرب على الأبـواب، وأنا في السجن لقضية أعـرف أنا، ويعرفون هم في المخابـرات، أنها من أتفه ما تكون عليه قضايـا التحقيق في الأمنِ السياسي في أشدّ البلدان تعسّفاً، ناهيك عن أن موضوعهـا برمّته يشكّل اعتداء علـى حريّة الشخص وخصوصيّته وحقّه في علاقاته ومراسلاته المكفولة في أردأ أنواع الديمقراطيّة في العالـم، لكنِ مثل حالتي هناك عشراتُ آلافٍ من العراقيين الذين أُريد لهـم أن يُحكَموا بالخوف، الخوف وحـده، ليستحيل احترام النظام إلى خوف وليس ثقافة اقتناع وسلوك طبيعي، وليستحيل حب الوطن والاعتـزاز به إلى مجرّد خوف وليس مشاعر بداهة لا تقبل التدليس، وليستحيل حتّى العمل والوظيفـة إلى فرض قسري وليس خيار حياة مـن أجل معيشـة كريمة، حيث مُنِـع موظّفو الدولـة لسنوات طويلة مـن التفكير بطلب الإحالة على التقاعـد وحتّى الاستقالة من دون أية

حقـوق وذلك مقابل رواتب شهريـة لا تكفي ليوم واحد، من معيشة أكثر من مقبولة وأقبل من كريمة.

كان مـن العسيـر علـى مفكّر حاذق مثـل إدوارد سعيـد أن يفهم المعنى الذي أراد كنعان مكيّة الذهاب إليه، وربما أخطأ في صياغته، وهو يتحدث عن سعادته للحرب في بغداد.

كان القطـع الذي أحدثه السلوك الإجرامـي للسلطة، وهيّ تعمّق الهوّة بين المواطن والوطـن، هو الذي جعل العراقيين متفرّجين على حـرب ستنتهـي باحتـلال بلدهـم، وكان بضمنهم في هـذه الفرجة المأساويـة حتى عشـرات الآلاف من حزب السلطـة ومن المقربين لها ومن قيـادات الجيش وجنوده وحتى من أولئـك الذين رفعوا في مـا بعد شعار مقاومة الاحتـلال بالقوة. لم يتسـاءل إدوارد سعيد عن مبـرر ليس سعادة وإنمـا صمت العراقيين على دخـول جيش أجنبي ارضَـن بلدهم، وتخلّيهـم وتخلّي جيشهم عن السلطـة عزلاءَ وحيدةً في حربهـا في الكويت. بالنسبة لمفكّر أحترمـه مثل سعيد لن يكون مقنعـاً لـي أن يتسبّب اختـلاف المواقع في منع تصـوّر الحقيقة كما هي على الأرض، موقع العربي غير العراقي الـذي يحتاج إلى دعاية صـدام واستعراضاته الكلاميّة الفارغة ضـدّ اسرائيل وأمريكا وموقع العراقـي الـرازح تحت عـبء الإذلال والقهـر. كيف فكـر إداورد سعيـد أن شعبا مقهـوراً او محطماً مثـل العراقيين يمكنـه أن يساعد فعـلاً شعباً مضطهـداً مثل الفلسطيني؟ وحين أحـرّر هذا الفصل الآن بعد هذه السنوات أفكّـر بالكيفيّة التي سيتصرف بها إدوارد سعيد لو كان حيّـاً في مواجهة عـرب كلهم ينادون أمريـكا وحلف الأطلسي للتدخّل عسكريـاً لإسقاط دكتاتوريات جاثمـة وتغيير أنظمة حكم،

كما حدث في ليبيا مثلاً وربّما سيحدث في دول أخرى بعد صدور هـذا الكتاب. إنها حالات من أشد تراجيديات التاريخ بشاعة، وقد يتعذر تخيّل ظروفها ودواعيها ما لم تكن تجربة النطق بأحكام بشأنها نتاجاً حقيقياً لمعايشة حقيقية لها وليس نتاج خيال مفكر ينعم بالرفاه الأمريكي واقعاً ويشتمه نظرياً في كتبه ومحاضراته.

أدركنا كأصدقاء مخلصين لبعضنا أنّ الآتي وما مطلوب منّا فيه هو أهمّ من الانشغال بتلك الدواعي غير المسؤولين عنها، لذلك اتفقنا جميعاً على أن تكون مهمتنا كلّنا في هـذه المرحلة الحرجة والحساسة هي حفظ النفس وأمنها وسلامها من أي زلل أو خطأ يودي بالمرء وبمصيره إلى هاوية ننتظر أن يخرج البلد منها بأقل ما يمكن من الخسائر، وربما كانت تلك قناعة غالبيّة العراقيّين الذين انكفأوا في بيوتهم أو في المدن التي تحوّلوا إليها (بالنسبة للبغداديّين) تفادياً لأضرار الحرب، هذه الحرب التي انتشرت وشاهدوها تتحرك بين أزقّتهم وشوارعهم وفي مدارسهم حتّى قبل أن تبدأ، وذلك حين توزّعت قطعات الجيش، ومعها سيّارات ودوريّات ومرابطات الأجهزة الأمنيّة كلّها، في الأحياء السكنيّة. كان هذا مظهراً صارخاً لتحوّطات السلطة من انفجار شعبي يترافق مع انفجار الحرب. كانت الناس في ضوء تجربة ١٩٩١ تعرف بهـذا وتقبل بما تشيعه السلطة من أنّ مهمة هذه النقاط الأمنيّة المنتشرة والخنادق التي تُحفر في الأحياء السكنية وسواتر أكياس الرمل المنصوبة في مواجهة البيوت هي لغرض التصدّي لإنزالات جوية محتملة.

فكّرت، فيما عيناي معصوبتان وتقابلان جداراً لا تفصلني عنه سوى سنتمترات محدودة اضطر معها بين حين وآخر إلى إرخاء

جبهتي عليه بانتظار إيذان المحقق ببدء التحقيق، فكّرت: ماذا سيقول الأصدقاء عن اعتقالي؟ هل كنت أخدعهم وأضلّلهم وأنا أكرّر التوصية للجميع بتحاشي أيّ كلام أو تصرّف مخطوء وغير محسوب؟ متأكد تماماً مـن ثقتهم بي وأثق أكثر بذكائهم الـذي سيمنعهم عن مثل هذا التفكير بتضليلي إيّاهـم، لكنني، الآن في الحبس، في وحدتي القاتلة هنـا لا أقوى على منع هواجسـي وتصوّراتي ومخاوفي من التضارب والتصـادم بشتّـى الاتجاهات. تدرّبت كثيـراً على أن أكـون وحيداً وأستمتع بوحدتـي، لكن الشعور بالوحدة هنا فظيع وقاسٍ. لا يعرف النقيـب حميد أيّة وحـدة أو عزلة تكون صالحـة لإنتاج الشعر الذي لـم يخطر على بالي هنا، شككت بما يروى عـن أن شعراء في العالم كانـوا يكتبون وهم في الحبس، إمـا أن تكون هذه ادعاءات موهومة أو أن السجـون لم تكن سجوناً ببشاعة وطغيان السجن الذي أنا فيه. انـا وحـدي، ومطالَب مع نفسـي أن أفكر عنّي بأشدّ مـا تكون عليه الواقعيـة، وأفكّر بماذا يفكّر أصدقائي، وأفكّـر بما أتوقّع أن تفكّر به عائلتـي حاليـاً، وبما يجب أن تفكّر به، وأفكّر فـي اتجاه آخر، بماذا يفكـر محقّقٌ منشغل عنّي بأخبار (الجزيـرة) وبما يضاعف من قلقي وهواجسـي ممّا سيحدث حين يُنادَى عليَّ، أنـا الرقم ١٦ (ينبغي أن لا أخـذل الحارس هذه المرّة)، فـي أوّل جلسة تحقيق ليليّة بعد تلك الجلسـات المباشرة النهاريّة المتعاقبة مع النقيب حميد ومدير القسم الذي بقيت حتّى الآن، بعد هذه السنوات، أجهل اسمه ورتبته.

لقد كنت رجلاً ممزقاً بما كنت عليه من قلق ومخاوف وهواجس لابـدّ من ترويضها من أجل أمل مـا، لم يكن أمامي سوى أن أتماسك وسط دوّامة لا تهدأ من تفكير ومشاعر وأحاسيس ومفاجآت عاصفة ورغبة في أن يكون لي أمل ما.

(٧)

دخلتُ معصوباً ومقيَّداً بخرقتين مقتطعتين من بيجامة تالفة، كانت حتماً لسجين سابق لا أعرفه، ولا أعرف المصير الذي انتهى إليه. سخرت مني بصمت حين كان الحارس يعصبني ويقيّدني بالخرقتين، فقد نظرت إلى بيجامتي، وتخيّلت أنها قد تتحوّل يوماً إلى خِرق، تُعصَب بها عيون سجناء تالين وتُقيّد أيديهم، ولكن لا أدري كيف أتت الحرب في هذه اللحظة السوداء فحضرت في بالي على أنّها ستتكفّل بإطلاق سراحي وإغلاق السجون واعفاء بيجامتي من أن تتحوّل إلى عصابة وقيود. احتقرت سذاجة تفاؤلي، في تلك اللحظة وفي ذلك الموقف، بأن الحرب الواقفة على أبواب البلد لن تبقي، إذا ما اندلعت، على البيجامة ولا على السجن والسجان والقيود، ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل.

الخطوات التي قطعتها داخل الغرفة، قبل أن يأمرني الحارس بالجلوس على كرسي، فهمت منها أنّني في مكتب كبير، عرفت في ما بعد أنه مكتب مدير عام سجن (الحاكميّة) وأن الرجل الذي كان أمامي وسيقود التحقيق هو المقدّم إبراهِيم (لا أذكر اسمه بالضبط) رئيس المحققين في المخابرات.

بدأ التحقيق بالأسئلة التقليديّة عن إسمي وعمري ومهنتي وسكني وحالتي الزوجية وأخوتي وأصدقائي والدول التي زرتها (لم أزر حينها، وقد تجاوز عمري الأربعين سوى عمّان لثلاث مرّات، ودمشق مرّة واحدة). بادرني بسؤال، فهمت مغزاه

واضطررت معه على المراوغة أوّلاً ثمّ الكذب ثانياً، حين قال لي:

- أنت من النجف؟

- لا، من بغداد. (هنا راوغت).

- لا تصير غبي، أعرف سكنك بغداد، مسقط رأسك اقصد.

- البصرة.. (هنا كذّبت، حيث مسقط رأسي العمارة التي خشيت ذكرها).

- ماذا في الرسالة؟ لا تدوّخني وتقول لم أتسلّم رسالة!

- ولكنْ فعلاً لم أتسلّم أية رسالة.

- بدأتَ بأكل الخراء..

- ....

- سأسألك سؤالاً، وإن أجبتَ بما يقنعني، فبشرفي سأطلق سراحك فوراً.

- أشكرك، تفضل.

- تأدّب ولا تشكرني، جاوبني من دون لغو.. أنا أعرف أنّك غير متورّط مع هذا الكلب الذي باع كل شيء لكن لماذا تصرّ على أنّك لم تتلق رسالته، وأنا متأكّد من تلقّيك إيّاها، أجبني واخرج.

- صدّقني الآن أتمنّى لو كنت قد تلقّيت الرسالة فعلاً. صدّقني لا رسالة. ليس أكثر من تحيّات نقلها لي هذا الشاب وانصرف.

قاطعني بانفعال:

- شوف، هذا الحذاء سأضعه بفمك بالعرض.. أتراه؟

- لا، كما ترى فأنا معصوب العينين.

ضحــك، وسمعت مــع ضحكته ضحــكات آخريــن كانوا على جانبيَّ وورائي، ثم قال لي وما زال يضحك:

– طلبتَ حقك.

نــادى على الحارســ أن يزيح الخرقة عن عينــي، أزاحها. أخذت نظــرة خاطفة على أولئــك المحيطين بي؛ كان عددهــم ليس أقل من عشــرة ضبّاط شبان وليسوا أكثر من خمسة عشر، يبدو أنهم يتدرّبون علــى التحقيق، وكنت عيِّنتَهم التحقيقيّة. ثــم بقيت أحدّق في عينيه، ناسيــاً الحــذاء وموضوعه. اهتــاج المقدم فجاةً، ونهضــ، همّ بخلع الحذاء ثم تراجع وصفعني.

أنهى التحقيق وطلب من الحارس أخذي، فيما ظل يصرخ بوجوه الضبّاط الشبّان، وكأنّه يعلّل لهم سبب إيقاف التحقيق:

– ابــن الكلــب! أقول له انظــر للحذاء فينظر فــي وجهي. أعرف هؤلاء.. كانوا معي في الإعدادية، أعرف كم هم سفلة!

.....

وقف الضبّاط صامتين. لم أعرف على أيّ (سفلة) حسبني المقدم. سحلني الحارس بعنف، أخرجني من غرفة مدير عام السجن، لم يترك شتيمــة مقذعة لم يستخدمها في أثنــاء اجتيازنا الممر، حيث نسي أن يعصب عيني فيما يداي ما زالتا مقيدتين..((سافل، نريد أن ننام..)).

رمى بي في غرفة، فتلقّفني منه اثنان.. وكان التعذيب.

(٨)

كثيراً ما بقيت لا أفضّل جانباً مزعجاً في أدب السجون؛ لم أجد مبرّراً لتفنّن المؤلّفين في وصف الفظاعات التي تحكم أقبية السجون والمعتقلات والزنازين، كان هذا التفنّن يبدو لدى كثير من المؤلّفين، وهم يصفون وحشية الاعتداء على الإنسان، جسداً وكرامةً وحياةً، وكأنه شكل من مازوشية تستعيد، بسعادة داخلية (حتماً غير مقصودة)، آلامها من أجل تمسّكها بنبل قضيتها أو أي شيء آخر.

التبرير الأخلاقي الذي يُساق مباشرةً في الدفاع عن ذلك التفنّن الأدبي سيكون هو العبرة الإنسانية التي تستفيد منها البشرية في صراعها ضدّ الشرّ وجريمة انتهاك حريّة الإنسان وكرامته وحياته. لكن هذا التسويغ الأخلاقي لا يصمد حين نتأمّل في تاريخ التعذيب وفي شراهة استخدامه وتطويره، كما لا يصمد، أخلاقياً هذه المرّة، عندما يكون الأدب متبرّعاً، من حيث لا يدري حتماً، بتقديم الخبرات المنحطّة وحفظ أشكالها البشعة لمن يحتاج من القساة إليها، بحيث ما زال يُعاد إنتاج تلك الخبرات وتعاد ممارستها حتى بعد قرون.

نعم، ربما لا يحتاج عمليّاً ذوو النفوس المجبولة على العنف والشرّ والإيذاء إلى مثل هذه الخبرات، وهم ليسوا في حاجة إلى أن يلتمسوا من الأدب الوسائلَ التي تفيدهم في كيفية الإيقاع بالآخرين من خصومهم ومعارضيهم، لكن حتّى هذا لا يخفّف من العبء النفسي الذي أفترضُ أن الأدب يمكن أن يرزح تحت وطأته وهو

يختـزن عبر نصوصـه ومدوناته كلَّ تلك القسـوة المحطِّمة للكرامة الإنسانية.

بمـاذا سيجـري التبرير لـو أنّ هذا المخـزون الأدبـي أدّى دوراً مقلوبـاً، وأسهم في تَحطُّم إرادةِ الاحتجـاج على الشر لدى كثيرين، خشيةً من النتائج الوخيمة المحتملة، كما يقرؤونها في كتب الأدب، ومعها كتب التاريخ، وما يزحف منهما ويتسلل، من الأدب والتاريخ، إلـى الفنون؟ ألا يؤدّي هذا إلـى الامتثال لإرادة البطش وإشهار قوّة القمع وجدارتـه في إذلال مَن يستهدفهم؟ لقد كان واحداً من مبادئ التعذيـب والعقاب في تاريخنا هو الإيقاع بالبريء ليتّعظ آخرون يُراد لهم أن يتّعظوا ويخافوا.

قدّم لنا هذا التاريخ أصنافاً من البشاعات، لا أريد التورّط بذكرها، ومثـل هذه البشاعـات وجدتْ مَن يستعيـد لذّة القيام بهـا في ذروة سنوات العنف في العراق بعد ٢٠٠٣ ضدّ المختَطفين وضدّ مواطنين جـرى قتلهم والتمثيـل بأجسادهم بعـد تعذيبهم. لقد بقـي التاريخ، بجانبه الوسخ، دائماً ينهض بتلك البشاعات ويكرّر صورها بين حين وآخر هنا أو هناك.

لعلّ واحدة مـن مشكلات السلوك السياسي التـي بقيت كثيراً ما تتكـرّر هي مشكلة مواصلة دورة التعذيـب والقهرَ، هذه الدورة التي يتشبّه مـن خلالها الضحيـةُ بالجلاد، حين يتحوّل هـذا الضحية إلى موقع السلطة وتنكيله بخصومـه وأعدائه السابقين والجدد، مستعيداً صور تعذيبه على أيـدي سجّانيه فيعيد انتاجها، خصوصاً حين يعتمد ذلك الضحية القديم على سجّانين وجلّادين هم من مخلّفات خصومه السابقين، إنه تاريخ يكون معه الإفراط في القسوة والتعذيب والتنكيل

جزءاً من طبيعة السلطة يجري التواطؤ على التسليم به كوسيلة لا بد منها لحفظ (النظام)، ومن مفارقات العربية أن كلمة نظام في قاموس التداول المعاصر تعني السلطة وهي تعني الاستقرار، ليقترن الاستقرار بالسلطة.. لقد كان من أبرز احتجاجات العباسيين مثلاً على الأمويين هو سَوم هؤلاء الأمويين الناسَ سوءَ العذاب، وكان أبشع هذا العذاب الأموي من حصة العراقيين الذين وُلّي عليهم رجلٌ يعاني عقدة الأصل، فأتيح له أن يفرّغ عُقَدَه ونزعاته الإجراميّة الباطنيّة، للثأر من الآخرين، ببشاعات وأهوال ما زالت الناس تستعيد ذكرياتها المؤلمة، ومن هنا وجد العباسيون فرصتهم في الظلم الأموي الواقع على العراقيين لاستثماره ضد خلافة الشام، لكنّ المعارضة العباسية التي أمسكت بالسلطة عادت فتشبّهت بالأمويين، وزادت عليهم بما ابتكرته الحاشية الأمنيّة للخلفاء من وسائل قتل وإرهاب جديدة ضد المعارضة الجديدة، إضافة إلى المخزون الأموي من وسائل وأساليب.

هذا الحال الذي يُعيد بموجبه الضحيّةُ دَورَ جلّاده السابق يجعلنا نشكك بجدوى الدافع الأخلاقي الذي يمكن أن يبرّر لنا جهد الأدب والتاريخ في حفظ طرق التعذيب ووسائله والتلذّذ الخفي في رواياتها، في القليل هي توفر غطاءً نفسياً تتبرّر معه للطغاة قسوتهم في حياة كثيراً ما تعود إلى التاريخ والسلف لتلتمس منهما شرعيتها حتى في النعف الذي تمارسه.

الكثير من تلك الكتب لم أستطع، نفسياً، التواصل معها لإتمامها. حدث هذا مع الموسوعة المهمة لمؤلفها عبود الشالجي عن العذاب، ومع كتاب هادي العلوي عن تاريخ التعذيب في الإسلام،

ومع كتب أخرى كنت أركّز فيها على قيمتها الفكرية والتاريخية فيما كنت أتجاوز صفحات طويلة، يجري فيها وصف مظاهر التعذيب ونتائجه، وأتحاشى الدخول في تفاصيل القبح والرعب الذي يجعل المرءَ يجدّف على هذا الوجه المعتم، ليس في تاريخنا حسب، وإنما أيضا في تواريخ كل المجتمعات. ولعل القيمة الفكرية المبهرة لميشيل فوكو في (المراقبة والعقاب)، وهو يفحص سلطة الحبس والتعذيب في أوربا القرون الوسطى، أوربا ما قبل الحداثة، وتنمية تلك السلطة في أوربا الحديثة، لعلّ هذا الجهد الفكري يوفّر عزاءً لقارئ مثلي قَرِف من الإصغاء لفظاعة امتهان كرامة الإنسان التي أضطرُّ إلى تجاوز استشهاداتها في الكتاب ما أتيح لي ذلك.

قبل عام من الآن كنت قد وضعتُ على صفحتي في فيسبوك صورةً بعث بها إليَّ صديقي الشاعر جمال جمعة، وكان قد صوّرها في مهرجان شعبي للمهن القديمة المنقرضة أقيم في مدينةٍ ليتوانيّة؛ تركّز الصورة على مهنة الجلاد، بوصفها مهنة اختفت مع تطور الحياة وتطور أنظمة العقاب وظهور لوائح وتشريعات وقوانين تُعلي من كرامة الإنسان وتحفظ له حقّه في جسده ووجوده المعنوي، يظهر في الصورة نموذج الجلاد بشكل كاريكاتيري، وتتبرع فتاة جميلة من جمهور المهرجان لتأخذ دور الضحية الواقع عليها العقاب، فتتحوّل العقوبة الأشد فظاعة في تاريخ أوربا وتواريخ أمم القارّات الأخرى إلى مجال للتندُّر والسخرية، بل إلى مجال للمتعة، متعة الحاضر الحر الذي لا يستطيع تخيّل بشاعات الماضي إلّا على أنها مسخرة بشرية.

يبدأ عندي التعذيب وامتهان الكرامة الإنسانية من لحظة داخلية، من تلك اللحظة التي يقرر فيها امرؤ ما أو أية سلطة ممارسةَ الإذلال وتحقير الآخر وسحق كرامته، هذه اللحظة التي يخوّل فيها المرء أو السلطة نفسه حقّاً لا يمتلكه ولا تمتلكه أيّة سلطة على الأرض، يبدأ الاعتداء من هذه اللحظة ويجري التعبير عنه عملياً ليس بالضرورة بالإيلام الجسدي، الذي هو الصيغة النهائية لانفلات نزعة الإيذاء والعدوان، وإنما بأشكال رمزيّة وتعبيريّة وحتى عملية، سواء بطريقة النظر، أو بإشارات اليد، أو زمّ الشفاه وتقطيب الحاجبين، أو حتى بالإهمال والاحتقار الذي يمكن أن يُعبَّر عنه بأكثر من وسيلة غير مباشرة.

في السجن، يجري استخدام كل هذه الأساليب (السلمية) في إيذاء المعتقلين على أنه حقّ مكتسَب لأفراد سلطة السجن ضد السجناء، وعلى أنه الشكل الأكثر تكرّماً الذي يعبّر فيه السجّانون عن تسامحهم وتساهلهم، ولو إلى حين، في عدم استخدام حقهم المشرع في لتعذيب الجسدي..

بعد ساعتين من التعذيب، قال لي أحد الاثنين اللذين تكفّلا بتعذيبي وهو يفتح قنينة ماء ليروي ضمأن، وقد بدا عليه الارهاق:

- لست وحدك من تعذبت؛ ها نحن مثلك متعبان مرهقان، فرصة طيبة لنا لنوم عميق!

لم أقوَ على النهوض لكنّ البقاء ثمنه أتعس. نهضت متعثراً، تمكّن الحارس من عصب عينيَّ، ولم يقوَ، بفعل شدة الألم، على ثني ذراعيَّ للخلف لتقييدهما فقيّدهما، متفضّلاً، إلى الأمام.

سرنا، هو صامت يتثاءب، وأنا يختلط عندي الأنين بكلام لا

أقصـــده ولا أفهمه. وحيــن فتح باب الزنزانة أومأ لــي بيده، مشيراً على طبق بلاستيكي على أرض الزنزانة لم أتبينه بوضوح:

– تعشّ ونم! أنت لم تذق طعامنا بعد. لم يكن بيننا زاد وملح، لذلك ربّما كان الجماعة قاسين معك، أبرئهم الذمة.

– ....

(٩)

كان لا بدّ لي من نكران الرسالة.

لم أشكّ لحظةً بجدوى اختياري التزام جانب النكران. لا أدري ا إذا كان نكراني مقنعاً، برغم ما كنت عليه من دقة في اختيار طريقة الاعتراف باستقبالي الشاب الكردي في مكتبي، طريقة بدوت معها ما لو أني اعترفت من دون إكراه ومن دون إحراجي بمعلومات ون معها ملزماً بالاعتراف. استفدت من نصف الساعة التي بقيت اور لكسبها من أجل تنظيم صياغة نهائية لإفادتي تتوفر على إقناع د يكون في المآل الأخير مقبولاً ولكن كنت أدرك أنه، من أجل لوغ هذا القبول، لا بدَّ من تحمُّل كثيرٍ توقّعت أني سأواجهه، فيما ستكون النتائج مدمّرة إن فشلت في المضي بنكراني أو تسويغه.

قلت: سأعترف باستقبالي الشاب، وسأنكر الرسالة.

لقد توقعت أنّ المعاناة التي سأواجهها، في حال اعترافي الرسالة، ستكون أشدّ من هذه التي واجهتها في هذا اليوم الأوّل، ما قد سأواجهه في الأيّام التالية، التحقيق في ما إذا تسلمت الرسالة ام لا هو بالتأكيد أخف وطأة من التحقيق في معرفة مضمون الرسالة.

كرهت منظر الطعام الذي أمامي. رفعت قطعتَي الخبز اللتين كانتا م ماعون الحساء وحفظتهما في طرف من تلافيف البطانية، لم أقوَ لى النهوض لرمي الحساء في سيفونة التواليت بعدما ضقت ذرعاً منظره أمامي، فأبعدت الماعون عن عيني.

بقيــت أستعيــد مفاجــأة وقعــتُ عليها فــي غرفة التعذيــب؛ لقد رأيــت هناك الرجلين المتّهمين معــي بالقضية ذاتها، رأيتهما في ذلك المكان، وتذكّرت ما قالــه عنهما مدير القسم في أثناء التحقيق معي. عرفــت أن رقمَي العميد من المدائن والشــاب من الفلوجة المتَّهمَين معي همــا (١١) و(١٢). شخّصت العميد من فــارق السن أولاً بينه وبيــن زميله الشاب، الذي أشار الجلاد إلى سكنه في الفلوجة وكيفية تعرفه على مهندس من بعقوبة وضابط من المدائن وهي المعلومة التي حسمــت ثانياً تعرّفي على شخصية العميد. لقــد فهمتُ من رقمَيهما أنّهما اعتُقلا قبلي بوقت قصير، ربما في اليوم الذي كان قد اعتُقِل فيه صبــاح محسن المدير الفني للجريــدة، وهو يوم الخميس الذي سبق سبت اعتقالــي، فهمت أيضاً من تتالي الرقميــن أنهما اعتقلا بتوقيت واحد. لقــد كانا معي في التعذيب، وكان واضحاً أيضاً أن كلاًّ منهما لا يعرف الآخر، وبالتأكيد كلاهما لا يعرفانني. وكان مبرر تعذيبهما، وقــد اعترف كلاهما بتلقّيهمــا الرسائلَ، كما فهمــت من صراخهما أثناء التعذيــب، هو أين الرسائل، وماذا كُتب فيها، ومن عرف معكما بأمرها، ولماذا لم تسلّماها للجهات الحكومية حين وصولها إليكما.

كانــت إذاً مصادفــةً (سعيــدة) أن ينفعــل المقدم إبراهيــم، ويثأر لكرامة وجهه، وينهي التحقيق، لأتحوّل إلى التعذيب بهذه المصادفة الانفعاليــة التي لم يُحسَــب معها لقائي بزميليَّ فــي التهمة، وهو لقاء مستحيل الحــدوث في ضوء ضوابط العمل فــي ((الحاكمية))، وما وفّــره هــذا اللقاء الثمين لي مــن اطمئنان وإصرار علــى خيارِ صوابي بنكــران الرسالــة. لقــد بــتّ بعد تلــك المشاهــدة أخشــى الانهيار والاعتراف بالرسالة وما سيجر إليه مثل هذا الاعتراف من مشكلات.

فـي غمرة معاناتهما، وبعد أن أخـذتُ حصة من الوقت المكرّس لتعذيبهمـا وشاركتهمـا في تلـك المعاناة، صار واضحـاً لهما، كما يبدو، ومن سياق كلام الحارس والجلادَين معي أنّي أشاركهما التهمة نفسهـا، وأن فارقي عـن حالهما هو نكراني للرسالـة. كان الرجلان ينظـران إلـيَّ كلّما أتيـح لهما ولي ذلـك، وكأنهمـا يشجعانني على مواصلة نكران الرسالة التـي سيكون الاعتراف بها مجلبةً لأذى أشد ونتائج أخرى غير محسوبة حتى الآن.

لا أدري كم من وقـت مضى على وجودهما قبلي تحت التعذيب قبـل أن يتوقـف أحد الجلادَيـن فجـأةً، ويوقف زميله عـن مواصلة تعذيبهمـا، ويدفع بهمـا إلى خارج الغرفـة بعدما تنبّـه، كما خمّنتُ ذلك، إلى أننا الثلاثة موقوفون على ذمة التحقيق في القضية ذاتها، ولا يجوز مطلقاً لقاؤنا حتى تحـت التعذيب. كان انفعال المقدم مجدياً لـي فعلاً، ولكنه كان أكثر جدوى لزميلـيَّ اللذين تحرّرا من التعذيب فتركاني وحدي له، بينما بقـي وجودهما معاً في التعذيب يشكّل لي حتّى الساعة لغزاً محيراً، كيف جرى جمعهما معاً؟

في هذا الجيش العراقي الذي شغل المنطقة والعالم، على مدى أكثر مـن عقد، في أطول حرب مجنونة، زُجَّ بها مـع إيران، قبل أن يجهز عليـه التحالـف الدولي الضخم في حرب الكويـت، في هذا الجيش الذي يُعـذَّب أحد كبار ضباطـه أمامي، وبأمر من مقـدم مخابرات، هـو أدنى منه برتبتين، في هذا الجيـش يكون منصب العميد عادةً هو قائـد فرقة، أو بين ضباط ركن أحـد الفيالق السبعة التي شكلت كامل قـوام الجيش في حربه مع إيران في الثمانينيات. لقد وصل صدام إلى السلطـة عـام ١٩٦٨ بجهد دبابات محدودة مـن كتيبة من الجيش،

وقبلـه أسقـط الضباط الأحـرار النظـام الملكي عـام ١٩٥٨ بجها لـواء، لكن العسكرية تُمتَهـن الآن أمامي، في غرفة تعذيب حقيرة في (الحاكميّـة)، لا يكتفي الجلّاد بالتعذيب الـذي يتفنّن به مع العميد، وإنمـا يسخّر فظاظته ليعمد أيضاً إلـى السخرية من رتبة الرجل الذي يتلـوى ويصرخ ويتوسل، وليجعـل من الرتبة مناسبـة مضافة لإذلاله والحطّ من قـدره، مثلما يحصل معي في التعامل مع صفتي الصحفية والأدبيـة. لم اتفاجأ بهذه الإهانة التـي انتهت إليها العسكريّة في هذا السجـن، فلقـد داستها، قبل هـذا، أخلاقُ وظـروف الحرب وسوء استخـدام الجيش الذي أُجهز على كرامتـه ومهنيته بتوريطه بقيادات حزبيّـة، لا صلة لها بالعسكريـة، ولا بعلومها، ولا حتى بالسياسة. لا أدري كيف فكّر صدام بالحرب وبإمكانية بقائه في السلطة والخروج من هـذه الحرب منتصراً وهذا هو حـال الجيش، عميد يزحف على الأرض كي يقبّل حذاء جلاده طلباً للرحمة.

كنت مـا أزال أواصل أنيناً، أسعى إلـى التكتّم عليه، حين سمعت جَلبة في الممـر، ترافقت معها الحركة الصاخبة لمفاتيح الزنازين بيد الحارس. الوقت الآن، كما خمّنته في ليلتي الأولى هذه في الحبس، هـو منتصف الليل. سمعت صوتاً خفيضـاً لسيدة، صوتاً توقّفت معه كل آلامي، وركّزتُ كلّي من أجل الاستماع إلى الصوت، سيدة جيء بها في منتصف الليل.

فتح الحارس باب زنزانة، سمعته يقول للسجينة الجديدة:

– صباحـاً تتسلميـن بطانيتين وملابس السجـن. نامي بلا صياح وازعاج.

– ....

[illegible] ذ السيّدة بشيء. نام الحارس، لم أنـم، ولم تنم السيدة التي
[illegible] مس الصباح أسمع لها نشيجاً، كانت تسعى للتكتم عليه، مثلما
[illegible] كتم على أنيني.

(١٠)

كانت النساء هـنّ الأكثر تضرّراً في العراق في ظروف الحصار، وما سبقها، وما تلاها من حروب.

أدخـل يوميّاً إلى جريـدة الجمهوريّة، أقابل كثيـراً من السيّدات والفتيات اللائي تتوارى نضارة أجسادهن مع مرور الوقت واشتداد ضائقـة الحصـار والجوع والحرمـان من أدنى مستلزمـات الحياة الإنسانيـة. أصـادف مثـل هـذا الحال ليـس في الجريـدة وحدها وإنمـا في الأماكن كلها، في البيـت والمدارس والشوارع والدوائر الحكومية والمستشفيات.

لكـن مشكلة الزواج بقيت هـي الأكثر مدعاةً للألـم، ولتمزّقي شخصيـاً، كلّما فكرت بهذه الحياة التـي تنفرط، وبالمستقبل الذي يعتـم، وبالأرواح، أرواح النساء، وهي تختزن كل هذا الألم ومعاناة الحاجـة، حاجات الروح والحياة والجسـد الذي يضمر، ويتوارى في نفايات سنوات تمضي بينما كل شيء ثابت على حطامه لا يرين.

قبـل أن تضمحـلّ الحياة العامـة، وتنكفئ في زوايـا محدودة، وفي البيوت والمناسبات الاجتماعيـة، كانت تلكَ الحياة العامة قد أقفرت، وهي تُقفَل شيئاً فشيئاً بوجوه النساء. لقد ذبلت الأنوثة ومع هذا الذبول تخشبت ذكورة المجتمع، وتصلّبت روحه التي أخذت تضيق وتتوارى.

كتبـت في سنوات الحصار، في انتصـاف التسعينيات، قصيدتي

(هذا خبز) وكانت المرأة بطلتها المسحوقة والمتفجرة بحزنها وغيظها على رجل، يريد أن يُعترَف به سيّداً، من دون أن يمتلك من إمكانات السيادة شيئاً.

الكل يتساوون في الانسحاق الوطني العام؛ الرجال والنساء والأطفال والشيوخ، لكن المرأة هي وحدها التي كان عليها أن تتحمل وزر انسحاق الجميع.

جاهدت في العمل الصحفي من أجل أن تبقى الشاعرة حذام قاسم، المحرّرة معي في القسم الثقافي، تحصل على راتبها الشهري الضئيل مع السماح لها بالتفرغ لدراستها العليا في الجامعة في ظروف بالغة السوء، نجحت في ذلك لأشهر حتى امتنعت هي عن تسلّم الراتب.

حدث هذا أيضاً مع الناقد يوسف نمر ذياب الذي كان يعيش، قبل وفاته، على تقاعده الضئيل وعلى ما يرده من مكافآت الجريدة شهرياً مقابل موضوعات يكتبها للصفحة الثقافية. كانت الأمراض في سنواته الأخيرة، كما بدا لي، تنهش كلّ شيء فيه، فكان لي أن أتلقى منه مقالات منشورة يكرّر إرسالها للجريدة، حتماً من دون أن ينتبه هو إلى ذلك، وكان عليَّ أن أتصرف بما يحفظ المهنة، ويحفظ عيش الرجل الذي لم ألتقِ به، ولم تكن لي معه أية علاقة أو معرفة مباشرة، غير المعرفة الثقافية العامة؛ تحدثت مع رئيس التحرير، ورجوته من أجل مواصلة دفع المكافأة الشهرية له من دون نشر الموضوعات، فوافقني الرجل، واستمرّ الأمر لعامين، حيث بلغت الناقدَ الشيخ حقيقةُ الموضوع، فانقطع عن مراجعة الحسابات وتسلّم المبلغ الشهري، ولم أعرف شيئاً عنه حتى وفاته بعد أشهر.

كانت هذه حلـولاً شخصية فرديّة تصادف مَـن يعمل من أجلها هنا وهناك، لكنّ المشكلة باتت عامةً، وأكبر من أن يسدَّها مثل هذا الترقيع..

كان أفظع مـا شاهدت، وأنا في طريقي الـى الجريدة في صباح يـوم شتـوي عام ١٩٩٦، هو منظـر رجل واقف فـي محطّة انتظار باصـ النقل العـام مقابل مدينة الطب والقريب مـن مكتبة الأوقاف العامـة، وكان بين يديه طفله الـذي يريد الأب أن يوصله إلى البيت، إلى أمه، خارجاً به من المستشفى. لقد كان الهول صاعقاً حين تبيّن أن الطفل المحمول بين ذراعي أبيه هو طفل ميت.

أب يحمـل طفله، ميتـاً، وينتظر باص النقل العـام. ليس لديه ما يستطيـع به دفع أجـرة تاكسي، فبقـي ينتظر باصـاً كان من المعتاد أن يتأخـر بحدود الساعة قبل أن ينطلق مزدحمـاً بعشرات الراكبين الفقراء.

لم يكن في جيبي ما يسمح لي بأجرة تاكسي يمكن أن أساعد بها الرجـل في هذه اللحظة التي اختصرت عبثَ أنْ تحيا في بلد يمتلك تحت ترابه أكبر خزين استراتيجي نفطي في العالم.

وصلت إلى الجريدة وبدأت بكتابة سلسلة قصائد نشرت بعد أيام بعنوان (الملائكة على شرفات مستشفى الأطفال)؛ أنجزت في ذلك الصبـاح ثلاثاً منها، وواصلت على مدى أربعـة أيام في البيت إتمام القصائـد التي كان يجمعها عنوان واحد هو (الملائكة على شرفات مستشفـى صدام)، ومستشفى صدام هـو مستشفى مركزي للطفل فـي حي الإسكان ببغداد، لكن نصيحةً من الصديق خالد جمعة هي التـي غيرت العنوان إلى ما هو عليـه عند النشر.. كان الرجل وطفله

الميت حاضرَين في بالي وأنا أكتب هذ القصائد متمثلاً بيت الشاعر العراقي الكوفي أبي الطيب المتنبي: (لا خيلَ عندك تهديها ولا مال.. فليسعد القول إن لم تسعد الحال).

اكتشفت، بعد أن أنجزت هذه القصائد التي كُرّست كلُّها عن موت الأطفال، أن المرأة عادت لتكون هي سيّدة الأحزان والآلام في معظم هذه النصوص التي لامست قلوبَ كثيرين حيثما قرأتُها.

لقد بقي الأدب الشفاهي للنساء الريفيات يختزن الكثير من صيغ التعبير عن هذه الآلام التي تريد بها المرأة أخذ دور المخلّص الأرضي من فواجع ظلَّ العراقيون دائماً على مرّ العصور والحقب ضحية معاناتها. وكان لذلك الأدب أن يتّشح دائما بتأوهات وحسرات وبكاء ونشيج تتكابر النفوس لتمنعه من الظهور على محياها، فيتسرب بين ثنايا الأدب، والغناء، وندب النساء للموتى، ودارميات البنات في الحب، وترديدات الأمهات لأطفالهن، حيث سمعت أولى الأشعار وأحببتها بصوت أمّي المبتل دائماً بدموعها والساخن بحرارة آلامها(لولا الحيا (الحياء)، ولولا الممات.. ولولا حجايا (حكايا) المسعدات.. جا طرت ويّة الصافات!!). هذا أول ما حفظته منها، ولا أدري ما إذا كان هذا من نظمها العفوي أم حفظتْه عن أخرى غيرها مجهولة. ولكن، في هذا السجن، لن يكون ثمة خوف من موت أو حياء لو توفرت فرصة الطيران مع الصافات.

انقطع نشيج السيدة في الزنزانة القريبة مع نهوض صوت أجوف وقاسٍ يبلّغ السجناءَ بالتهيؤ لتسلُّم وجبة الإفطار. أحتاج الى الشاي الذي أدرأ به صداعاً محطّماً إذا ما تأخرت عن شربه صباحاً، فتح

الحارس نافـذة الزنزانة قبل أن يأتي الطبّـاخ ذو الصوت الأجوف، ليناولني بيضة مسلوقـةً وقطعة خبز، وأناوله الإناء متعدد الأغراض، فيملأه بشاي تبيَّن لي أنه مرٌّ عندما تناولته مباشرة.

كنت أرتشف الشاي مع الخبـز، رامياً البيضة جانباً، حين فُتِحت نافذة زنزانة أخرى، فسمعت السيّدة تقول بصوت خفيض:

- لا أريد.

- لا تستطيعين الامتناع، خذي، وراءَك نهارٌ طويل!

- قلت لك لا أريد.

- أنت مرغَمة أن تأخذي وإلا فتحتُ الباب!

- ....

بعـد أيام، قال لي الطباخ الذي هو نفسه مـوزّع الطعام، وهو من أصلف من صادفت في هـذا المكان، وكنت حينها في حالة اكتئاب حادة، رفضت معها الطعام:

- هـل يوجد أحـد يربّي كلابـاً ولا يطعمها، نحن نربـي كلاباً يا أستاذ.. خذ، خذ!

إذاً مثـل سـواه، يعتقـد هذا أننـا نأكل فـي بيت أبيه، هـو صورة مكـرّرة لآخرين هنا يحسب كل منهم من موقعه، مهما صغر، أنه هو المخابرات، وهو السلطة، وهو صدام، بمواجهة أي سجين أعزل من كل حق.. أضاف:

- أتعتقـد أننا نطعمكم رحمةً بكم؟ غلطان إن توهّمت هذا، نحن نحتاجكم الآن أحياء فلتأكلوا!

نعـم كان الطباخ يتحدث بضمير الجماعـة بوصفه السلطة، وهو نمـوذج ستصادف مثله كثيرين ممن ليس لهـم من السلطة سوى قوة التبجـح بها وبهذا الضمير الجماعي. لقد قـال الطباخ ذلك، كما لو كان يردّد محفوظة مدرسية.

مـا أكثر ما قال ذلـك إذاً من قبـلُ لسجناء، مرّوا بـه، ومضوا إلى مصائرهـم، وما زال هو صلفاً سعيداً بمكوثه فـي المكان الأسوأ في البلد.

(١١)

مـرّات، وأنا أسمع بلاهــة الضحكات في الممـر، أحسّ بتلك النشــوة المفرطـة التي يزهو بهــا الحارس جرّاء إمساكــه بالمفاتيح وتحريكهــا، لتُحدث تلك الجلجلة المدوية في فضاء صامت تتردّد فيــه أصــوات الصرير فتنهش القلــوب والهدوء وتقبضـ الأرواح. يتلمســ المفاتيــح، ويرجّها، وكأنــه يبلغ محبوسيــه: حريتكم في قبضتي، وحياتكــم رهن هذا الارتجاج الــذي تكرهون. أستغرب ولا أستطيــع أن أفهــم حيــاة السجّــان، تصاريــفَ يومــه، أشكالَ انفعالاتــه واستجاباتــه، كما أتعرّف عليها هنا فــي السجن، مملكةِ سلطته المطلقة، وما إذا كانت تتطابق مع ما هي عليه في البيت، بين الأسرة، وفــي الحياة العامة، بين الآخرين الذيــن لا سلطة له عليهم كهذه السلطة التــي يتمتّع بها هنا الحارس والطبّاخ والمنظّف حتى الجلاد والمحقّق ومدير السجن.

يذهــب المنطِق الاعتيادي إلى أن هــذا التطابق مستحيل. طبيعة المــكان والسلطــة الممنوحة تفرضــان نظاماً خاصاً مــن السلوك مقترناً بالمــكان والسلطة وهو غير النظام الطبيعــي المعتاد للبشر، وإلا ستكــون الحياة العادية مستحيلة بالنسبة لمدمني سلطة الحبس والسجون. نقرأ أحيانــاً قصصاً تظهر، وبخلاف المتوقّع، حيوات هــؤلاء، وقــد استحالــوا إلى ضحايــا مسحوقين ببطشــ سلطة ما، يؤثــرون الخضوع لها، ويتلــذّذون بهذا الخضــوع لتلك السلطة،

سلطة زوجة أو ابن أو عشيقة، أو أية سلطة أخرى تكتسب قوتها من ضعف متأصل في طبيعة شخصية هذا المستبد الصغير في السجن.

قرأت قبل أيام عن تجربة عالِم سلوك الحيوان ديزموند موريس في كتابه (حديقة الحيوان البشرية)، وفيه تفصيل مهم عن حياة المحبوسين وسجّانيهم، ولكن هذا التفصيل مأخوذ عن علم سلوك الحيوان وممارسة تجربة أخذ الحيوانات من الغابة ووضعها في قفص حديقة الحيوان ودراسة تأثير ذلك على السلوك الانفعالي للحيوان. قد تجد مقاربات معيّنة صحيحة إلى حدٍّ ما، بيد أن هذه المقاربات تبقى تصطدم بكوننا بشراً، ويصعب التطابق بين الحالين، حال سلوك حيوانات متوحّشة مع حال أفراد من البشر. دائما، في مثل هذه الحالات، تبقى مسافات كبيرة تملأها العاطفة الإنسانية ويكملها العقل الإنساني، وهذا ما ألاحظه بوضوح هنا، في السجن، في تباين سلوك الأفراد، المساجين منهم والحراس.

يتباين سلوك هؤلاء داخل السجن من فرد الى آخر؛ ففيما يجري تعطيل تام للعاطفة الإيجابية المتّجهة من فرد سجّان نحو محبوسيه، وتهيمن بدلاً عن تلك العاطفة الإيجابية عاطفةٌ أخرى سوداء تنتعش بالقسوة، وتتلذّذ بالإذلال، وتنتشي حتى بالاندحار الرمزي الذي يضطر المحبوس، ولو كذباً، ليقدّمه إلى السجّان، لإشباع تلك الرغبة الوحشية فيه وتأمين السيطرة المؤقتة على انفلات شرورها. في مقابل هذا، لا تعدم أن تصادف أفراداً آخرين، يتمتعون بكل مزايا سلطات زملائهم السجانين الطغاة، لكنهم يعبّرون، في ظرف ما، في موقف ما، عن يقظة، مهما بدت خفيفة، للجوهر الحي للعاطفة الإيجابيّة الإنسانيّة. مثل هؤلاء يمارسون أيضاً، مثل زملائهم أولئك، مهنتهم

بإتقان وحرص وشعور عالٍ بالمسؤولية، لكن هذه المسؤولية تترافق في كثير مـن الأحيان مع حيويـة الشعور بالمسؤوليـة الإنسانية التي تقـدّم نفسها عبر انفعال وتصرّف وكلام، تمرّ من خلاله العاطفة مثل نسمة تنعش الأمل الإنساني في هذا المكان القائم أساساً على فكرة دحر الأمل واجهاضه والانقطاع إلى اليأس من أية إمكانية للرجاء.

اختفى صباح اليوم، وبعد توزيـع وجبة الإفطار، صوتُ السجّان الأسمـر القاسـي. بقي الممر يبدو وكما لـو كان مهجوراً بلا جلجلة مفاتيـح ولا زلزلـة صوت يطلق أوامـره بسيل مـن الشتائم على هذا السجين، والسخرية مـن ذاك، وتوبيخ ثالث بأحطّ ما تكون عليه لغة التخاطـب بين البشر. رهبـة الصمت أقل فداحةً مـن سماجة صوت ذلك الأرعن.

تأكـدّت أن وجبته انتهت، وجـرى استبداله بحارس آخر سمعت صوتـه، بعد ساعة، هادئاً، حين استأذن السيّـدة الحبيسة ليفتح نافذة زنزانتها:

– نعم ماذا تريد؟

– صباح الخير يا خالة.

– وعليكم السلام، تفضّل؟

– هل أفطرتِ، علمتُ أنّك لم تكوني ترغبين بتناول افطارك؟

– صاحبك الذي كان قبلك لم يكن ابن عرب. حرام أن يقول إني رجل وعندي غيرة.

– خيراً..؟

– كان يفتح النافذة بلا استئذان وأنا امرأة حتى بلا فراش أو غطاء!

صمتت بانكسار واضح للحظات لم أسمع خلالها ردّاً من الحارس. كسرت الصمت واستأنفت :

– نعم شربت الشاي. وإذا لم آكل اليوم فسآكل غداً، اطمئن.

– أنا آسف جداً، ستأتيك البطانيات.

سمعت صوت مفاتيحه في قفل نافذة زنزانتي، ومن تخميني الوقت بين إغلاق نافذة زنزانة والشروع بفتح نافذة زنزانتي، توقّعت أن السيدة تقبع في الزنزانة المقابلة لزنزانتي. أطلّ الشابّ الحارس بابتسامة متردّدة:

– صباح الخير أستاذ، قيل لي أنك صحفي؟

– صباح النور أخي، نعم صحفي.

– ستكتب عنا إذاً لمّا يفرج الله عنك؟

– أكيد سأذكر حُسنَ تعاملك مع السيدة بخير إنْ أُتيح لي أن اكتب.

– الله يسهّل.

أغلق النافذة. فهمت أنه يتحسب من مواصلة الحديث معي، ويخشى من عدم قدرته على أن يكون إلا طيّباً وديعاً في مكان غالباً ما تُفهم فيه الطيبة والوداعة اللتان يبديهما حارسٌ إزاء سجين في غير موضعهما، وقد تتحوّلان إلى دافع شكّ بصاحبهما.

كانت السيدة أول الذين جرى استدعاؤهم للتحقيق في ثاني يوم لي في السجن، وهو أول صباح لي هنا.

سيكون صباحاً مزعجاً لعائلتي التي لا تعرف بالتأكيد ماذا تفعل في هذا الظرف، وهي تتلقى خبر حادثٍ مشؤوم وغامض؛ ما مصير

امتحانـات الأولاد؟ الخيار الأول للوالـد والوالدة وزوجتي سيكون حتمـاً التوجّه الى (بـاب الحوائج). أصدقائي، سهيـل ورعد وقاسم وعشـرات سواهـم أحببتهـم وأحبونـي، سيتلقّون الخبـر على حذر وخوف، انقطاعهم عـن بعض سيجعلهم في موضـع الريبة، توقعت أنهم سيتفـادون ذلك الانقطاع حتماً، سأكـون حاضراً معهم، حدثاً مأساويـاً، وسيعجـزون عن التوفّر على مبـرّر لاعتقالي، وعلى وسيلة لمساعدتـي، أصدقائي من أدبـاء ومثقّفين عراقيّيـن وعرب سيتلقّون الخبر اليـوم أو غداً، وسيحـارون في الطريقة المناسبـة لمساعدتي. أعتقـد، وأكاد أكون مطمئناً، أنّ معظم مثقفي العراق سيعنيهم أمري، ويقلقهـم مصيري، لا عداوات لـي تُذكر في الجريـدة التي ستواجه وجومها بصمت وحذر وخوف.

لكنّ الحرب على الأبواب.

وبرغـم مظاهـر النظـام الصـارم إلّا أنّ كلّ شـيء مرتبـك، وفي لحظـات الارتباك العامة والكبرى ستكـون المصائر الفردية في آخر دائرة الاهتمـام. كان هذا التفكير يضاعف المخـاوف؛ قبل اعتقالي بأربعة أيام جـرى وضع خطة طوارئ لعمل الجريدة، وكان لكل فرد بديلُهُ، العمل يجب أن يستمر، وانقطاع أو اختفاء فرد يجري تعويضه مباشـرة مـن دون التفكير إلّا بعمـل الغد. هذه هـيَ تعليمات الدولة التـي لا يكون معها الأفراد سوى صامولات في عجلة العمل اليومي. كانـت كلّ (أخطـاء) الحـرب الماضيـة، حرب الكويـت والهجوم الأمريكـي في ١٩٩١ موضع دراسة واهتمام لتفادي تلك (الأخطاء) التـي كان أبرزهـا انقطاع الناس وتمنّعهم علـى العمل، لكن الحلول التي توضع الآن لا تتعدّى كونها ضحكاً على ذقن سلطة يريد الجميع

أن تتــورّط، لتأتي الحــرب، ولتترك وحدها في أقــرب فرصة لانزواء الناســ وابتعادهــم عن رحى حــرب، يقتنع الجميع أنّهــا هذه المرة، بخلاف الحرب الماضية، لن تتوقّف من دون الإطاحة بسلطة صدام. لقــد جعلت هذه القناعة الجميع يتواطـؤون على القبول بالتعليمات، أيّــة تعليمات يتبجّح بها المسؤولــون. إنها تعليمات سيكون أول من يخرقها هــم المجتهدون من أجل تحريرهــا وتسويقها بهذه الطريقة التــي تنمّ عن روح عــداء وتَشكّك بالناس أكثر ممّــا هي روح شراكة وطنيــة وإنسانيــة في مواجهة حــرب محتملــة. كان واضحاً، ولكن بصمــت، أنّ السلطة، بمختلف حلقاتهــا الهرمية، تعرف بهذا اللعب المتبــادل بيــن الشعب وحكومتــه، بينما الشعب، هــو الآخر يعرف بذلك. تريد الحكومة أن توهم الشعب بأنّها تعوّل على إخلاصه لرمز العراق، فيما يريد الشعب أن يمرّر على الحكومة الخدعةَ بالاستعداد للتضحية من أجل ذلك الرمز. كان أوّل أوامر رئيس التحرير في ذلك الاجتماع الذي تقرّرت فيه تعليمات الطوارئ يتركّز في ضرورة التنبّه على أمن وسلامة قيادة الجريدة (المقصود هو رئيس التحرير نفسه)، وتبليغ الجميع بعدم إيقافه والتحدث معه في اثناء دخوله مبنى الجريدة وتجواله داخلها أو مغادرته لها، حتّى لا يلتبس الأمر بين عدو وصديق. بهــذه العقلية الشكّاكة، العقليّة التي تضــع الجميع موضع الاتهام في مقابل الذات المنزّهة، يُراد استقبــال الحرب. إنّها العقلية المحدودة بإطار ذلك المكان في الجريدة التي تريد أن تتماهى مع العقلية الكليّة التي صنعت سلطتها ودكتاتوريتها بتنمية الشكوك، وتحفيز الخوف، وإدارتها شعباً، كلُّه دائماً في موضع الشكّ والاختبار الدائم.

ماذا سيكون الحال لو حدثت الحرب وأنا هنا؟

بقــي هذا تســاؤلاً محيّراً يتكــرر من دون جهــد للإجابة عنه. يتركّز الجهد كلُّه من أجل الخلاص من لحظة تحقيق واستجواب متوقَّعة في كل حين.

جرت مناداة ثلاثة متّهمين آخرين من قبل الحارس الشاب.

جيء بمعتقل آخــر، وجيء بعده بساعتيــن بأربعة آخرين. بعد ثلاث ساعات، وهي ساعات تخمينية، أعيدت السيدة إلى زنزانتها بصمت. تناولتُ ما بقي من شاي بارد، مددت يدي بحثاً عن علبة السكائر، فتذكرت قراري بالتخلّــي عن التدخين، وتشاغلت عن السيــكارة حين وضعت على قدميَّ ماءً فاتــراً، لم أكن أقوى على الوقوف عليهما، ارتحت قليلاً.

لم ينادوا عليَّ، أقلقني ذلك وأراحني..

الوجود قرب المحقّقين، حسب تجربة يوم أمس، مثل الترياق بوجهيــه الشافي والســام، يفيد ذلك الوجود فــي قياس نبض سَير التحقيــق وما يمكن أن تفكّر به سلطــة المخابرات في التعامل مع الموضــوع، غير أنه مضرّ من خلال ما يمكن أن يجرّ إليه من كلام واستجواب وانفعال ونفاد صبر على التحمّل في مواجهة إهانات واعتــداءات مباشرة وغير مباشرة. كان النقيــب حميد منطقياً يوم أمس في تحقيق الساعة المرهقة وهو يقول لي:

– سأقتنع أنك لم تتلق رسالةً من سامي، ولكن برّر لي كيف أن شخصــاً مرتداً يغامر بإرسال شخصــ إلى جريدة حكومية لمجرد نقل تحيّة وسلام.. ما الداعي لمثل هذه المغامرة؟

– أنــا فعلاً أتساءل أيضاً، لو أن سامــي كان قد بعث لي برسالة خاصة بيد الشاب الكردي، فكيف يكون من المعقول أن يأتي بها

هذا الرجل إلـى الجريدة، وينتظر في الاستعلامات لحين موافقتي علـى إدخالـه، وليسلمنـي الرسالة داخـل الجريدة، فـي مكتبي، بحضـور آخرين من العاملين في القسـم؟ إذا كان سامي قد تهوّر، فمن أين أتت الشجاعة للشاب ليقوم بمثل هذه المغامرة؟

– أنـت صحفي أم ضابط تحقيـق؟ تحاججني بمنطقي أنا في الوقت الذي يفترض فيه أنك فقط تجيب على الأسئلة ولا تسأل؟

– عفـواً، عفواً، أنـا لم أسأل. مصادفـةً أن إجابتي جاءت على شكل سؤال، هو يدور في بالي وليس سؤالاً لحضرتك.

كان مثل هـذه الانتباهات أمراً مرهقاً، ينبغـي أن تجيب عليها فيما يتوجّب أن لا تخسر، بفعل إجاباتك وطريقة صياغتها، هدوءَ وصبرَ المحقّق عليك.

فـي حياتي تعلمت كثيراً من مثل هذه المواجهات التي تضعني فيهـا ظروف العمل والحياة في العراق بين أوساط تضمر أكثر مما تظهـر. لقد اعتدت على أن لا أبدو منـاوراً في مثل هذه الحالات حتى وأنا الجأ إلى المناورة بالكلام المقتصد وبالإجابات العائمة التـي يتفادى معهـا المرء الاعتراف أو ما يوحـي بكذبه وتضليله، وربما نجحت مرات كثيرة في التعامل من أجل تمرير ذلك وقبوله بهدوء ظاهري، إنما كان نجاحاً يخفي تحته تمزقات وآلاما، كان لا بد من ذلك كله من أجل ضمان النجاة وسلامتي وسلامة العائلة وكرامتهـا ومستقبلهـا وحتى لا تنال هذه النجـاة من استقلاليتي، كمثقف، وطبيعتي، كإنسان.

لكنّ تحقيقاً صعباً متوقّعاً حتماً مع المقدّم إبراهيم لا أدري متى سيحين، سيكون حاسماً. وسيحتاج فعلاً إلى أن لا يبدو المرء معه

في العمق مثل لؤلـؤة ينزعج المحقق لعدم بلوغها كما يحتاج إلى أن لا يطفـو علـى السطح مثل سمكة ميتـة لا يصعب على المقدم العبث بها كما يشاء.

(١٢)

قبل اعتقالـي بأسابيع كان قـد جرى تفريغ سجـن (الحاكمية) من المعتقلين فيه بموجب عفو عام. ليس من الواضح حتى الآن ما إذا كان قد أطلق سراح جميع المعتقلين الذين كانوا في هذا السجن المتخصّص بقضايـا السياسة والاقتصاد الكبرى والصلات بجهات خارجية، أم أن بعضـاً منهم قد جـرى نقله إلى مكان آخر بعد إعـلان العفو عن جميع المعتقلين والمسجونين والموقوفين قبل الحرب الأخيرة مع الولايات المتحدة. لقد كان الكلام العام المتداول بين الناس يتحدّث عن سجون اخرى سرية، تشكّل السجون المعلنة غطاء يخفيها. كان الكلام يذهب إلى أن سجناء السجون السريّة عادةً ما يُنسَون فيها فيُتركون أحياء لا هم يعرفون بالمصير الذي سينتهون إليه ولا يعرف بذلك حتى سجّانوهم. كنت أحسب أن السلطـة تغذّي مثل تلك التصـورات والأحاديث أو تقبل بها لتضخيم حال الخوف.

جئـت إلـى السجن، وكان رقمـي ١٦، بما يعنـي أن خمسة عشر معتقـلاً هم معي فـي الحبس أو بعضـاً منهم ما زال فيـه إذا ما كان قد جـرى اطلاق سـراح بعض من هؤلاء قبل مجيئـي. أعرف، في الأقل، مـن خلال التحقيق مع الشاب الكردي الذي أجـري أمامي أن المدير الفنـي للجريدة (صباح محسن) كان قد أُعطي الرقم ١٤ حين جيء به مـن الجريدة خطـأ بدلاً عني قبل اعتقالي بيوميـن، ليطلق سراحه حال وصولي السجن مباشرة، ومن دون أن أراه أو يراني داخل (الحاكمية).

حيـن أبلغني الحارس الأسمر القاسـي أن اسمي منذ الآن هو الرقم

١٦ تشاءمــت، لكرهــي المبكّر، ومنذ الطفولة، للرقــم ستة ولأيّ رقم يشتــرك معه. لم يعجبني تجاور السين والتــاء ثم تربط بهما تاء أخرى. الدرجــات المدرسيّة فــي المرحلة الابتدائية، التــي قضّيتها بتفوق، لم أصادف فيها مرة أني حصلت على ست من عشرة أو ستين من مئة وما شاكالهما من ستّات. كنت أحياناً أحصل على خمس درجات أو سبع، فيسعدني هذا التجاوز للرقم ستة.

سنــوات الستينيّــات اقترنت فــي طفولتي بأحــداث سياسية وغير سياســة، لم يكن يحبّهــا المحيط الاجتماعي الــذي نشأت فيه، ولم أحبهــا بعد ذلك: انقلاب ١٩٦٣ ومصرع الزعيم عبد الكريم قاسم، نكســة حزيران (الشهــر السادس) عام ١٩٦٧، انقــلاب ١٩٦٨، مــوت عمي، شاباً، بحادث مفجع عــام ١٩٦٥، موت عمي الآخر، شابّــاً أيضاً، بمرض مفاجئ عام ١٩٦٧، مرحلــة السادس الإعدادي وامتحانهــا البكالوريــا همــا أيضــاً مزعجــان ومحطة قلــق في حياة المراهقيــن والمراهقــات وهــم يضعــون خطواتهم على عتبــة أولى سنوات الشباب.

حاولت، ما أستطيع، تجاهــل موقفي النفسي من الرقم ١٦ الذي حلَّ محل إسمي، لكن إسمي كان هو الآخر دافعاً لكثير من مشكلات صادفتهــا في حياتي الشخصيــة وحياتي في الثقافــة. تضطر صحف ومجلات غير عراقية إلــى تحوير إسمي أو الامتناع عن نشر ما يتعلق بــي حين تكون الصحيفة أو المجلة تتشدّد في تفسيرها الطائفي لهذا الاسم، لكــن الاسم يبقى عراقيّاً خالصاً، لن تجــد له تكراراً حتى في الدول العربية التي يشكّل أبناء المذهب الذي تنحدر عائلتي منه جزءاً من مكوّناتها المذهبية. هــذه الطبيعة العراقية الخالصة للاسم عزّزت

.مسكي بـه، وقد تخلـى كثيرون من حامليـه عنه، أنـا أيضاً جربت
في بداياتي مع النشـر منتصف السبعينيات استخـدام اسم قريب منه
الـسي ما لبثت حتى عدت لهذا الاسم الـذي أحببته من دون أية عقد
..لبية أو إيجابية، خصوصاً أنه يتمتّع بوقع خاص في الأذن العربية في
المجتمعـات التـي لا تشكّل النزعة الطائفية عقـدة إليها. لكن الاسم
كان هـو المشكلة الأولـى التي أراد المقدّم ابراهيـم أن يبني أحكامه
و استنتاجاتـه في ضوئهـا، برغم أنه يعـرف أن مشكلتي التي اعتقلت
بموجبها لا تمسّ جانباً طائفياً، فالصديق سامي العبيدي الذي سبَّب،
برسوله ورسالته، المشكلةَ هو من مكوّن مذهبي آخر، ولم أذكر أنّنا،
سامي وأنـا، قد تحدّثنا يوماً، في فترة لقاءاتنـا الجامعية، في مثل هذا
الاختلاف.

وحتى حيـن عملت بعد ٢٠٠٣ في صحيفـة علمانية ذات توجّه
ليبرالي يساري لم يكن لهذا التوصيف ليسمح لسياسيّين متطرفين في
نزوعهـم الطائفي بالتحـرّر من مشكلة التصنيف علـى أساس الاسم،
فكنـت أواجه مشكلات التحفّظ والممانعـة في التعامل معي انطلاقاً
من إسمـي، بينما هو لم يشفع لي، لدى آخريـن متشدّدين من الجهة
الأخـرى التـي يُحسَب الاسم عليهـا، وذلك حين يجـري التصنيف
لديهـم على أساس قناعاتي الفكرية وطبيعـة المكان الذي أعمل فيه.
فـي الحالين، في الجانبين، يشتغل مبدأ التطابق بقوة، ينبغي أن تكون
متطابقاً معهـم تماماً، تسميةً وانتساباً وتفكيـراً، حتى يجري قبولك
واستساغة التعامل معك.

لـم يكن هـذا يقلقني كثيـراً، بقيت دائماً حـرّاً مـن أي تقييد في
تفكيـري وتصرفي سوى ما تفرضه قناعاتـي وقيمي التي تربيت على

بعضهـا وصنعت بجهـدي بعضها الكثير الآخر، بقيـت أعتزّ باسمي وبمكوّنـي وبعائلتـي ومدينتي من دون أن يكون هـذا حاجزا ومانعا لأن أحترم حقَّ الجميع بالديانات والمذاهب والاعتقادات المختلفة. لكـن الحال هنا فـي ((الحاكميـة))، وفي مواجهـة مصير مجهول، يجعـل الأمر مختلفـاً، لا بدّ من أن أقلق، لا بدَّ مـن أن أتحسّب لكل الزوايـا التي يمكـن أن أُستهدَف من خلالها، ولا بدّ من أن أتوفّر على دفاعـات تحميني، في مـكان تحقيقي لا يُسمَح للمتهـم فيه بتوكيل محامـي دفـاع، تجـاه أيّة ثغـرة يمكن أن تُفتـح. أثـق بقدراتي على المحاججـة بمنطق، وحتـى بما يغنيني عن محامـي الدفاع، لكن لا أثـق هنا بإمكانية أن تُحترَم المحاججة، وأن يُعتَمد المنطق العادل في الحوار والاستجواب.

الآن، في السجـن، وبالضبط في عالم الزنازيـن، يُزاح الاسم إلى الخلـف، ينبغي للسجين نسيانُه، تجري المناداة بالأرقام حتى لا يُتاح للسجناء في الزنازين المختلفة معرفة جيرانهم من السكّان المعزولين عـن بعضهم في هـذا الكوكب المعزول عن العالـم. ليس جديداً في العراق إبـدال الاسم برقم، فقد استخدم ذلك، فـي الجيش تحديداً، وكان هـذا الاستخـدام ينطوي على نزعة تراتبيـة تحقيرية، حين كان الجنـود، ومعهـم البغال والخيـول المستخدمـة في الجيـش أيضاً، وحدهـم مَن يجري إعطاؤهـم أرقاماً خاصة بهـم، بخلاف الضباط الذين يظهـرون بأسمائهم، مسبوقـة برتبهم، ومـن دون أرقام. لكنّ الاسـم المخفي هنـا في (الحاكميـة) يُستعاد في التحقيـق، ويحضر كجزء من هوية وتاريخ وطبيعة سلوكية يعتقد المحقق معها أنها مفيدة فـي تحديد طبيعة شخصية السجين الـذي يحقق معه وتخمين موقفه وتصرفه.

لقد تركت إسمي، مع ملابسي وراتبي وأشيائي الأخرى، في غرفة الأمانات أوّل دخولي المكان.. وأخذت من هناك ومن حينها إسمي الذي أكره ١٦.

(١٣)

انتهى اليومان الثاني والثالث برتابة ثابتة.

لـم ينادَ علـيَّ للتحقيـق، لكن نودي علـى رقمي وأرقـام أخرى مـن بينها رقم السيـدة، وكان هذا هو الحدث الأهـم. لم يكن رقما شريكيَّ في التهمة بين الأرقام المنادى عليها. استغربت هذه المناداة الجماعية.

حيـن فتح الحارس باب الزنزانة وجـدت السيّدة خارج زنزانتها التـي كانت، كما توقعت، مقابـل زنزانتي بالضبـط. نظرتْ نحوي بتركيز قبل أن تغض طرفهـا وتحني رأسها. خرج الآخرون المنادى عليهـم من زنازينهم إلى الممر. وقفنا معاً بطلب من الحارس، وكان جميعنـا يضيّق من فتحتـي عينيه لتفادي ضوء الممـر الذي لم يألفه. سعت السيّدة إلى الاقتراب مني، وهي تخفي عينيها وتفركهما بكفها اليمنـى بينما كانت تراقب الحارس الـذي كان منشغلاً بمراقبة آخر الخارجين من زنازينهم، فاقتربت منها على حذر لتقول لي بهمس:

– أنا اشكرك أخي. الله يفرّج عنك وعنا.

وقبل أن أجيبها، صاح الحارس بها:

– من دون كلام! ماذا أردتِ؟

– لا شيء، تساءلت فقط أين نحن ماضون؟

– إلى جهنم!

– أعمالنــا هي التي تقرّر مَن يمضي إلى جهنم ومَن الذي يمضي الى الجنة. رحمة الله أعظم مني ومنك ومن كل شيء!

– مَـن مثلكِ لا تعرف الله ولا تستحق الرحمة، كفى لغواً. لو لم تكوني امرأة للعنتُ والديك.

– ماذا بقّيتْ، لعنت حتى أهل أهلي يا اللي تعرف الله؟

– إرجعي إلى الزنزانة، (أدب سز)، ستذهبين وحدك.

أعادهــا إلــى الزنزانــة وسط انزعــاج صامت بــدا واضحاً على قسمات الجميع. كان كل سجين يحدق بتركيز شديد في كل واحد مــن الآخرين الموجودين معه هنا في هــذه الفرصة نادرة الحدوث والتــي قد لا تتكرر ثانية، كان السجيــن، أي سجين، هو أيضا يريد مثــل هذا التركيز في النظر إليه من قبل الآخرين، لا بد من الاحتفاظ بصــور وجــوه مدفونة فــي هذا المــكان ولا تعــرف المصائر التي ستنتهي إليها، ليس بالإمكان معرفة الأسماء والعناوين فلتبق الصورة وحدهــا إذاً في الذاكرة. عاد الحارســ إلينا بصنبور وسخ يسيل من فمــه شتائمَ ضدّ السيــدة وضدنا كلنا مــن دون أن يتوجه نحو أحد معيــن، فيما كان نشيج المرأة يسمّم الهــواء والضوء اللذين يغمران الممر الضيق.

مضــى بنا إلى فسحة أمام السلّم الــذي يقسم الطابق إلى زنازين عــن يمينــه وأخرى عن يســاره. كنتُ أولَ مَن ناداهــم، وضع على صدري قطعــة كارتون، كتب عليها رقمــي، وأمرني بالدخول إلى غرفــة وجدتُ فيها مصوّراً وكاميرا ثابتة على ستاند. التقط المصور لــي صــورة أماميــة وأخريــن جانبيتين، هــي الصورة التــي تؤخذ عــادةً للمتّهمين والمحكوميــن، والتي نشاهد مثلهــا في الصحف

والتلفزيونات لمتّهمين مطلوبين أو لأفراد محكومين. طلب الحارس منّي أن أنتظر لحين إكمال الجميع التصويرَ، وحتى إذا ما أكملوا أعادني وأعادهم إلى الزنازين. كان آخر ما يفعله السجين قبل أن يودع في الزنزانة هو الالتفات نحو من تبقوا في الممر من السجناء، كان الالتفات يحصل من دون وعي وإرادة من السجين، هذا ما كان بالنسبة لي في الأقل، كان يلتفت لزملائه بأكبر مساحة ممكنة من وجهه وكما لو كان يتوسلهم: احفظوا صورة وجهي، ربما تغادرون قبلي، وربما تُسألَون يوماً عني.

بقيت أفكّر، عند دخولي الزنزانة، في السيّدة وفي داعي شكرها لي، خمّنت أنها سمعتْ حتماً كلامي للحارس الشاب قبل يومين، وتقديري لحسن تعامله معها.

كانت نحيلةً في الأربعينيات من عمرها، سمحت اللحظات القليلة التي التقت خلالها عيناي بعينيها أن أقف على ذكائهما، وقد امتزج بجمال وحزن وحياء أنثوي واضح. كان واضحاً أيضاً أنها متزوجة ومتعلّمة، ولعلَّ الأكثر وضوحاً أنها متديّنة (تقريباً انعدمت داخل البلد المعارضة العلمانية المنظمة) وتمتلك الشجاعة التي يمكن أن يجري التساهل معها نوعاً ما، خصوصاً أنها في سجن رجالي، كل إدارته وسجّانيه ومسجونيه من الرجال. يوم أمس سمعتها، طلبتْ من الحارس سجادة للصلاة، فرُفِض طلبها. قلت مع نفسي: "هي تعرف أن طلبها سيُرفَض، لكنها تريد القاء الحجة عليهم وتحميلهم إثم صلاتها في مكان غير طاهر حتماً"، وحين سألتُ الحارسَ الشاب أمس الأول عن امكانية الحصول على قطعة صابون، وجاء بها إليّ طلبت هي أيضاً صابوناً، اعتذر منها بعدم وجود قطعة أخرى، فرجوتُه أن يقسم قطعتي

إلى نصفين لي ولها، ففعل، وربّما هذا هو الاحتمال الثاني لشكرها لي.

كان مستحيلاً، حتى في الأيّام التالية، أن أعرف السبب المباشر للمجيء بها إلى هنا، فلم نلتقِ طويلاً في تحقيق أو استجواب سوى مرة واحدة وكانت لدقائق قليلة وقد أمر عليها في صفحات تالية.

قبل مجيئها، وقبل اعتقالي، لم يكن لي أن أتخيّل مطلقاً أن امرأة يمكن أن توضع في سجن له هذه الطبيعة الذكورية. ذهب استنتاجي عن طبيعة مشكلتها إلى الجانب السياسي، فمهما تكن تهمتها، إذا ما كانت اقتصادية أو في أي مجال آخر، فسيكون أحد سجون النساء مكاناً لاعتقالها.

بدأت أرغم نفسي على الأكل، أيّ مرض هنا يؤدي حتماً إلى تدهور خطير ليس في الجسد وحده، وإنما أيضاً في القدرة على الاحتفاظ بالمناورة والتوازن في التحقيق. كنت آكل أقلّ من ربع مما اعتدت أن آكله في الوضع الطبيعي، لا شهية ولا مزاج. ولعل ما زاد في مشكلة هذا النفور من الأكل هو توفّري على سبب، بدا لي منطقياً، حين فكّرت بالاحتفاظ بهذا الخبز الأسود، خبز سنوات الحصار، الذي يوزّع علينا، إلى أطول فترة ممكنة تحسّباً لاحتمال أن تقع الحرب وينقطع عني كل شيء في زنزانتي الانفرادية. قلت: الخبز الأسود ينفع في يوم أسود. وأتوقع أن نهارات السجن ولياليه، إذا ما وقعت الحرب ونحن فيه، ستكون أشد سواداً مما هي عليه الآن، كنت أحفظ الخبز في طرف البطانية، لكن بعد يومين يبدأ بعضه بالتعفّن الذي لاحظته عليه هذا اليوم. لا بأس في رمي المتعفّن منه (كانوا يأتون كل يومين أو ثلاثة لنقل النفايات)، وإبداله يومياً بما يأتي من خبز جديد حتّى تحين الحرب.

لم أنم خلال الليالي الماضية إلا بحدود أقل من ساعة واحدة عند

الفجـر كلّ يوم من ثاني أيام الحبسـ، فالليلة الأولى كانت متواصلة في سهرها وقلقها، لم أنم خلالها، ولم أشعر بأية حاجة للنوم.

كنت أقضي تلك الساعة في نوم يظلّ يتروواح ما بين اليقظة وما يبدو نوماً. لم أشعر بالنعاس.

الصوت الوحيد الذي اقتحـم المكان من العالم الخارجي، عالم ما وراء جدران السجن، ونجح في الوصول إلى ظلام الزنزانة كان صوت الرعد. حدث هذا يوم أمس الأول، كان صوتاً مدوّياً سمعتُه، وكما لو لم أسمـع من قبل رعداً. تداخلت المشاعر بين بهجة التفكير بالمطر الذي يهطل هنـاك، في المدينة التي أحببت، في بغـداد، على بيتي وجريدتي ومقهاي وشوارعي وأسواقي، وبين التذكير بصوت الانفجارات ودويّ القصـف الذي تنتظره هـذه المدينة كأسوأ ما تنتظـر المدن والناس من حلول. وعلى مرأى مُتَخيَّل للمطر مرّ بي خيط نعاس.

في الأقل، السماء ما زالت تمطر هناك، قلت، ولكنْ أيضاً، لم أنم.

(١٤)

– لو كنتَ تعـرف القرآن لما جاؤوا بك إلى هنا. إقرأ لنفسك من دون صوت عالٍ!

وسكت المقرئ ذو الصوت الرخيم. كان واضحاً أنه صوت شاب في زنزانة غير مجاورة لزنزانتي، لكن لم أستطع، مع الصدى وتداخله بالصوت، تخمين ما إذا كان هذا المقرئ يقيم في زنزانة على يسار أو يمين زنزانتـي. بدا لي السجن كلّه محتجاً بصمت على هذه الفظاظة التي أطلقها الحارس ليس ضد الرجل حسب، وإنما أيضاً ضد التلاوة والكتاب. ومع الصمت لم يبق سوى وقع حذاء الحارس الفظ يدوس علـى القلب أكثر مما يحدثه من ضربات حادّة على بلاط الممر وهو يتمشى، ببطء فيه، مجلجلاً بصوت المفاتيح، سمعته:

– ١٦.. تحضّر!

وفيمـا كان صوت المفاتيح والأقفال يرجّ المكان، أجبته بصوت لم أسمعه أنا:

– نعم.

نظر إليّ، صامتاً، خرجت، فعصب عينيّ، وقيّد يديَّ الى الخلف، ليسألني من دون أن ينظر في وجهي:

– ها، لم تنكسر يدك؟

– ......

لم أجبه. ما زال يتذكر إذاً المرة السابقة التي جاء بي فيها من غرفة التعذيب وعدم قدرته على ثني ذراعيَّ إلى الخلف بفعل الآلام.

قادني إلى السلـم، ومن هناك إلى ممر في الطابق الأرضي، غرف التحقيق وزوايا التعذيب. أجلسني على الأرض قرب باب. ابتعد عني وهو يقول:

– انتظـر حتى يُنادى عليك. إياك أن تلتفـت، أو أن تحاول النظر والتحرك. عينك إلى الأمام على الجدار.. أتراه؟ لا تنس اسمك ١٦.

– ....

كان صـوتُ تلفزيـون يأتي مـن الغرفة، لكن هذه المـرة لم تكن أخبـاراً، كان برنامجاً حوارياً لم أستطع تمييزه ومعرفته، كان واضحاً أنـه يأتي من فضائية لبنانية، وكان الصراع فيه ساخناً بين رجلين، كان أحدهمـا عراقياً معارضاً، اتضـح ذلك من خلال لهجته وتأكيده على حتمية وقوع الحرب وحتمية سقوط صدام، فيما كان يقابله متحدث مصـري يؤكـد علـى أنّ الأمريكان فـي اللحظة الأخيـرة سيمتنعون عـن التورّط في الحـرب، سيكتفون بوجود بوارجهـم في المنطقة، وسيكـون الخـوف على توقّف إمـدادات النفط عـن دول العالم هو مبرّرهـم الأخلاقي لتسويق عجزهم عن منازلـة العراق الذي يحتفظ بمفاجآت تحرق الخليج واسرائيل وكلّ أصدقاء أمريكا في المنطقة.

انتهـى البرنامج الذي يبـدو أني كنت أستمع إلـى نهايته، وتحوّل التلفزيـون إلى قناة سحـر الإيرانية التـي كان يمكـن للعراقيين تسلّم بثهـا بتردّد أرضـي، ولكن بحيطة وحذر شديديـن، كان فيها برنامج أدبـي ديني، ثم تحوّل إلى قناة أخـرى كانت تبثّ مسلسلاً مكسيكياً مدبلجاً.

سمعتُ قربي سجينين كانا ينتظران أيضاً، ولم يمنعهما تفريقهما، فكانا يتهامسان عبري، حيث أحدهما على يميني والثاني على شمالي:

لماذا..؟

- لم أتحمّل!

- الآن سيعيدون التحقيق، ما ذنبي؟

- سأقول الحقيقة. ما عليك، أنا أتحمّل كلّ شيء.

- أرجوك.

نودي عليَّ، فسكت السجينان مع مجيء الحارس يهرول طالباً نهوضي. أدخلني، وسمعت صوتاً من داخل الغرفة يطلب منه رفع العصابة عن عينيّ، كنت أمام مدير القسم الذي بقي يحدّق بتركيز في وجهي وهو يفتح مجرَّ مكتبه، أخرج علبة سكائر (كِنْتْ)، ناولني سيكارة:

- تفضّل.

- لا، شكراً.

قطّب حاجبيه مستغرباً:

- ألا تدخّن؟ أذكر، في المرة السابقة، دخّنتَ؟

- صحيح دخنت، لكن تركتها.

- تركتها؟ دخّن، دخّن!

- ممتن، أشكر كرمك، لكن بعد هذا لن أجد سيكارة. أرجوك ساعدني على تركها.

- كما تحب. فعلاً فرصة مناسبة لك لترك التدخين.

دخّـن سيكارته، وصمت للحظات يقلّب أوراقاً بين يديه، كتب شيئاً ما، ثم أزاح الأوراق جانباً، ووضع القلم، وتوجه بسؤال مباغت:

- قل لي مَن اطلع سواك على الرسالة؟

- لا أحد.

وجـد في جوابي المقتضب ما يمكن أن يفسّره على أنّه اعتراف غير مباشر بتلقّي الرسالة، اعتراف قد يكون غير مقصود، لكنه اعتراف صريح في أي حال، ومهم بالنسبة له. ابتسم، وانفرجت أساريره، فسألني:

- وحدك أطّلعتَ على الرسالة..؟ حسناً فعلتَ إذاً.

- لا توجد رسالة بالأساس لأطّلع عليها أو يطّلع عليها سواي.

- ما زلت مصرّاً؟ عجيب!

- ليس إصراراً ولكن لم أتسلم رسالة صدّقني.

ضحك على مضض ثم فاجأني:

- ولكنك تحدثت عن الرسالة إلى صديق، أعتقد هو صديق مشترك بينكما؟

كانت الجملة الأخيرة مفاجِئةً فعلاً بالنسبة لي.

دارت بـي الغرفة، ودار السجـن بالغرفة، ومرّ بلمح البصر شريطٌ من ذكـرى حدثت قبل عام.. حاولـت أن أتماسك، وأن أبـدو مستغرباً ما أسمع:

- صديق؟ تحدّثت عن رسالة مع صديق؟ وصديق مشترك؟ مستحيل.

- ما المستحيل؟ الصديق المشترك، أم حديثك عن الرسالة؟

– تعرف أن لا وجود لرسالة، لكن لا أذكر أني التقيت صديقاً مشتركاً، ولم أتحدث عن سامي مع أي شخص؟

– لهذا الحد سامي خطير بحيث لم تتحدّث عنه مع أي صديق؟ دعنا من سامي الآن، لقد تحدّثت عن الرسالة، يا أخي، تذكّر جيداً.

بقيت عيناه مركّزتين في وجهي، فيما علت ابتسامة وجهه، ابتسامة تريد أن توحي ربما بنصر ما في هذا الحوار المقتضب، وربما بسرّ، وربما كانت الابتسامة تريد القول لي أنّك تكذب هذه المرة ايضاً. صمتنا للحظات، كانت خلالها عيناي لا تستقران على شيء بينما ابتسامته متواصلة ولم ترد أن تنقطع فكان هذا يضاعف حرجي وانزعاجي. فشلت في التحكم بتعابير وجهي، تمتمت بارتباك خشيت أن يلاحظه محقق مبتسم، قبل أن أقول بما يشبه الصمت:

– لا، لا أتذكر. لم أتحدث. لم ألتقِ.. مستحيل.

– حسناً، سأتركك ليوم الغد لتفكّر.

– ....

– ها، ما زلت مصرّاً على ترك التدخين بعد هذه المفاجأة؟

وأخرج، مبتسماً، سيكارة من العلبة. كم احتجت فعلاً إلى السيكارة التي تحاشيت النظر إليها في يده. حاولت أن أبتسم، كانت ابتسامة أحسست بفتورها وسخفها وأنا أقول:

– لا، شكراً.

دخّن هو السيكارة، ومن دون أن يلتفت إليّ، قال:

– ضع في حسابك يا رجل أن النكران يجعل عقوبتك مشددة!

نادى على الحارس، وطلب مني المغادرة مؤكدا على ضرورة أن

أفكر. وفيما كان الحارس يعصب عينيّ، سمعت المدير يقول لي:

– من الأفضل أن تأخذ معك ورقة وقلماً. لا تكتب بها شعراً، دوّن ما تريـد عن الرسالة والصديق المشترك وسامي وأي شيء تراه يفيدك ويسهّل مغادرتك. نحن منشغلون بما هو أهم، والجريدة أحوج اليك فـي هـذا الظرف كما تعـرف. لا نريد أن نخسـر أي عراقي، فكيف بشاعر وصحفي معروف مثلك. نريد مساعدتك فساعدنا.

– ....

أمسك الحارس بي بيمينه، قادني إلى الزنزانة، بينما كانت يسراه، كما توقعت، تمسك بالورقة والقلم اللذين تسلمهما من المدير.

أقفل الباب وقد سلمني الورقة والقلم وهو يوصيني:

– لا تنسَ، أكتب كمـا أوصاك السيد المدير، خلص نفسك. (ثم أضاف بلهجة ساخرة).. هه شاعر؟

كانـت خطواتـه تبتعد، وكنت أسمـع السيّدة تنـادي عليه، طالبةً قرصاً لصداع. بقيت الخطوات تبتعد ولم يجب السيّدة.

شعرت بـدوار، فتناولت الإبريق بعد أن رميت الورقة والقلم على البطانيـة. غسلت وجهـي، وجلست متكئاً علـى الحائط الذي كان سجين سابق قد وضع عليه بيت شعر للإمام الشافعي. بقيت صافناً.

هل من المعقول أن زيدون النجار قد وشى بي؟

لا مجال، لا بدّ من هذا الشك.. ولكن كيف؟

هـل اعتقلوا زيدون مع الذين اعتقلوهم من الذين اتصل بهم سامي أو اتصلـوا به؟ لم يكن أمامي سوى هـذا الاحتمال السيئ، فبخلافه، وإذا لم يكن زيدون معتقلاً، فإن الاحتمال الثاني وهو الأخطر والأسوأ

والـذي يضعني أمام كارثة حقيقيّة: هل كان زيـدون وكيلاً أو منتسباً لجهاز المخابرات ووشى بي؟

حفظـت جملة المدير بدقّة لخطورتها، وأعدتها مراراً، وأنا أقلّبها على أكثر من محمل، لا مجال سوى أن زيدون كشف كل شيء لهم.

زيـدون النجـار شاعر مـن الرمـادي، كان يزورني فـي الجريدة بأوقـات متباعـدة.. كان واحـداً من شعـراء المحافظـات الكثيرين الذيـن لا يجدون صعوبة فـي الوصول إليّ في مكتبـي. عشت سنيناً طويلة بعيداً عـن بيروقراطية بعض المحرّريـن الثقافيين في الصحف قبـل أن أعمل في الصحافة، وكان احترامـي لنفسي واحتقاري لتلك البيروقراطيـة المتعجرفـة يمنعانني من التعامل مـع أولئك المحررين الذيـن لا أعـدم أن أجد بينهـم، بين حين وآخر، وفي هـذه الصحيفة والمجلـة أو تلك، من الأصدقاء أو من يقدّر موهبتي، فيدعوني للنشر الذي بقيت حتّـى الآن زاهداً فيه.. كانت هذه التجربة مع المحررين الثقافيين تحضر دائماً أمامي في التعامل مع أدباء المحافظات البعيدين عـادةً عن دوائر علاقات العاصمة ومحسوبيّاتها، فأحرص كثيراً على توفيـر ما يمكـن توفيره من مساعـدة لهم، خصوصاً فـي الفترة التي سبقت تحويـل الصفحات الثقافية إلى مجـرد نشرات لأدب تعبوي فج ورخيص، كان مطلوباً من السلطة، وكانت حاجة كثير من الأدباء المسحوقين تدفعهم إلى تلبية تلك الحاجة التي كانت قبل هذا منوطة بصفوة مختـارة من شعراء مرفّهين، تورطـوا أولاً بإغراءات السلطة، وبالالتزام معها أخيراً.

كانت الحاجات القاتلة تحت ضغط الحصار تزيد من أعداد الذين يضطـرون إلى كتابة قصائد تتهاون كثيراً في قيمتها الفنية، وقد تتعمد

هـذا التهـاون، وتحاول المواربة قـدر ما تستطيـع، بالكتابة مرّة عن الوطـن وقيم الصمود والتحدي، وبكتابـة خجولة متردّدة مرّات عن صدام، من أجل تأمين عيشهـم وعيش عوائلهم. كان بعض الشعراء، ممّـن تتوفر معهـم الثقـة، يتحدّثون لي بحيـاء ممتزج بألـم عن هذا الاضطـرار المذل فـي ظروف انهار معها كل شـيء. كنت وما زلت أحمّـل السلطـة الدكتاتورية مسؤولية هـذا التشويه وسـوء استخدام المواهب وانـدحـار ثقة الكثيرين بكرامتهم الإنسانية والثقافية.. ومع الصحـة النسبية للحكم الذي يقول إن السلطة المنهارة لم ترغم أحداً علـى كتابة ما كتب، سـواء أكان مؤمنا بهذا أم مـن دون إيمان، لكن صدق هذا الحكم يصطدم بحقيقة أن الإرغام غير المباشر أكثر فداحة مـن ذاك المباشـر، وإلا ما معنـى أن لا ترغم جائعاً علـى تقبيل كفّك بينما أنت في ذروة جوعه تظل تلوّح له بالخبزة والكف؟ هذا ما كان يحصل، الاضطرار من أجل الخبزة مقابل شعر تافه.. كنت أقدّر أن لا قيمـة تُذكر ويعتد بها لكل هذا الذي يُنشر، شعر يُكتَب ليقرأه شخص واحـد ثم يدفـن تحت مشاعـر الخجل منـه ومن خواء قيمتـه الفنية والتعبيرية، لقد كان شعراً لا تأثير له في الناس التي لم تعد أساساً، تقرأ الصحـف. لكن بالمقابل هناك قيمة الحياة ومسؤولية الفرد ازاء أسرة ومتطلبات، وهـي مسؤولية أرغمت أطباءً وقضـاة واساتذة جامعيين وعلمـاء ورسامين على فعل ما لا يمكـن أن يفعلوه في أدنى الظروف توفّـراً على اشتراطات الحياة الإنسانية.. وفي المقابل من هذا وذاك، تبرز قيمة المثقف إزاء نفسه، وهي قيمة ليس من السهل للمثقف نفسه ولا ينبغـي له التساهل فيها، هذه القيمة بقيت رفيعة عن الابتذال لدى نفر محـدود من المثقفين الذيـن كان عليهم معها فـي داخل محرقة العراق أن يقدموا أقل ما يمكن تقديمه من الخسائر التي قد يضطرون

عليها. لا حياة هنا بلا خسائر، لكن الأوفر حظاً، أو دراية، أو قوة، هو من تسمح له ظروفه بالاكتفاء بأقل الخسائر.. لا يستطيع كاتب كبير مثل أسعد الياس، وقد عاش كلَّ حياته وأدبه بشرف، أن يمتنع عن طلب حضوره أمام صدام مع زملاء آخرين له. كنت أراقب اللقاء على التلفزيون الحكومي فاندهشت لقدرة أسعد على أن يمرّر احتجاجه أو عدم موافقته، في الأقل، على هذا الوضع الذي زُجَّ فيه من خلال الالتزام بالصمت التام طيلة ساعة اللقاء الذي بثّه التلفزيون كاملاً، وربما ساعد الحظ أسعد فلم يجرِ التوجه له بسؤال أو حديث، فغنم الصمت في ذلك اللقاء. اندهشت مرة أخرى وفي مناسبة أخرى لما سمعت بتعلّل شاعر مثل فاضل الحلي بالعمى، مستثمراً مرض عينيه وضعف بصره، وهو يبرّر عدم قدرته على حضور لقاء وقراءة شعر في حضرة القائد حين دُعي رسمياً إلى ذلك. لكن حُسن التخلص هذا لا يتاح للجميع أو لا يحضر الكثيرين. لقد كاد الجوع يكون كفراً، كما قال الإمام علي.

كان زيدون واحداً من الشعراء القادمين من المحافظات، يتمتع بخُلق رفيع وأدب جم. زارني قبل عام، وكانت المفاجأة أنه نقل لي تحيات من سامي العبيدي الذي التقاه في زيارة عمل له في أربيل، كما قال لي حينها، مؤكداً أنه يذهب بشكل مستمر للمدينة التي كان السفر إليها محظوراً ويلتقي هناك بالشاعر د. ماجد الراوي الذي هاجر للتدريس في جامعة صلاح الدين في أربيل.. قال لي زيدون:

– التقيت بالمصادفة بسامي العبيدي وهو رجل مهم، كما بدا لي، في علاقاته ومظهره واتصالاته..

– لا أعرف بالضبط، ولكن متى ذهب إلى هناك؟

– قبل سنتين هاجر. ترك عمله في التصنيع، وهاجر.

– مع عائلته؟

– نعـم، ولكنه ذكر لي أنه بعث لـك برسالة مع شاب كردي فقير مـن الموصل يساعـده مالياً مقابـل أن ينقل هذا الشـاب رسائله الى أصدقائه وذويه.

– نعم ، أذكـر فعلاً تلقيت تحيات من سامي. هل السفر مسموح وسهل إلى هناك؟

– لا، أحياناً كثيرة أواجه صعوبات وأسافر عن طريق الموصل؟

ركّـزت كثيراً لأتذكر مـا إذا كنت فعلاً قد أيّـدتُ قولَ سامي عن الرسالـة وأنا أجيب زيـدون بتحفظ واقتضـاب وبتشتيت عن محور الحديـث: سامي ورسالتـه. تذكرت تمامـاً أني لم أشر إلـى الرسالة وتركت موضوعها مبهماً من جانبي في ذلك اللقاء مع زيدون.

كانت جملة المدير واضحة تماماً.

لا احتمـال أمامـي سوى أن زيدون نقل هـذه المعلومات، ولكن كيف؟ هل هو معتقـل؟ أم وكيل مخابرات؟ بقي.تفسير وضع زيدون أساسيـاً لتحديـد الطريقـة التي يجـب أن أتعامل بها مع هـذا التطور الخطير.

استبعدت فكـرة أن يكون معتقلاً. كان دافعي لمثل هذا الاستبعاد أن إدارة السجـن ومحققيـه لا يحتاجون إلى لـف ودوران لمواجهة لفي ودوراني؛ لو كان زيدون مقبوضاً عليه واعترف لجرت مواجهته معـي كما جرت مواجهـة الشاب الكـردي. إذاً لا احتمال سوى أن يكون زيدون يعمل في المخابرات، ألا تؤكد حرية حركته بين مدينته

وأربيل واطمئنانه هذا الاحتمال؟ ولكن لماذا جرى تأجيل ورقته إلى هذا اليوم ولم تطرح في ثلاثة تحقيقات سابقة كنت قد مررت بها في اليوم الأول؟ أكيد كان المطلوب أن يجري التكتّم على عميل خطير يعمل للمخابرات في كردستان وربما هو هناك الآن ولا يراد التفريط به من أجل تحقيقٍ كل خيوطه واضحة لهم.. هكذا فكرت، وإلا كيف لزيدون أن يسافر بشكل متكرر إلى مدن محظور السفر إليها ويعود بملء راحته..؟

لم أنم الليل كلّه. لم أجد أمامي سوى خيارين: أن أعترف بما دار بيني وبين زيدون مع استمرار نكران الرسالة، أو تناسي موضوع اللقاء بزيدون وعدم ذكره لهم.

لم أقتنع تماما بمثل هذه الخيارات التي رأيت أن مدير القسم هو الذي جعلني محكوماً بها، لكن جدية الخيارات تبقى معقولة ولا يمكن إهمالها.. بقيت أسير تضارب أفكاري وعدم قدرتي على اتخاذ قرار حتى هذه الساعة التي أسمع بها صوت الطباخ.

لم يشر زيدون بالضبط في حوارنا عن سامي إلى أن سامي معارض، لكنه تحدث عن أهميته وصلاته، وهو أمر غامض يمكن التعامل معه والتخلص من تبعاته، بينما ستكون للاعتراف بما دار بيني وبين زيدون مضاعفاته على سير التحقيق، مع هذا هو أفضل من مواصلة النكران والاعتراف به متأخراً حين أواجَه باسم زيدون وبما أدلى به من معلومات سواء في أثناء تحقيق معه كمتَّهم موقوف، أو في تقرير منه كعميل سرّي للمخابرات.

دختُ في هذه الدوامة، ينبغي أن اعترف لهم بما دار بيني وبين زيدون.

نادى الطبـاخ للإفطار. لم أزل جالساً متكئاً على الحائط. نظرت فــي الورقة المرمية إلى جنب القلم. لم أكن قـد وصلت إلى أية قناعة نهائيـة بما ينبغي التصـرف به. نهضت، وأعدت غسـلَ الأواني بماء ساخن، منتظراً الإطلالة الكريهة للطباخ والحارس، بينما صور سامي وزيدون والمدير تلتقي وتجتمع وتتنافر في رأسي.

(١٥)

أفطـرت بالشاي وبقليل مـن شوربة العدس. استحممت بماء خففـت من حرارته اعتماداً على الإبريـق والإناء متعدد الأغراض، وهما كل ما متاح لي ويعينني في حفظ الماء والتخفيف من سخونته التي تأتي بها حنفيتا الزنزانة.

بقيت أنتظر أن يُنادى عليَّ، فالورقة والقلم ما زالا جنب الفراش، لـم أكتب شيئاً. بعـد الاستحمام كان المزاج أكثـر صفاءً والتفكير أهـدأ، ومع هذا الصفاء في المزاج وبعد زحف الوقت طرأت فكرة جديدة أسهمت في لخبطة حساباتي بشأن زيدون النجار..

ماذا لو اعترفت على زيدون؟ ماذا لو كان زيدون بريئاً مما سمعتُه من مدير القسم؟ ماذا لو كان مدير القسم لم يرد أكثر من استفزازي فرمى جملةً لا على التعيين وشاءت المصادفة أن تكون صحيحة؟

استبعدت نهائياً أن يكون زيدون معتقلاً.

بـدأت أشـكّ في صحة أن يكـون عميلاً للمخابـرات؛ لو كان عميلاً وكتب تقريراً عما عرفه من صلة بيني وبين سامي لما انتظرت المخابرات كلّ هذا الوقت ولحين اعتقال الشاب الكردي واعترافه ضـدي لتعتقلني، لكن لم يكن بإمكاني تمامـاً إطفاء الشكوك التي فجَّرتهـا جملـة مدير القسـم، كان الرجل هادئاً وواثقـاً ولئيماً في إيصال المعلومة لي.

" يجـب أن أنكـر أي حديـث مـع أي صديـق بشـأن سامي

والرسالـة؛ ظلمي لزيدون إذا ما اعترفت عليـه سيكون أكثر فداحة مـن الظلم الذي أتعرض له هنـا، وفي كل الأحوال ستكون عقوبتي حكماً بالحبس، فليكن حبسي ست سنوات أو عشراً بدلاً من أربع مقابل راحة الضمير بعدم ظلم زيدون. لا أعتقد أن الموضوع برمّته يستحق الإعدام، ولو كان المجيء بي إلى هنا بقصد الإعدام فسوى موضوع زيدون سيكون توفير أكثر من داعٍ للحكم بالإعدام ممكناً وأيسـر من هذا التعقيد ومن طول البـال الذي يمضي به التحقيق". هذا ما خلصت إليه في حال إصرار مدير القسم على قضية الصديق المشترك وعدم إشهاره اسم زيدون أمامي.

اعتـدت في حياتـي، وحين أكون أمـام خيارَي ظلـم نفسي أو ظلـم آخر لستُ متأكداً من استحقاقه ذلك، أن أتحمّل أنا الظلم. لا أقسـى من العيش تحت وطأة مشاعـر الظالم والإحساس المخزي بالاعتداء وظلم الاخرين.

مضت ثلاث ساعات على الإفطار جرى خلالها استدعاء كثيرين للتحقيق، وتم جلب موقوفين آخرين حتى ضاع العد عليَّ.

سمعـت اليـوم رقم ٧٣، فـي الزنزانـة لا تجري معرفـة الحياة وتغيراتهـا إلا بالسمع فقط، سمعـت أيضا أن معتقلاً جرى نقله إلى المستشفـى ومـات هناك، لم يكن ممكناً أن أعـرف ما إذا كان قد مات بسبب التعذيب أم أن مرضاً ما كان وراء وفاته.

لـم يُنادَ علـيَّ، ولكن الأهم هـو أنه لم يجرِ السـؤال عن الورقة والقلـم، وبقدر ما كان هذا يدعو للاطمئنان فإنه لم يكن يمنع القلق والوساوس التي تتداعي فـي هذه الوحدة وأمـام منظر ثقيل لورقة وقلـم لا معنـى لهما هنا سـوى الاستفزاز وتكريـس الخوف، إنها

مشاعــر كراهية غريبة على رجل عاش حياتــه برفقة عواطف حانية مع الورق والأقلام.

كان الحارســ هذا اليوم هو الشاب اللطيــف. حين كان قريباً من زنزانتي ناديت عليه طالباً نسخة من القرآن الذي كان يُسمَح بوجوده لدى السجناء، كجزء من متطلبات الحملة الإيمانية التي تبنّتها السلطة بعــد حــرب ١٩٩١.. ردّ الحارس، مــن دون أن يفتح النافــذة، بأنه سيتأكــد ما إذا توفّرت أكثر من نسخــة في إحدى الزنازين الجماعية، حيث جاءني بعد عشر دقائق بنسخة كانت بحرف ناعم. لا مشكلة، ما زالت عيناي جيدتين تعينانني في القراءة والرؤية، برغم معاناتي من بعد النظر.

المرة الأولــى التي كنت قد ختمت فيها القــرآن كانت في العطلة الصيفيــة عام ١٩٦٥. كنــت أتلقى وابن عم لي دروساً على يد الشيخ محســن السعد فــي جامع شقيقــه الشيخ عبــود السعد فــي البصرة؛ تركّــزت الدروس أولاً في الفرائض ومعها قــراءة القرآن قبل أن أنتقل معــه الى مرحلة أخــرى درست فيها بشكل مبسّــط جانباً من التاريخ واللغة.

مــرّات كثيــرة أتممــت فيها قراءة القــرآن وبعض كتــب الحديث وكتــاب نهج البلاغة، وترافــق مع ذلك إعادة دائمــة لديوان المتنبي وحماســة أبي تمــام وكتاب الف ليلــة وليلة ورواية أبــي مخنف عن مقتــل الإمام الحسين قبل أن أتعرف على الأدب الحديث، في مرحلة الدراســة المتوسطــة، والدخــول في عالم شعــر وروايــات وفلسفة الثقافــات الأخــرى المترجَمة الى العربية، ومعها بقــي القرآن يشكل أكثر من حاجة لي.

لا أدري كيف ستكون قراءة القرآن في السجن!

قرأت مرةً أن دوستويفسكي في كتابه (ذكريات في بيت الموتى) كان يستعين بالإنجيل في السجن للتغلّب على فظاعة التعذيب وتدميره للذات الإنسانية.. لكن دوستويفسكي كان يحمل في دخيلته إنجيله الذي يحمي حياته الروحية من الانتهاك الذي تطمح إدارة السجن إلى بلوغه.. وكان مثل هذا يحدث في تاريخنا العربي الإسلامي مع كثير من رجال الفكر والتدين والتصوّف الذين يسعى جلادوهم إلى تدمير مناعاتهم الفكرية والاعتقادية عبر النيل من حرمة أجسادهم وسماحة أرواحهم.

اعتدت أن أقرأ القرآن بمقاصد مختلفة في كل مرّة عن سابقتها. اليوم وفي هذا الفراغ الكبير وبقصد التوفر على انشغال يخفف عبء القلق والتحسبات والوساوس فكّرت أن أقوم بقراءة نحوية للقرآن، سأحاول معها إعرابه كاملاً، قدر ما أستطيع، من دون مَراجع الشروح والتفسير وكتب الإعراب التي أنفق فيها مؤلفون مسلمون من عصور مختلفة جهوداً كبيرة لتعين القراء والدارسين في الوقوف على معاني النص القرآني.

حين جاء الطباخ بالغداء، ارتحت لانتهاء الدوام النهاري للمحققين، وازددت اطمئناناً بصواب تحليلي الأخير لمشكلة زيدون النجار..

فتح الحارس نافذة باب الزنزانة وذهب ليفتح نوافذ أخرى، لم يكن الطبّاخ قد وصل إلى زنزانتي، بقيتُ على النافذة لدقيقة، كانت أمامي نافذة السيدة مفتوحةً ولم تكن هي هناك، أقلقني ذلك لكن تبيّنتُ بعد حين أنها كانت بعيدة عن النافذة، في ظلام الزنزانة

تراقب انتظـاري، حيّتني بحركة من رأسها ورفعــت كفّيها في إشارة إلى الدعـاء لله. تألمت لحالها، واضطررت إلى الالتفات الى الخلف لأمســح دمعة لم أرد أن تراها، عدت إليها، وكانت تتسلّم من الطباخ وجبتهــا، ودعتُها بابتسامة، حرصتُ علــى أن لا تكون مفتعلة لتعزيز ثقتها وشجاعتها على المقاومة.

(١٦)

لم أكن قد أنهيت وجبة غداء الرز المرشوش بمرق البصل مع قطعة خبـز حتى وقف الحارس الشاب على بـاب زنزانتي، ناداني بصوت خفيض ما إذا كنت قـد أتممت غدائي، ومع النداء فتح باب الزنزانة، لم يتكلـم، كانت عيناه تتحاشيان النظر باتجاهـي، لكن طبيعة وقفته تؤكد على أن أخرج، ليجري عصب العينين وتقييد اليدين.

فوجئـت بالاستدعـاء فـي مثل هذا الوقـت الذي عـادةً ما يكون فاصـلاً بين وجبتـي الدوام الصباحيـة والمسائية. لـم يحدث خلال الأيـام الماضية أيّ استدعاء من قبل التحقيق فـي مثل هذا التوقيت.. لم أذكر أيضاً أنه جرى جلب أي موقوف جديد خلال هذه الساعات التي يستغلها الحرس ليناموا وينتفع منها السجناء في كسب ساعات اطمئنـان. في مثل هذه الساعات يكـون المسؤولون والمحققون قد غادروا إلى بيوتهـم ليعودوا بعد الخامسة، كما خمّنت ذلك بالقياس إلى ما يحـدث لكبار الموظفين في وزارتي الثقافة والإعلام والدوائر المرتبطـة بهما، وهو إجراء دأبت عليه دوائـر مهمة منذ الثمانينيات، تأكيـداً للالتزام بتخصيصـ كل الوقت للعمل والبنـاء المعضّد لجهد الجيش الذي يمنح كل وقت جنوده للحرب في جبهات القتال.

كان الحارس يقودني صامتاً، سألته:

- أين..؟ ماذا رجاءً؟

- لا أعرف، لقد طلبوك.

- ....

- أنا آسف، توجد كاميرات تصوّرنا.. لا ينبغي أن أتكلم معك.

- أقدّر ذلك.. عذراً.

قبل أن ننزل درجات السلّم إلى الطابق الأرضي، سمعت صوتاً من الأسفل تحدّث مع الحارس:

- ها، تأخر.. هل تركته ليكمل زقومه؟

- لا..

- تعال.. تعال!

كانت قدمٌ لي على الأرض والأخرى ما زالت على الدرجة الأخيرة من السلم، حين تلقّيت ضربةً وقعتُ معها إلى الخلف، ارتطم رأسي بالجدار الجانبي للسلم الذي تكوّمت على درجاته، وحين أفقت بعد ما لا أعرفه من الوقت وجدتُني ممدداً على أرض لم أتبين معها ما إذا كنت في الزنزانة أم في مكان آخر، لا أحد في المكان سواي.

شعرت بعطش شديد. لم أقوَ على النهوض. ومع ضوء مصباح كان يتدلى من سلك في سقف المكان عرفت أني لست في الزنزانة. بالتأكيد سيعودون لتبدأ دورة التعذيب من جديد. تنبهت إلى أني كنت أفقت من غيبوبتي التي كانت على السلّم، وما أن أفقت حتى تعرضت لضرب فقدت بعده الوعي تماماً. لا أذكر شيئاً مما حدث، لا أذكر أني سُئلت عن شيء أو تكلّمت بشيء. بدأ الألم يتحرك في كل مكان في جسدي. لم أستطع إلا أن أصرخ بصوت بدأ قوياً ثم أخذ بالتلاشي. سمعت خطاهم تهرول نحوي، كنت ممدداً على الأرض وكان النصف الأيمن من وجهي على البلاط البارد حين وقفا جنبي يحدّقان فيَّ، سمعت أحدهما:

- لا شيء، ما دام قد صحا وصرخ، لا شيء.

- حرّكه! ربما كسور.

طلب مني أحدهما أن أنهض، لم أجبه ولم أتحرك. تعاونا من أجل إيقافي وتحريكي. شعرت بآلام شديدة، لم أقوَ حتى على الصراخ.

- لا شيء، لا شيء

- المفروض تعرف أنهم لا يريدون أيَّ أثر عليه! كنتَ أحمق، وكان يمكن..

- انزعجت؛ إنها المرة الأولى التي يطلبون (الرياضة) في مثل هذا الوقت. المفروض أنا الآن في البيت لو لا هذا الكلب. هذه هي المرة الثانية التي يبعثون به إلينا خارج وقت الدوام.

- المفروض نطالب بأجر ساعات إضافية.

- خابر الحارس ليأخذه.

عدتُ ممدداً على الأرض؛ كان هواءٌ بارد يدخل من الباب، هواء يختلط بالألم وبروائح الكراهية ومشاعر الظلم والخوف من تطورات تالية، ومما إذا كنت قد تفوهت بشيء أو جرى توقيعي على شيء. كان الألم قادراً على إزاحة هذه التداعيات، وكان صوت مذياع يأتي من الممر بموسيقى أغنية من أغاني الحرب، كان صوت الكورس هادراً في الغناء عن العراقي الذي يفنى حتى لا يمس معتدٍ محبوبته!

وفيما كانت رائحة دخان من سيكارتي الرجلين تملأُ أنفي كان ما يشبه الحلم يجيء لي بصور غامضة للأولاد ولزوجتي.

متى تقع الحرب يا إلهي؟

(١٧)

لـم أنقبض في الحبس من شيء قدر انقباضي من حركة مفتاح في قفـل، انفتاح باب الزنزانة، حركة حارس فـي الممر باتجاه الزنزانة، جلجلة المفاتيح والأقفال، مناداة على سجين.

كم تمنيت لو يبقى باب الزنزانة مغلقاً حتى الأبد. لماذا لا يتركوننا هنا وراء هذه الأبواب المقفلة، لا أريد، ولم أفكر بالإفراج المستحيل.

هذا الباب لا يُفتح إلا من أجل عذاب معنوي أو جسدي. سيكون انقباضي هذا على الضد من كل تمنيات السجناء الذين ينتظرون عادةً أبواباً تُفتَح وأقفالاً تتحطم؛ لا تبعث جلجلة المفاتيح على أمل، لكنها تستنهض الخوف من تعذيب أو تحقيق هو أسوأ من التعذيب نفسه، بينما يضع انفتاحُ البـاب السجينَ في مواجهة مع وجـه سجّان يريد إبداء أشد مشاعر العداء للسجين حتى يُبقي على المسافة التي تحفظه في دائرة الأمان من احتمال الشك والارتياب منه.

لعـلّ نصب الحرية الـذي وضعه جواد سليم في قلـب بغداد يعبّر عـن تلك الفكرة التي يتمناها المحبوسون في حينه، في سنوات حياة الفنـان، أو المتصوَّرة عن أحلام السجناء، وهي فكرة شائعة عن حلم الحريـة عندما وضع الفنـان الذي توفي قبل اكتمـال عمله جندياً في قلب النصـب العظيم وهو يحطّم أبواب سجـن لتنطلق طيور الحرية والسلام.

هـذه فكرة رومانسية عن الحرية قد أجد لجواد معها مسوّغاً حين

لـم يكن يدور في خياله سجنٌ مثل سجن (الحاكمية) الموضوع أيضاً في قلب آخر لبغداد التي تعددت قلوبها مثلما تعددت عذاباتها.

مثـل باب أي موقـف في مركز شرطة لموقوفـي الجرائم الجنائية وسواها، هكذا يبدو بـاب السجن الذي يحطّمه جندي جواد سليم، بـاب لا يتعدى كونه قضباناً حديدية مفتوحة علـى الفضاء، أي فضاء ولـو كان فضاء سجن. تلك القضبـان تسمح للعين بالسفر إلى خارج السجـن، وتسمح للشمس وللهـواء بالنفاذ الى داخلـه، ربما كانت الفكـرة منها توفير مجال الرؤية والمراقبـة، مجال يكون فيه السجن مكشوفاً والمسجونون مكشوفيـن للحارس الذي كان عادةً ما يغفو وينـام ساهيـاً، باطمئنان، عـن سجنائـه المنشغلين بالقـراءة أو لعب الشطرنـج بقطع تُصنع وتُعوَّض عنـد تلف إحداها من بقايا لبِّ الخبز أو المنهمكيـن بصنع حقائب يدوية من خـرز النمنم ليقدموها هدايا لزوجاتهم وشقيقاتهم عند زياراتهن المنتظمة إليهم.

قـرأت قبل سنوات كتاباً هـو أقرب إلى سيرة مثقف وجيل وضعه الشاعـر والكاتب فاضـل العزاوي؛ وحيـن كان الشاعر يتحدث في هـذا الكتاب عن عذاب سجن بعقوبة وسواه من سجون دكتاتوريات الستينيـات العراقية، كنـت فعلاً استشـفّ العذاب المعنـوي لشبان مثقفيـن يوضعـون في سجن، لكـن هذا العـذاب سيكـون فردوساً مـع تطور أنظمـة السجون وعذابهـا وتحطيمها الكرامـة الإنسانية. وبالتأكيـد لا أريـد بهذا أن تسوّغ شـدةُ البشاعـة المستحدثة بشاعةً سابقـة أخفّ، لكن هـذا سيكون أكثر مدعـاةً إلى التفكيـر برؤية ما زالـت مترددة فـي البحث عن مسؤوليـة هذه الشراسـة المتنامية في القمـع والإذلال عن التبـدلات الحاصلة في الظاهـرات الاجتماعية

والتحــول في نمط سلــوك الأفراد والجماعات خــلال حياتها تحت نير الدكتاتورية وطغيانها وما تفرضه تلك الحياة من عادات وأعراف وسلوكيــات جديدة على الناس، هذان التبــدّل والتغيّر اللذان عادةً ما يتفاجأ بهما عراقيون عائدون إلى البلد بعد عقود من الهجرة والنفي، وهي عقــود تركت آثارها أيضاً، بمستوى آخر، على هؤلاء العائدين. الخوف يحطّم كل شيء، بينما التحسّب من الخوف لايقلّ هو الآخر فداحةً من الخوف نفسه.

وفي السجن، كمنظومة منــع وتقييد، قد يكون الخوف أقل حدة من سجن إلى آخر، لكــن السجن يفرض تقاليد وطباعاً وردود أفعال متغيّرة. أستعيد هنا فيلم (التجربــة) لمخرجه الأمريكي بول شويرينغ الــذي جمع فيه ستــة وعشرين شخصاً توزعت بينهــم أدوار السجناء والسجانين من أجــل مراقبة ما يحدث من تغيّر على سلوكهم (سلوك الشخصية الحقيقة وليــس الشخصية التمثيلية) الذي تنمو فيه مشاعر عدائية ضارية تتحول إلى عراك وشجار متواصل. لم يكن الفيلم نتاجاً لخيال مؤلف ومخرج لكنه كان يستلهم تجربة عملية قام بها فريق من باحثين مختصين وطبقوها في سجن ستانفورد عام ١٩٧١.

يتكــوّن سجــن (الحاكمية) من عدد من الطبقــات، ثلاث أو أربع لــم أستطع تقديرها برغــم اجتيازي السلّم الضيــق عشرات المرات، وحتــى حين زرته لمدة ربــع ساعة بعد سقــوط الدكتاتورية، بإلحاح من أصدقاء، لم أفكّر بعدد تلك الطبقات. كان كلّ طابق منفصلاً عما سواه، وكانت كل زنزانة تنفصل عن محيطها في الطابق والبناية، بناية السجــن التي وضعت مقابل دائــرة الجوازات. وقد كان من المفارقة التي تضاعــف مفارقةَ تَقابُلِ السجن، كمكان للحبس وتقييد الحرية،

ودائـرة الجوازات، كمكان للانطلاق والتحـرر من أسر المكان، أن يكون السجن تابعاً للمخابرات بينما الجوازات مرتبطة بالأمن العامة التي فُكّت صلتها بـوزارة الداخلية لترتبط مباشرةً برئاسة الجمهورية مثل جهاز المخابـرات ودائرة الاستخبـارات العسكرية التي أُنهيت صلتها بوزارة الدفاع.

الآن، بعـد هذه السنوات العشر علـى حادث الحبس، أمرّ بشكل يومي تقريباً علي طريق الخط السريع. انتبه الصديق الكاتب والباحث قاسـم محمد عباس في إحـدى المرّات التي كنا فيها معـاً إلى أني ما زلـت أستدير باتجاه بناية سجـن (الحاكمية) كلّما كنا بموازاتها على الطريـق السريع. وفعلاً ما زلت أنظر يومياً باتجاهها، غير منشغل بما مضى، ولكـن بنايتها التي ما زالت صماء مغلقة، تبدو، وهي محاطة ببنايـات محطمةٍ بتفجيرات الحرب أو العنف الذي تلى الحرب، في دوامة من الخوف المتبادل بينهـا وبين عالمها الخارجي؛ هي صماء مغلقة متحسّبة مـن هذا العالم ومتشككة فيه فيما المحيط ينظر إليها بقلـب منقبض وبوجدان منكسـر وبذكريات محطمـة. لا أدري ما الحكمـة من بقاء مثـل هذا المبنى بالوظيفة ذاتهـا وسط أحياء سكنية وبإطلالـة ليست بعيدة عن ملعـب الشعب الدولـي، الملعب الأكبر لكرة القـدم في البلد، من جانب، والمبنـى المتواضع لاتحاد الأدباء والكتّاب في العراق من جانب آخر.

فـي داخل الزنزانة كثيراً ما كان أقصى حلمي هو أن أُحاكَم وأنتقل محبوساً لسنوات في سجن أبي غريب. السجن هناك هو حلم المقيم هنا الذي لن يَرِدَ في خاطره مجردُ التفكير بالبراءة والتحرر من حبس (الحاكمية).

لا أحـد في هـذا السجـن إلا ويحـاط بغلالة من الخـوف. كان الحارس الشاب، وهو ينقلني إلـى غرف التعذيب محقّاً، عندما كان يعبّر عن خوفه من كاميرات مراقبة موضوعة ليس تحسباً من احتمال شغب سجناء فـي السجن المحكم وإنما لمراقبـة السجانين وعمال الخدمـات والموظفيـن والمحققيـن والمدراء ومدير عـام السجن. وسـوى الكاميرات، فإن هؤلاء هم في وضع تراتبي متداخل في مهام المراقبة: المدير يراقب الجميع بينما يمكن أن يكون فراش أو معاون المدير العام يراقب المدير العام، وهكذا يتكرر ويجري تبادل وتوزيع الأدوار الرقابيـة التـي يكون معهـا الجميع في وضـع مراقبة من قبل الجميع. بعـد سقوط النظام وحل جهاز المخابـرات عرفت أن شاباً قريباً من عائلتنا كان موظفاً في سجن (الحاكمية) في الفترة ذاتها التي كنـت فيها موقوفاً فيه، كان الشاب ينهي دوامـه على مبعدة أمتار من زنزانتي ليذهب بعده فـي أغلب الأيام إلى بيت والدي مستفسراً عما إذا كانـوا قد توصّلوا إلى معرفة مـكان حبسي الذي كان يعرفه، لكن الخـوف يمنعه عـن البوح به ويضطرّه إلى تمثيـل دور الجاهل. وفي أحدى الجلسـات التحقيقية أراد النقيب حميد، فـي لحظة إنسانية، التهويـن علـيّ فتحـدّث لي عـن أن الجميـع معرّضون للمـرور هنا كسجناء، واستشهـد على ذلك بما كان قد حدث لواحد من المدراء العاميـن السابقيـن للسجن حين أوقـف هنا، وجـرى التحقيق معه، وزجُه فـي زنزانة، مثلما يحدث لي تماماً. لقـد أراد الرجل التهوين، وهـذا ما أنا واثق منه، ولم يكن يريـد مضاعفةَ الرعب في داخلي من شبكة الخوف الذي تحيا عليه وفيه هذه البناية.

كنـت تحدّثت قبل صفحات عن الخـوف المفاجئ الذي انتاب الشاعـر سعد أرشـد في لحظة مصارحة بيننا؛ خـاف من بيته ومكتبه

وسيارتـه، ومن شبـح الكاميرات واللاقطـات الصوتيـة، وكان هذا الخوف صورة لتمدد (الحاكمية) ونظامها القائم على تنمية الخوف ومضاعفتـه في كل مكان.هذه هي فلسفة الحكـم القائمة على إدامة شبح لها في داخل كل فرد، شبح الخوف الكفيل بترويض أي تفكير، حتى مجرد التفكير مع النفس.

لقد تمدّدت ((الحاكمية)) فغطّت البلادَ كلَّها.

(١٨)

بعد عشرة أيام من الحبس الانفرادي في هذه الزنزانة، بمائها الساخن وحشراتها وديدانها وعتمتها وكوابيس الوحدة فيها، بدأت أشعر بالنحول والإعياء.

لا أذكر مرة قَدِمتُ فيها إلى الطعام بشهية وبرغبة جائع. كنت أدفع بي إلى الأكل مرغماً تحسباً من انهيار صحي. حاولت إجراء تمارين رياضية، مستذكراً ستيف مكوين في فيلم (الفراشة) الذي كنت قد شاهدته بحدود خمس مرات، ففي واحد من أكثر مشاهد الفيلم أثراً في نفسي كان مكوين في زنزانة معتمة تماماً، وحين فُتح الباب مرّةً سقطت حزمة ضوء على بقعة دم انطبعت على جدار، كانت البقعة في الموضع المقابل لجبهة مكوين التي كانت تصطدم بذلك الجدار وهو يمارس رياضة المشي في الزنزانة المعتمة ليهيئ جسمه وطاقته لهروب محتمل في أية لحظة. لا يمكن هنا أن أفكر بهروب، لكن الخشية من انهيار الجسد هي الدافع لتلك الرياضة التي لم أكن قد اعتدت عليها. بدت البيجامة أعرض على جسمي مما كانت عليه في الأيام الأولى. تمرّ يدي على لحيتي وقد استطالت. أظفاري هي الأخرى سريعة النمو فاستطالت. لا مرآة، فقط حاولت تخيل هيئتي بمثل هذا الحال فلم أفلح في ذلك.

سمعت المناداة قبل الغداء باسمي (١٦)، فتهيأت لدورة تعذيب جديدة. كان الحارس، هو الآخر جديداً، لم أره من قبل،

ليس هو الحارس الشاب، ولكن من حسن الحظ أنه ليس الحارس الفظ. حين أخرجني من الزنزانة سألته مباشرة:

– ها، تعذيب أيضاً؟

سمعت السيدة، يبدو أنها سمعتني فتنهّدت بألم في زنزانتها، وهي تقول معقّبة:

– لا إله الا الله!

فيما رد الحارس عليَّ:

– من دون كلام، محقّقك يريدك!

أمرٌ لطيف! في الأقل صرت أملك شيئاً ما هنا، أملكُ محقّقاً. لا أعرف من هو محقّقي، لم يأتِ النقيب حميد على بالي. حين دخلت عليه، أمر الحارس برفع العصابة عن عيني، ثمّ أمره بالانصراف.

بدا منذهلاً، طلب مني أن أجلس على كرسيّ كان على مسافة من مكتبه، ففعلت، وبقي هو صامتاً ينظر باتجاهي، لم تخفِ ملامح وجهه انقباضَه وحزنه:

– ماذا؟ ما الذي حدث؟

– ....

– لقد تغيرتَ كثيراً! كلّ شيء فيك قد تغيّر، مسُحيل هذا يحدث في عشرة ايام.

– هي عشر سنوات..

– أنت حساس أكثر مما يجب.. ماذا تفعل بنفسك؟

– أنا في مكان وحال لا أتمناه لأسوأ اعدائي. ماذا تتوقع مني؟

– لماذا؟ ما أكثر ما يقلقك؟

– قلقي على والدتي؛ كبيرة في السن، هذا كثير عليها، لا تحتمل خبر كوني في السجن.

– اطمئن.. إن كان هذا هو فقط السبب في حالك، فاطمئن، بشرفي، كل أهلك وعائلتك بسلام.

كيف يطمئنني؟ هل وصل إليه أحد من أهلي أو من أصدقائي.. ؟ مستحيل. لو حدث هذا لما أبلغني بهذه الصراحة عنهم. لكن حتماً أهلي وعائلتي وأصدقائي مراقَبون الآن، وحتماً كل أخبارهم تصل أوّلاً بأول. كان النقيب يتحدّث بهمس، ولاحظت أنّه حين يتحدّث بشأن خاص يدير وجهه، وكأنّه يتحدث مع آخر سواي. طلب مني أن لا أقترب حين حاولت تقريب الكرسي لأسمع همسه:

– ابقَ مكانك. لا تقترب، وإن دخل أحد فقد أضطر إلى التحدّث معك بلغة أخرى قاسية!

– أنا أشكرك، هذا لطف لن أنساه.

– ما عليك..

– ولكن ماذا عني، هل أبقى هكذا؟ أحال إلى محكمة؟

– أنت عقّدتَ الموضوع. وأقسم لك للمرة الثانية بشرفي أن الجميع هنا متأكدون من تلقيك الرسالة.. موضوع العميد وصاحبه حُسِم. سيحالان إلى القاضي. أنت عقّدت الوضع بالنكران.

كنت مسروراً ليس لأن اللقاء تجاوز حدود التحقيق وأصبح فرصة لي لاستجوابه أكثر مما هو يستجوبني حسب، وإنما لسبب آخر حضر بقوة غير معقولة، لقد تنبهت إلى أنه لم يمرّ بموضوع

زيدون النجار وما قاله لي مدير القسم. كان استنتاجي صحيحاً إذاً، حمدت الله أني لم أُستدرَج إلى هذا الفخ الذي كنت سأندم عليه طوال حياتي. ليس أمامي سوى مواصلة نكران الرسالة. صحيح أن النقيب حميد يتحدث عن تعقيدي الموضوع، لكنه لم يبدِ حماسةً تُذكَر لأن أعترف بالرسالة. في داخلي شعرت أنه موافق بصيغة ما على نكراني الرسالة، ولكن لماذا هذه الإيجابية التي يبديها النقيب منذ أول لقاء معه. نعم كان مزعجاً جداً في دقّته المهنية في أول تحقيق له معي، لكنه بقي يحتفظ بمساحة احترام واضحة. هل يكفي تقديره لي شاعراً ومثقفاً ليبدي كل هذا التعاون في مثل هذا المكان؟ لا أدري!

– صدقني لم أتسلم أية رسالة.

– هل تعتقد أن القاضي سيقتنع بما تقول إن اقتنعت أنا وصدقتك؟ مع هذا لننتظر ولنرَ!

فكرت أن هذه مناسبة أخرى يتبرّم فيها النقيب من نكراني الرسالة، لكن لهجته لا تبدو معها ضاغطة من أجل الاعتراف بها، بل بدا لي استدراكه الأخير عن الانتظار مشجعاً بصيغة ما على نكراني ومحفّزاً من أجل مواصلته، سألته:

– هل ستتحول أوراقي إلى القاضي؟

– ليس بعد.

– هل القاضي هو من يحاكمني؟

– سيصادق على أقوالك، وقد يحيلك إلى محكمة و..!

هز كتفيه وبقي للحظات محدقا في سقف الغرفة من دون أن يكمل جملته، سألته:

- وقد..؟

- قد يغلق التحقيق ويعفو عنك، وقد يطلب إعادته إن لم يقتنع بإفادتك وبسير التحقيق.

- ....

- كيف عالجت مشكلة الماء عندك في الزنزانة؟

ختم هذه الجلسة بهذا السؤال البعيد عن سياق الحديث والجلسة، مبتسماً بمكر مَن يريد القولَ إنه كان يعرف بموضوع الماء الحار وقصديّته في الزنزانة. نهض من مكانه، استعاد جديّته التحقيقيّة، ونادى على الحارس، أمرني بزجر لانتظاره في الممر. بقيا يتهامسان. ولم أتبين ملامح المقدم إبراهيم حين مرّ بي فقد كنت معصوب العينين في الممر، ميّزت صوته حين قال لي وهو يمضي بخطى سريعة:

- ها أفندي.. الآن بدأتَ ترى جيداً أم بعد؟

- ....

(١٩)

كان آخر ما نظرت إليه في الزنزانة بيت الشعر المنسوب للإمام الشافعي: (ضاقتْ فلما استُحكمت حلقاتها / فرجت وكنت أظنّها لا تفرجُ).

تحت إبطي البطانيّتان، وفي كفي اليمنى الورقة والقلم اللذان لم يسأل عنهما مدير القسم، وأمسك باليسرى الإناء متعدد الاستخدامات، بقيت عند الباب للحظات أحدّق في البيت الشعري. حاولت للمرة الأخيرة أن أقرأ اسم السجين الذي وضعه، فكان ذلك مستحيلاً. ربما أُعدِم بعدما وضع البيت، وربما فرجت له من بعدما كان قد ظنّ أنها لا تفرجُ! لا أعرف، لكزني الحارس بكتفي:

- ها، تبدو لا تريد مغادرة الانفرادي..؟

- لا، لا.. عفواً.

تركنا الباب مفتوحاً.

مع الضوء في الممر لاحت لي الزنزانة، وأنا ابتعد عنها، شديدة الظلام، لن ندرك هول العتمة إلا حين نكون خارجها، بدا الممر طويلاً جداً حتى خُيِّل لي أنه نفق لا ينتهي، مع هذا فقد انتهى بصورة كبيرة لصدام حسين وضعت على حائط يغلق الممر بعد آخر بابي زنزانتين مقفلتين، كان صدام يرتفع في الصورة على محيط هادر من جماهير كانت بلا ملامح واضحة. حانت مني التفاتة لا إرادية نحو زنزانة السيدة، فكّرت أنّ من الممكن لكلام الحارس أن يوهمها

فتتصور أني قد أطلق سراحي، وحتى أُوصِل معلومةً إليها عن كوني ما زلت في الحبس وأن ما يحصل هو مجرد تغيير زنزانة بزنزانة أخرى، فقد سألت الحارس بصوت عالٍ:

– إلى أية زنزانة سأنتقل؟

– سنرى، هذا شغلي وليس شغلك.

– حسناً، المهم أرجو أن لا تكون زنزانتي الجديدة انفرادية مثل هذه.

ابتعدنا عن زنزانة السيدة وتناهى لي صوتها واهناً وانتهى بحسرة:

– منْهُ الفرج وإليه المصير.. يا ألله.

وقف الحارس عند باب زنزانة وأراد فتحه، تردد للحظة، ثم رجعنا إلى زنزانة مجاورة لزنزانتي، فتح الباب بعدما كان قد تطلّع في الزنزانة عبر نافذة الباب الضيقة وقد فتحها أولاً، فكانت الصدمة.

بشر.. بشر، يا إلهي! هنا أرى بشراً وكأنني لم أرَ آدمياً منذ سنين.

تبقى لرائحة البشر، مهما تلوّثت بمكان وظروف، ألفتُها. يبقى للوجود البشري رائحته السرية التي لا تُستنشَق ولكن تعاش، تلك الرائحة التي توحّد الناس في المشاعر والوجدان وفي المصير في ظرف ما. تشمّمت هذه الرائحة في انفراج أساريري وما قابَلَها من أسارير تفتّحت وهي تستقبل وافداً جديداً. أحسست، من دون أية مبالغة أدبية قد تفرضها الكتابة، أني على باب جنة وليس عند مدخل زنزانة لا تقلّ عتمةً عن زنزانتي السابقة، وقد وُضِع فيها ستةُ مسجونين، حتى بدا الرجال وكأنهم حشروا في علبة هي أضيق من مقاس أيٍّ منهم وليس جميعهم، لكن الوجود الإنساني المشترك،

في مكان أُقيم من أجل تدمير الشراكة الإنسانية وقطع المرء عن الجماعة، ستكون له القدرة على توسيع رحابة المكان، وتعميق تلك الرائحة السرية التي تحيل جهنّم الحبس إلى فردوس، فردوس الوجود الإنساني الحميم.

سألني الحارس:

– هل فيهم أحد يشترك معك في قضيتك؟

– لا أعرف الذين معي في قضيتي.

– لا، ليس فيهم أحد من قضيتك. انظر إليهم جيّداً، هل فيهم من تعرفه أو التقيته سابقاً في أي مكان غير هذا السجن؟

– لا أعرف أحداً.

سأل المسجونين في الزنزانة ما إذا كانوا يعرفونني، أو شاهدوني من قبل، أو التقوا بي، وحين أجاب جميعهم بالنفي، طلب مني الدخول. شكرته بصوت يمكن أن تسمعه السيدة التي ما زالت زنزانتها قريبة من زنزانتي الجديدة:

– شكراً، ممتن. ولكن رجاءً ما دامت زنزانتي السابقة قريبة، هل أستطيع أن آتي منها بإبريق الماء؟

لن تحتاج إليه، المؤجّر الجديد سيحتاج إليه أكثر منك.. ادخل!

أُغلق الباب وأُحكمت الأقفال. كان جميع مَن في الزنزانة ما زالوا واقفين، في انتظار أن يُغلق الباب ونافذته ويمضي الحارس، من أجل الترحيب بي ومصافحتي: محمد، حاج حسين، رياض، أبو تحسين، علاء، خميس.. قدّمت لهم نفسي، فسألني محمد وهو يركّز النظر في وجهي:

– لا وجهك ولا اسمك غريبان عليّ؟

– المصادفة، عيني أبو جاسم. ربما يسمعك الحارس، قبل قليل أنكرت معرفتي!

– لا، طبعاً، أنا فعلاً لا أعرفك ولم أرك، ولكن أقصد الشبه.

كان واضحاً منذ هذه اللحظات أن محمد هو صاحب الحضور الأقوى في الزنزانة، أحسست بارتباكه ولباقته معاً وهو يجيبني ويتفادى خطأه، وفيما كنت أصغي إليه وأجيبه، كان كل تفكيري ينصرف باتجاه آخر، نحو حاسة الشمّ.. هل هذا معقول؟ أنا أشمّ رائحة موز وعطر تفاح هنا في هذه الزنزانة.

منذ الثمانينيات، ومع تواصل الحرب العراقية الإيرانية، قرّرت السلطة، حيث هي المستورد والمصدّر الوحيد في البلد، منعَ استيراد الموز والتفاح إلى البلد حفاظاً على العملة الصعبة. كان سائقو الشاحنات التي تحمل العتاد والمؤونة الحربية عبر السعودية والأردن والكويت يأتون بكميات محدودة من الموز والتفاح لتجد طريقها إلى السوق السوداء بأسعار فاحشة وليتعذر حتى على متوسطي الدخل التعاملُ معها. وحين بدأ الحصار، كان لا يتاح إلا لمن يسافرون إلى الأردن أن يأتوا بكمية منهما بالكاد تسد حاجة عوائلهم ليوم واحد أو يومين. في فترة الحصار أرخت السلطة قبضتها على الاستيراد والتصدير وسمح لتجار بذلك ولكن في مجالات أخرى ضرورية وليست (كمالية)، وهذا ما فرض نظاماً متشدّداً في طبيعة المواد المستوردة، بينما كانت مداخيل الناس أصلاً لا تعين أي تفكير باستيراد ليس الموز والتفاح وإنما الكثير من المواد الغذائية، ناهيك عن الحلوى والشوكولاتة. أتذكر في سفرة لي إلى عمان عام

١٩٩٤ كانت هديتي للعائلة والجيران والأقرباء هي أرغفة من الخبز الأبيض. جئت بكمية تكفي لرفع الحرج أمام الجميع الذين ينتظرون هدايا مسافر، وفعلاً كانت سعادة الجميع لا تُضاهى مع نصاعة الخبز الأبيض الذي أبعد عن ما لا يقل عن خمسين شخصاً، وليوم واحد، محنتهم مع ذلك الخبز الأسود، خبز الحصار الذي اضطُرّت إليه العوائل وهو يعدّ من دقيق اختلطت فيه أردأ أنواع الحنطة مع الشعير ونوى التمر مع نخالة الطحين والتراب. كان الناس يعرفون بهذه الخلطة الغذائية وكانوا مكرهين على قبولها، لا خيار!

لم يُسمَح باستيراد الموز والتفاح إلا بعد الانفتاح النسبي الذي شهده سوق المواد الغذائية في أعقاب الموافقة القسرية للنظام على تطبيق مذكرة التفاهم مع الأمم المتحدة التي عُرفت باسم أسخف منها ومن الحصار ومن الموقّعين عليها (النفط مقابل الغذاء والدواء). لكن حتى مع هذا الانفتاح وتوفّر الموز والتفاح إلا أن هاتين الثمرتين بقيتا حكراً على المقتدرين مالياً. كانت جهود الفقراء تتركز في توفير الحاجات الأساسية من الغذاء اليومي والتقتير في استخدامها مع تضاؤل كمياتها في الحصة التموينية الشهرية وضعف القدرة الشرائية مع الانهيار المستمر للعملة وبقاء المرتّبات والأجور على حالها، بحيث لم يبق أي مجال في تفكير الفقراء للانشغال بـ(اكسسوارات) الأكل من فواكه وسواها.

لقد روى لي صديق في إحدى المرات، وما كان قد حصل له مع أطفاله حين جاء إليهم بموز، وهي المرة الأولى التي يرون الموز فيها. يقول ما ان ذاق أكبرهم، وكان بعمر أربع سنوات، الموزَ حتى رمى به وتقيأ، وهو يقول: هذا دواء. لقد اختلط الأمر على الصغير الذي

تخدعـه شركات الدواء عادةً فتقدم لـه منتجاتها الدوائية بطعم الموز لتسويغهـا له، فبات الأصل عنده هو الدواء الذي تعرّف فيه أولاً على هذا الطعم الذي يأتيه الآن بهيئة ثمرة يجهلها اسمها الموز.

بقيت في الزنزانة أتشمّم قبل أن أسال محمد:

– لديّ سؤال رجاءً وأتحرّج منه!

– لا، تفضـل اسأل، فأنت تنتظرك منّا قائمـة طويلة من الأسئلة.. لماذا الحرج وليس لنا هنا سوى الكلام؟

– شكـراً، احببت ان أعرف هل أنا اختلط الأمر عليّ وعلى حاسة الشم عندي.. أشم هنا رائحة موز وتفاح؟ هل فعلاً هذا حقيقة؟

ضحـك محمد وضحك الآخرون الذين التفتوا نحوه وظلوا، في ما بدا، ينتظرون الإجابة منه:

– نعـم حاسة الشم عنـدك طبيعية. نحن يـدو تآلفت حواسنا مع الرائحة فلا نشعر بها. نعم إنها تفاح وموز و..

قاطعته جادّاً وباستغراب واندهاش:

– وهل يعطونكم هنا تفاحاً وموزاً؟

– لماذا، ألم تستلم أنت؟

عاد محمد ليضحك، قبل أن يستدرك، معبّراً عن حرج واحترام لا يسمحان بالمزاح بعد:

– أنا أمزح، عذراً! لكنْ فعلاً هنا موز وتفاح، وستأكل أولاً قبل أن تعرف قصتهمـا. أي سجن هذا الذي يمكن أن يوزع موزاً وتفاحاً يا اخي؟ كنت أمزح، هذا ليس من السجن. كُلْ، ثم تأتيك القصة بعدما نُنهي أسئلتنا معك.

تناول محمد مــن ثنية في بطانيته عدداً من أكياس النايلون، أخرج مــن واحد منها قطعة مــوز، ومن آخر تفاحةً، ومــن ثالث حبات تين مجفّف.. قطّع الموزة إلى سبع قطع متساوية:

- من الآن تتحول الحصص إلى سبع بعدما كانت ستاً!

قال ذلك وهو يوزع القطع المتساوية على الجميع، ثم ابتسم لي:

- اعذرنا أحيانا تكون العدالة ظالمة. من حقك اليوم قطعة كاملة، لكن هذا هو قانون الزنزانة (٣٢).. كلّ شيء بالتساوي.

- أولاً شكــراً جزيــلاً، هــذه ألــذ مــوزة آكلها، لكــن فهموني ما الحكايــة.. ؟ ثــم ماذا عــن رقم الزنزانــة؟ هل الزنازين هــي الأخرى مرقمة؟

- طبعاً، أنت في أي زنزانة كنت؟

- لا أدري. هي المرة الأولى التي أعرف فيها أن الزنازين مرقمة. كنت في زنزانة انفرادية.

- كلْ، ثم نتحدث بقصتك.

كان محمــد قد أكمل تقسيــم التفاحة، أيضاً سبــع قطع متساوية، اعتمد على الحافة البلاستيكية الحادة نسبيّاً لإناء الماء لتقطيعها. وزّع القطع ثم وزع حبّات التين.

- وبمناسبة احتفائنا بك.. فليكتمل الحفل إذاً!

قــال محمد ذلك، وتناول كيساً آخر أخرج منه حبات لوز بمعدل حبتيــن لكل واحد، وختم هذه المأدبة الألذ والأشهى والأكرم بتناول قنينة بيبسي كولا كبيرة وزّع منها بالتساوي على الجميع.

أحسســت بشبعٍ لم أشعر به طيلة الأيــام العشرة الماضية. البيبسي

كولا هو الآخر وجميع المشروبات الغازية والعصائر لم تكن متاحةً في الأسواق العامة. كان ثمن قنينة مشروب غازي خارج القدرة الشرائية للناس لذلك اقتصر بيعها في بغداد على عدد محدود من المحال التي يقصدها أثرياء فترة الحصار. كان شراء قنينة ووجودها في بيت هو تعبير عن وجاهة يجري الحفاظ عليها حتى بعد نفاد المشروب لتتحول القنينة إلى وظيفة أخرى يجري معها تبريد الماء وتقديمه بها إلى الضيوف إشارةً إلى أنه كانت هنا قنينة كولا.

كان لديَّ الكثير من الأسئلة، وهم لديهم حتماً الكثير منها لكن بقي الأهم هو موضوع هذه النوادر الغذائية التي لم تجتمع كلّها في بيتي مرةً واحدةً منذ أكثر من عشرين عاماً، وها هي تجتمع هنا دفعةً واحدة وأين؟ في سجن، وأي سجن؟ في (الحاكميّة) الذي لا ينفذ إليه طيرٌ ولا تمرُّ به نسمة. سألت محمد:

– لقد أكلت، وكان يُفترَض أن أعرف ذلك قبل الأكل: ما هذا وكيف؟

– أنا يأتون الأهل من سامراء إلى زيارتي كل أسبوعين.. كل أسبوعين سنكسر لبضعة أيام روتين إطعام السجن.

– آآ.. مبروك. هل فعلاً هنا زيارات؟ لم أعرف من قبل أن سجن المخابرات يستقبل زيارات!

– لا، طبعا. لا يوجد نظام زيارات. لكن التحقيق معي انتهى واكتمل، وتستطيع أن تقول إنه بظرف خاص تقريباً حصلت الموافقة لي على الزيارة.

فهمت أن محمد السامرائي مُحرَج نوعاً ما ولا يريد التحدث بتفاصيل ربما لا تسمح هذه الجلسة الجماعية بالبوح بها، كما لا

تسمح أصلاً جِدّة العلاقة بيننا بالاستغراق بالتفاصيل. كان من المعتاد أن يجــري الشك بأي شخص يأتي جديداً إلى مجموعة سجناء، لكن منــذ البداية لم أشعر بمثل هذه الشكوك نحوي من قبل الجميع حيث كانــوا يتحدثون بلا تردّد في ما بينهم. كانت المشكلة من جانبي أنا، لــم أطمئن تماماً بعد، وأنا بين هــذه المجموعة من السجناء الذين لم أتعرّف بعد على مشكلاتهم التي اعتقلوا بموجبها ولم يعرفوا هم بعد مشكلتي. ميَّزت الأعمار والأشكال وردود الأفعال.

لا شيء يدعو للشك بشركائي في الزنزانة، بينما الاطمئنان قد يأتي بالتدريج، قلت مع نفسي.

(٢٠)

سـوى مفاجـأة الأكل، كنت أحدسـ إمكانية حـدوث مفاجآت أخـرى مع محمد السامرائي، مفاجـآت أكبر وأهم من كل هذا الذي لوّن يومي الغريب في السجـن. سأؤجل الحديث عن محمد وطبيعة مشكلته وكيف حظي بالموافقة على زيارة أسرته له لحين انتهائي من المـرور سريعاً على السكان الآخرين في هذه المقصورة، في الزنزانة ٣٢، الذين تركوا لي خيـار المكان الذي أفضّل للنوم وفرش بطانيتي عليـه. قلت لا أستطيـع أن أنام إلا في الطـرف إذا كان ذلك لا يزعج الآخرين فوافقوا.

كان المـكان لا يسع أكثر مـن ثلاثة أشخاص فـي أسوأ الظروف المعتادة، لكن مقياس السوء والجودة في الزنازين لا صلة له بالمقاييس المعتـادة؛ هنا لا يعمل إلا منطق السجـن الذي نفهمه جميعاً في هذه الشراكة الاضطرارية في الزنزانـة التي تأكدتُ منذ البداية من وصول الماء، حاراً وبارداً، إليها، وأفهمني محمد أن ما مررت به في الزنزانة السابقـة هو جزء من العقوبات والضغـوط النفسية التي يُفترَض أن لا تغيب عن فهم رجل مثلي، كما قال لي ذلك مبتسماً.

◈ بعـد دقائق قليلة على دخولي الزنزانـة ٣٢ فوجئت بأن الحاج حسين، أكبـر المسجونين في الزنزانة عمراً، هـو إيراني كان قد جاء يقود حملة زوار إيرانييـن (حملدار) إلى العتبات المقدسة في العراق في ضوء اتفاق بين البلدين. عادت الحملة إلى طهران بعد إتمام الزيارة واستُعيـد حملدارها الحاج حسين من مخفر المنذرية الحدودي إلى

سجن (الحاكمية). شيخ عجوز بقامة نحيلة وعينين كليلتين ولا يجيد غيـر لغته القوميـة الفارسية، وربما سأتحدث عنـه بتفصيل أوسع بعد صفحات.

◈ رياض شاب تركماني مـن كركوك، اعتُقل لتسهيله مهمة سفر شبـان عراقيين إلى تركيـا. تقول المخابرات إنّـه يسفّرهم بجوازات مـزوّرة، بينما بقي هـو حتى الأخير يؤكد أن الجـوازات المراد سفر الشبـان بها هي جـوازات سليمة، موعزاً سبـب اعتقاله، كما فهمت منه، إلى انزعاج السلطات مـن السفرات الجماعية للشبان التركمان إلـى تركيا، فخمنت أن المجيء به إلـى السجن هو لمعرفة ما إذا كان ثمة هدف سياسي وراء تنظيم هذه السفرات. لم أبح له بهذا التخمين، لم أشأ أن أزيد مساحة قلقه، وهو أساساً لا يحتاج لأن أوضح له ذلك فقـد يربك دخول هذا الاحتمال إلى تفكيـره الطريقةَ التي نظم عليها إفادته مع تيقني من أن لا صلة للشاب بأي دافع سياسي.

◈ لـم تتضـح حقيقة مشكلة أبـي تحسين، وهو رجـل في مطلع الخمسينيـات من عمـره، فقد بقي يدّعـي أمامنا أنه اعتُقـل بناء على وشايـة كيدية من خصم قريـب له؛ تفيد الوشاية بأنـه يتاجر بالسلاح بالسوق السوداء وأنه على صلة بمجموعة تسهّل تهريب المطلوبين، بعضهـم من مقاتلين مجهوليـن ضد السلطة، من مـدن الجنوب إلى خـارج البلاد، اعتقل من بيته بتوقيت واحد ضمن مجموعة أشخاص يعرفهـم وجـرى اعتقالهم مـن أماكن مختلفـة ولا يعـرف شيئاً عن مصيرهـم ومكانهم فـي الحبس. أبو تحسين يقـول إنه بعثي ويحب القائد وإنه مظلوم بهذه التهمة.

◈ اعتُقـل خميس، وهو شـاب صابئي، عند وصـول قطعة أثرية

إليـه من شخص يقرب له في الناصرية. يقول تعاملت مع جماعة على بيعهـا لهم وحين الحضور للبيع وتسلُّم المبلغ تبين لي أني أبيع لرجال مخابرات نجحوا في استدراجي في أول عملية لي في بيع لقى الآثار، فشلت في هذه التجربـة الأولى وألقوا القبض عليَّ متلبّسا بالجريمة. مشكلـة المخابرات الآن مـع خميس هي في قريبـه الذي هرب من الناصرية ومطلوب من خميس، وهو هنا في زنزانته، أن يساعدهم في القبض عليه ليحال الاثنان، خميس وقريبه، إلى المحكمة معاً.

◈ علاء هو الأكثر تكتّماً وانطواءً؛ شاب يختفي وراء وسامته حزن ورقّة في السلوك والمشاعر لا يتناسبان وطبيعة مكان الحبس وظرفه. يقـول إنـه استقبل في بيته فـي الديوانية ابن عم له لليلـة واحدة بعدما كانا قد افترقا سنوات، داهمت المخابرات الدار بتهمة إيواء مطلوب سياسـي خطير وذلك بعـد أقل من ساعة على مغـادرة ابن عمه الذي دأب فـي السنـوات الأخيرة على دخـول البلد مـن سورية والتحرك بيـن المحافظات بوثائق مزورة عن طريـق كردستان، أو هكذا تقول المخابـرات لعـلاء عن ابن عمـه. قال لي عـلاء مرةً إن مـا يضاعف مشكلتـه كونـه من عائلة شيوعيـة معروفة ولم يشفع لهـا تخليها عن العمل السياسـي منذ أكثر من عشرين عاماً لتظـل العائلة تحت طائلة المراقبة المستمرة والشـك الدائم بتركها العمل السياسي، وهو شك ظـل يطول حتى أفراد الأسرة الجـدد الذي ولدوا في ما بعد، في أثناء هذه الأعوام العشرين.

هذا ما فهمته خلال الليل بعد العشاء وفي أيام تالية.

كان محمـد قد سألني متـى جئت إلى المـكان، كان يريد أخباراً طازجـة عن الحرب المنتظـرة، فتبين لـه أن كلّ معلوماتي الشحيحة

قديمة، حيث عـادةً ما تتجدد أخباره هو في أثنـاء استدعائه المتكرر للتحقيـق ليلاً وسماعه أخبارَ الفضائيات ومـا قد تسربه له العائلة أثناء الزيارات.

عجبـت حيـن نـام الجميع كيـف ناموا عميقـاً مبكّريـن، بقيت مستيقظـاً متمـدداً علـى فراشي الـذي كان إلى جنـب فراش محمد السامرائي النائم مع النائمين الآن.

(٢١)

لم يسمح لي الحارس بنقل نسخة القرآن التي كانت معي في تلك الزنزانة إلى هنا. قال لي، وهو يحتفظ بالنسخة معه:

- ستجد هناك نسخة أخرى فتشاركْ بها معهم.

وفعـلاً وجدت هنا نسختين كانت إحداهما مع الحاج حسين في حيـن كانت الثانية مـع محمد. كانت نسخة الحـاج حسين بحرف كبيـر وتنفع في مثل هذا الضوء المحدود. قبـل أن ينام اتفقنا على أن آخذ النسخة متى شئت حين لا يكون يقرأ فيها. تناولت نسخة الحاج وبدأت أقرأ صامتاً وأواصل إعراب الآيات من حيث انتهيت هناك في زنزانتي الانفرادية حتى فتح محمد عينيه وسألني هامساً:

- أنت لا تقرأ، ماذا تفعل؟

- أحاول إعراب السور كلَّها.

- تعرف في النحو؟ أنت خريج لغة عربية؟

- لا، معلوماتي عن العربية نتاج تعلم وقراءة شخصية.

- أستاذ، أنـا أعرفك، ألست المحرر في جريـدة الجمهورية..؟ لقد عرفتك منذ سمعت منك اسمك.

- نعم أنا.

- إذا فرغت من الإعراب، هل ممكن أن نتحدث؟

- نعم، تفضل.. ممكن الآن.

كان محمــد قــد اعتُقــل قبلــي بثلاثة وثلاثيــن يومــاً، حين جرى القبضــ عليه مع عدد من كبار موظفي معمل أدوية سامراء بتهمة تلقي مسؤوليــن عن عقد وقّعه المعمل مع شركة يابانية رشوةً لتسهيل مرور العقــد. كان الوحيد من مجموعته في هــذه الزنزانة، ويرى أنّ كل ما تلقّــاه المتعاقدون هو مجرد هدايا بسيطة لا ترقــى في قيمتها المادية إلــى أن تكــون رشوة، وهــي لا توحي بذلك، كما أنهــا مما اعتادت الشــركات والدول عملــه في مثل هكــذا مناسبات، ولــم تكن هذه الهدايــا مؤثرة في العقد والتوقيع عليه أو تسهيل مروره. محمد يعمل مديــراً لمختبر يجري فيه تحليل عيّنات من مــواد تصنيع الأدوية التي يجــري شراؤها مــن خارج البلــد، ويؤكد أن صلتــه بالعقد هي فقط فحص العينــات وإعطاء نتائجها، وهي نتائــج سليمة ولا غبار عليها، وبالتالــي فهــي لا تقدّم أو تؤخــر شيئاً في العقد. سألتــه ما إذا كان قد تساهل في نتيجة التحليل لصالح مرور العقد، فأكد أن العيّنة موجودة في المختبر ونتائجها ايضاً، وهي مطابقة للمواصفات. قال:

- أنا أنتظر محاكمــة المجموعة ككل ليطلق سراحي، لكن أهلي يتحركون مــن أجل أن لا أنتظر المحكمة خوفــاً من وقوع الحرب. يريــدون إطــلاق سراحي بقرار من القاضي هنا فــي (الحاكمية)، فأنا لا صلــة لي بسير التحقيق مع الآخريــن الذين لا أعتقد أساساً أن أحداً منهم قد تلقى رشوة.

أغلقــت المصحف بعدما تركت إشــارة تدلني إلى الموضع الذي توقفــت عنده. تحدثــت لمحمد عــن تفاصيل مشكلتــي، وكالعادة أنكــرت تلقّي الرسالة، لم يدقّــق هو في أسئلته عــن نكراني الرسالة، مــع أنــي لاحظت في عينيــه عدم اقتناعــه بالنكران. كانــت هذه هي

المـرة الأولى التي أشـرك فيها أحداً من غيـر المحققين في الحديث عـن مشكلتي والقبض عليّ. يحتاج المـرء، كائناً من يكون، إلى مثل هذا البوح والفضفضة في التعبير، يحتاج إلى رؤية آخرين محايدين قد يعينونه في رؤية ما لا يراه هو المدافع عن نفسه وغير المحقق المندفع من أجل تأكيد التهمة.

أحسست بتعب في ظهري فتمدّدت. سألني محمد:

– هل ستقع الحرب؟ أنا قبلك في السجن ولا أعرف بالضبط ماذا حـدث في بغداد خلال الأسابيع الماضية ولم اتناقش مع أحد. عندما جئـتُ إلى هنا قبل أسابيع كنت يومها أتوقـع أن الحرب ستقع خلال أسبـوع ولكن مضـت كل هذه المدة ولم تحصـل حرب، تعرف أن الأخبار وحدها لا تكفي لمعرفة حقيقة ما يجري!

– لا أعـرف بالضبط ما إذا كانت ستقع أم لا، لكن من الواضح أن الدولة والناس تستعد كما لو أن الحرب ستقع الآن أو في أي لحظة.

– كيـف تتوقع سيكون مصيرنا لو وقعت الحرب فعلاً الآن ونحن هنا؟

لا يـدري محمد السامرائي كم أرّقني وأرهقنـي مثل هذا السؤال منـذ كنت في الطريق إلـى ((الحاكمية)) في السيارة تويوتا بيك آب. لقـد حملت من الزنزانة السابقة، وبين طيّات أحدى البطانيّتين، عشر قطع من الخبز، كنت أدّخرها تحسّبا لوقوع الحرب، ووجدت، كما فهمـت ذلك من محمـد، أنّ الجميع يعملون هم أيضـاً هنا، بسريّة، بمبـدأ توفير الغـذاء الاحتياطي، كما كنت أفعـل، للخشية من حرب محتملة الوقـوع ولظروف قد ينقطع فيها كل شـيء عن هذا المكان المهدّد بأن يتركه العاملون فيه في أول لحظة خطر. قلت لمحمد:

– كل البيـوت ادخـرت مـا يؤمّـن حاجتها مـن المـواد الغذائية الأساسية لشهور، والدولة نفسها وزّعت حصصاً لعدة أشهر من تلك المـواد بدلاً من حفظها في السايلوات ومخازن الدولة التي قد تكون مهـددة في الحرب أو قد تنقطع سبـل التوزيع، بعض العوائل حفرت آباراً في بيوتها لاحتمال انقطاع الماء.. لا بأس في أن نأخذ احتياطاتنا بما متاح لنا.

– المشكلـة فـي الماء إذا ما انقطع وتُركنا هنـا وراء هذه الأبواب المقفلة خصوصاً نحن نقترب من الصيف.

– لا أعتقد أننا سنُترك لمثل هذا المصير!

– أنـت متفائل أكثر من الـلازم يا أخي! هذا صحيـح لو كنّا بغير ((الحاكميـة))، لو كنا في مـكان للجرائم الجنائيـة العادية فسيُطلق سراحنا مع أول إطلاقة حرب وحتى قبل وقوع الحرب. لكن يا أستاذ تعرف خصوصية المكان.

– محمـد، مثل هـذا التفكير يرهقنـا ويضاعـف مأساتنا، لا حل بأيدينـا، الحلول في مـكان آخر. نتضرع من أجل فـرج قريب، هذا كل ما متاح.

– هل تعرف عائلتك أنك هنا في ((الحاكمية))؟

– أكيد يعرفون أني لدى جهة أمنية فقد جرى اعتقالي من الجريدة وأمـام أنظـار الجميع. لكـن لا أدري ما إذا كانوا قـد عرفوا المكان بالتحديد.

– هل تعرضت للتعذيب؟ أنت صحفي معروف..

– أحياناً، وأنت؟

– كل الذيـن في الزنزانة باستثنـاء الحاج حسين تعرضوا للتعذيب بدرجـات. حاج حسيـن الإيراني لم يعذَّب، أنـا تعذبت في أول أيام التحقيـق ومـن دون سبـب. أبـو تحسين وعـلاء هم الأكثـر تعرضاً للتعذيـب.. مسكين علاء ما زال يُستدعـى للتعذيب، خميس تعذّب قليلاً وكذلك رياض.. أتوقع أن رياض سيجري الإفراج عنه.

– هل تتوقع أن يُسمَح لعائلتي بزيارتي؟

– بصراحة، يحتـاج الأمر إلى واسطة. لا بدّ لأهلك أن يتحرّكوا. أنت معروف، هل يتدخَل المسؤولون في الإعلام والثقافة من أجلك؟ طبعاً أنت بعثي؟

– لا، أنـا مستقـل.. لكن أتوقـع أن أصدقـاءَ مسؤوليـن سابقين وحاليين في مجالات الإعلام والثقافة من الأدباء سيتحركون لصالحي خصوصـاً أن قضيتـي لا تستحق كل هذا، وأنـا لا صلة لي بأي عمل سياسي، الجميع يعرفون. هذا يساعدهم كما أظن في التدخل، أعتقد علاقاتي مع الجميع طيبة.

– أتمنى أن لا يكون وضعك كمستقل يعقّد الأمر، تعرف سيجري الشـك باستقلاليتك في مثل هـذه الحالات.. لكن فعـلاً قضيتك لا تستحق.

شعـرت أن كلمات محمد تمتـزج فيها الثقـة بمحاولة التطمين، تحـدث عن وصفي بالمستقل وبدا في أثناء الكلام كما لو كان شارداً يفكـر داخلـه باحتمـالات لا أعرفها. الصـورة النمطيـة لدى معظم العراقييـن أن المثقف حين يجري وصفـه بالمستقل فهذا يعني ضمناً أنه شيوعـي أو قريب من الشيوعيين واليســار والمعارضة، ويعني أنه عرضــة دائما لشكـوك السلطـة وارتيابها، لم أحـاول الوقوف بجد

عنـد هذه التفاصيل، وكنت أتمنـى أن يجتاز محمد هذا التفصيل ولا يستغـرق بالحديث والتساؤل عنه ومـا قد يجر إليه من تداعيات ليس من المناسب التفصيل فيها.

قال لي محمد السامرائي حين توطّدت الثقة بيننا أنه كان قد تفاجأ مرّة حين جرى استدعاؤه في ساعة متأخرة ليلاً، وهو في العادة وقت يكـون معه المحقّقـون وكبار الموظفين وصغارهم قـد انصرفوا إلى منازلهـم بعد انتهـاء دوامهم المسائـي. اقتيد محمد إلـى غرفة مدير عـام السجن، وقبل أن يدخل الغرفة رُفعـت العصابة عن عينيه والقيد عن يديـه. كانت غرفـة المدير الواسعـة تمرّ أولاً ببهـو صغير حيث مكتـب السكرتير، وجـد المدير قريباً من مكتـب سكرتيره الذي لم يكن موجوداً حينهـا، أشار المدير بأصبع منه إلى هاتف موضوع في زاويـة من مكتـب السكرتير، ثم طلب، هامساً، مـن محمد أن يزوّل رقـم هاتف مسكنه ويتصل بعائلتـه من دون أي ذكر لتفاصيل قضيته، وليبلغهم أنّ بإمكانهم زيارته بعد يومين. يقول محمد:

- انصـرف المدير بعيداً عني، كانت عيناي مـا زالتا تحدقان فيه باندهاش حين اتصلت بالعائلة التـي لم تتفاجأ بالاتصال الذي كانت تنتظره، كما بدا لي، بقيت أتحدث إلى زوجتي والأولاد، كان أخ لي حاضراً في البيت ينتظر الاتصال فتحادثنا، بقيت أتكلم بحدود نصف الساعـة، طمأنتهـم خلالها علـى سلامتي وصحتـي واطمأننت على أحوالهم قبـل أن يشير المدير لي بالتعجيل بإنهـاء الاتصال والاتفاق على موعد زيارة ما بعد الغد.. كان هذا تحرّكاً من أخوتي لمسـاعدتي تمكّنـوا خلاله من الوصـول إلى مدير عام السجن فـي بيت شخص قريب له وتأمين الاتصال الهاتفي والزيارة نصف الشهرية.

بهـذا يئست تماماً من إمكانية أن أحظـى باتصال هاتفي أو أتمتع بزيارة. قبل أن ينام محمد سألني ما إذا كنت أدخّن..

– تركتها عند دخولي السجن.

– حسنـاً فعلت، أنـا أيضاً تركتها، كنت سأعطيـك السكائر التي جلبهـا الأهل فـي المواجهة الأولـى. لم يكونوا يعرفـون أنّي تركت التدخين هنا في السجن ولم أعدها معهم.

– اتركهـا لسجين آخر قد يأتي إلينـا ولا يقوى على ترك التدخين فيحتاج إليها.

رأيت هذا اختبـاراً مهماً بالنسبة لي لإرادة الإقلاع عن التدخين، وهـي إرادة كانـت موضـع شك طيلـة الأيـام الماضية فـي الزنزانة الانفرادية ما دامت السكائر خلالها غير متاحة.

استأذن محمد ونام، فاستغلّيت نوم الجميع واستحممت.

(٢٢)

كان أول المبكّرين بالنهوض الحاج حسين الذي ساعدتُه بافتعالي النوم ليأخذ راحته استعداداً للتوضؤ كما توقعت من هذا النهوض المبكّر. فرغ من الحمام والوضوء وأداء الصلاة ثم قراءة القرآن بصوت يمكن أن يكون مسموعاً، وقبل أن ينتهي من قراءته دخل في نوبة نحيب حاول التكتّم عليه حتى انفجر به. تضمّخت بالدمع شيبة لحيته الكثة التي استطالت، وحينما جلس الآخرون على شهقات نحيبه انصرف هو واقفاً في دعاءٍ لم أسمع منه شيئاً.

قبل زيارته هذه التي اعتُقل في آخرها، كان الحاج قد زار العراق عدّة مرات كحملدار لزيارات جماعية، يقوم بها الإيرانيون بشكل منتظم إلى كربلاء والنجف والكاظمية وسامراء. كان فرقُ العملة لصالحهم فيسمح لهم بزيارات مريحة، وكان الاتفاق بين الدولتين خلال الأعوام الأخيرة قبل ٢٠٠٣ هو أن تستقبل سيارات عراقية تابعة لشركة الظلال، وهي شركة مملوكة لوزارة النقل، أولئك الزوار ليجري نقلهم بواسطتها إلى الأضرحة في بغداد النجف وكربلاء وسامراء ثم إعادتهم بعد انتهاء المدة المتفق عليها إلى منطقة المنذرية الحدودية، ومنها إلى بلدهم إيران بسيارات إيرانية.

خلال أيام وجودنا معاً في الزنزانة، روى لي الحاج حسين قصة اعتقاله؛ لم يكن يعرف من العربيّة إلا الكلمات القرآنية التي لم يفهم معنى كثيرها، يعرف طبعاً ما هو مشترك من كلمات بين اللغتين العربية والفارسية، لكن حياة الاضطرار في السجن جعلت

من التفاهم ممكناً، بدرجة معينة، اعتماداً على هذا الخزين المحدود جداً والذي لا يجيد التصرّف به رجلٌ بعمر وثقافة الحاج الشيخ.

كنتُ أحيانا أضطرُ إلى تذكيرِه بكلماتٍ عربية، أعرف أنها انتقلت إلى الفارسية أو وفدت منها إلى لغتنا، وذلك لأعينه من أجل التعبير عن معنى، أتوقّع أنه يريده أو قريبٌ منه. وأحيانا كنت أستعين بكلمات من سور وآيات قرآنية، وأستفهم منه ما إذا كان يريد أن يعبِّر عن معنى قريب مما تعبِّر عنه هذه الكلمات القرآنية التي لا يدرك معاني معظمها.

كان يشير بسبّابته إلى لسانه، وهو يتحدث لي عن مشكلته في إشارة إلى أن زلل لسانه كان هو ما أودى به إلى هذا السجن؛ ففي الطريق إلى كربلاء من النجف، وفي سيارات شركة الظلال، كان قد توجّه بالدعاء وبالشتائم ضد صدام حسين باللغة الفارسية، وتكرر هذا بعد زيارة كربلاء، في الطريق إلى الكاظمية ومن ثم سامراء، وعند الرجوع إلى منطقة المنذرية، وفي النقطة الحدودية العراقية، نزل جميع الزوار لتأشير جوازاتهم إلّا الحاج حسين الذي طُلب منه البقاء في حافلة (الظلال). غادر الجميع، وبضمنهم زوجته وأخواه عائدين إلى بلدهم، لتعود به الحافلة إلى هنا، إلى سجن ((الحاكمية)).

كان العراقيون يتداولون حينها كلاماً عن أن (الظلال) مرتبطة بالمخابرات العراقية، وخصوصاً حافلاتها المخصصة لنقل الايرانيين. وسواء أصحَّ هذا الكلام الرائج أم لا، فإن من المستبعد أن تكون حركة زوار قادمين ليس من إيران فقط وإنما من أي مكان بالبعيدة عن مراقبة المخابرات. كل قادم أجنبي هو هدف للمراقبة، لكن كثافة المراقبة وطبيعتها ووسيلتها تختلف حتماً من شخص إلى

آخـر، ومن جنسية إلى أخرى. قبل أشهر من اعتقالي، جاءني الصديق الشاعر المصري ناصر فرغلي وكان موفداً من فضائية إماراتية لإنجاز تقاريـر عـن العراق تحـت الحصار وفـي انتظار الحـرب، أراد مني إرشاده ومساعدتـه في إنجاز عمله، فضحكـت، ونصحته بمراجعة وزارة الإعلام:

– هـي التي ستتكفّل بتعيين أحـد موظفي دائرة الإعلام الخارجي بمرافقتك!

لكن الصديق المصري قال معقّبا على كلمة (مرافقتك):

– تقصد (مراقبتك) وليس (مرافقتك)..؟

فضحكت، ورددت:

– افهمها بما تشاء، لكن هذا هو الخيار الوحيد المتاح لك للعمل بـ (حريّة) هنا.

فـي السجن، وحـال وصول حافلـة (الظلال) بالحـاج حسين، جرت مقابلته من قبل مدير عام ((الحاكمية)) مباشرةً. يقول الحاج:

– لم أُسأل عن شيء؛ أحضروا جهار تسجيل، دار الشريط، سألني المديـر مـا إذا كان هـذا صوتـي أم لا.. أجبته بنعم، أُطفـئ الجهاز، ونقلت إلى هذه الزنزانة منذ اثنين وأربعين يومـاً.

سألت الحاج:

– هل استُدعيت بعدَها؟ هل جرى التحقيق معك؟

– لا، كان ذلك أوّل وآخر تحقيق معي.

– ألم يجرِ تعذيبك؟

– لا، لماذا؟ انا اعترفت مباشرة.. هل تعتقد أنهم سيعدمونني؟

– لا أعتقد. رحمة الله واسعة.

سألنـي إن كانـت مشكلتي هي الأخرى مثـل مشكلته زلة لسان، أجبته: لا، ولم أعرف كيف أشرح له المشكلة.

(٢٣)

لم أنم تلك الليلة. هذا هو حالي دائماً في الليالي التي يتغيّر فيها مكاني أو أمرّ خلالها بحدثٍ مثير.

جاء الطبّاخ الذي تحرّرت، بدءاً من هذا الصباح، من كابوس اللقاء به والتعامل معه والاضطرار إلى سماع تعليقاته الفجّة. تكفّل السجناء الشبّان بمتابعة تسلّم الأكل، وتحمّل الإهانات المرافقة له، احتراماً لكبر سن زملائهم، ولانزعاجهم من أن يُهان أمامهم رجل كبير، كما عبّر عن ذلك خميس في أوّل يوم لي معهم، حين تعرض أبو تحسين إلى كلام نابٍ من الطبّاخ اللئيم.

قبْلَ الطبّاخ، كان الحارس الشاب، الذي حلّ محلَّ حارس اليوم الماضي، قد فتح شباك الزنزانة؛ صبّح بالخير على الجميع، ونظر مبتسماً نحوي:

– أكيد سترتاح مع الجماعة

– شكراً، الحمد لله.

سمعته بعد ذلك يتحدث مع السيدة بعدِ ما كان قد طرق الباب عليها وفتح النافذة. سمعتها هي تستفسر منه متى يصدّق القاضي على أوراقها، وسمعته يطمئنها من دون جواب واضح على سؤالها.

بعد قليل، جرت المناداة على أبي تحسين وعلاء وخميس، وبعدهم بخمس دقائق، نودي على رياض:

– لف بطانيّاتك، وتعال!

- أين؟

- لفّهن على السريع!

حدّق رياض في وجوهنا مستغرباً، نظرت في عيني الحارس الشاب، كانتا تومضان ببريق يريد أن يبتسم، نظرت إلى محمد مبتسماً، قفز محمد من فراشه مثل طفل، وعانق رياض:

- إفراج، مبروك عيني رياض، إفراج.

لم يستطع الحارس مواصلة تكتّمه على الخبر، ضحك:

- مبروك، أسرِعْ رجاءً.

بقي رياض مرتبكاً حائراً بيننا والحارس وهو يتلقى قبلاتنا، قال لي:

- أستاذ، رِجْلُكَ خضراء علينا، إن شا الله الجميع. إن شا الله عفو عام.

غادر رياض تاركاً مشاعر متضاربة اعتملت بيننا: فرح بمغادرته وحزن على فراقه وتفكير بحالنا، بعد نصف ساعة عاد خميس وعلاء ليقولا: نفس الأسئلة، لا جديد. وقبل أن يحين الغداء، عاد أبو تحسين محنيَّ الظهر، لم يتكلّم، ولم ينظر في وجه أحد. ارتمى على الفراش دافناً وجهه في البطانية الوسادة، وبقينا صامتين.

في السجن، ومع الصمت، يسرح السجين ويمضي إلى خارج الزنزانة. يتمدد فضاء الزمن بماضيه وبما يتخيله السجين من صور للمستقبل يكسر هذا التحديد الضيق الذي تضعه فيه فكرة الحبس نفسها، وبما يجسده السجن والزنزانة واقعاً من تحجيم مكاني وتقييد بين أربعة جدران.

محدودية الوجوه في مكان الحبس وتكرارها هما أيضاً يدفعان إلى البحث عن قرائن، تستعاد صورها من التاريخ الشخصي للسجين. يبدأ سبر أغوار شخصيات السجن بالتمدد هو الآخر عبر البحث عن مشتركات مع آخرين تجري استعادتهم أيضاً من خارج مكان الحبس وزمنه، من تاريخ علاقات، من أزمنة وأماكن ومناسبات تشكل قوام ذلك التاريخ الشخصي للسجين وهو يصنّف الأفراد الذين معه، التصنيف يفيد في تحديد المواقف من الأشخاص وكيفية ومدى التعامل معهم. وفي الحقيقة، فإن شخصية السجين، وفي مكانٍ للسجن السياسي، غالباً ما تكون عصيّة على الإمساك. إصرار من السجين على الإخفاء والتكتم وعلى التواري خلف قناع أو أقنعة عديدة متغيّرة، يكون معها ضبط صورة واضحة وأكيدة عن السجين الماهر شبه مستحيلة حتى على زملائه الذين يشاركونه الزنزانة، وهم سجناء لا يربط بينهم رابط فكري أو سياسي مشترك. لقد انتهى العراق من زمن التنظيمات المعارضة الكبيرة التي كانت تسمح بوجود سجناء من حزب واحد أو حركة واحدة معاً في سجن واحد بردهات كبيرة، منذ عقود تمت تصفية الحركات السياسية المعارضة الكبرى، وقد بات ما موجود هنا مجرد أفراد أو مجموعات ضيقة يدفع بهم سوء الأقدار لمثل هذا المصير. وربما سيكون مثل هذا التصور عن خوف السجين حتى من أقرانه غريباً على كثير من السجناء السياسيين الذين كانوا قد قضوا فترات حبس طويلة، إنما في سجون أخرى غير سجون عراق ما بعد الستينيات. ففي هذه السجون التي أبشعها سجن (الحاكمية)، وكما هو الشأن في الحياة العامة للناس ولكن بدرجة أثقل، يكون التكتم والسرّيّة والانطواء والتخفي عوامل للحصانة والتمنع على الانكشاف والوضوح. لقد كتبت مرة، في مقال لي، أن

السلطـات الشمولية تبحث هي الأخرى مثلمـا الأنظمة الديمقراطية عن (الشفافية). ففيما تكون شفافية عمل السلطات مطلوبة في النظام الديمقراطـي من أجـل أن يراقبها ويقوّمها الرأي العـام فإن (شفافية) المواطنيـن تكون هي المطلوبة في النظام الشمولي المتعسف؛ ينبغي علـى المواطن أن يكون واضحـاً في كل شيء، مرئيـاً، منكشفاً أمام السلطـة لتطمئـن منه وعليـه. وهذا مـا كان يدفع بالناسـ إلى افتعال الوضوح بينما تمضي حياتهم وتصرفاتهم وقناعاتهم في أنفاق مظلمة بعيـداً عـن الرقابـة الحكومية وحتـى الشعبية، وهذا مـا يجعل وجه الحبيس وجوهاً كثيرة تختفي بين ثناياها الوجه الحقيقي له. وستكون مهمّـة السجين تقليب تلك الوجوه الكثيرة التي يظهرها زملاؤه يومياً في الزنزانة للوقوف على وجوههم الحقيقية.

لعبة البحث عن قرائن هي بالإضافة إلى ما تفعله من اختراق لحواجز المكان والزمن في الحبس ودورها في استعادة زمن وعلاقات ما وراء جدران السجن فإنها من العوامل المساعدة للسجين في الوقوف على الحقيقة، حقيقة وجوه زملائه وشركائه في الحبس.

وفي أثنـاء الصمت استعدت وجوهاً وأحـوالاً وتواريخ واحداثاً؛ بعض الوجوه التي استعدتها لم تكن قد خطرت على بالي منذ عقود، ربمـا شخصية أبـي تحسين، كما تبـدّت لي منذ الساعـات الأولى، والتي تخفـي تلوّنا سطحياً، هي ما استدعـت حضور صورة شخص من طفولتي، صورة قاسـم السكران التي غابت ملامحها تماماً، ولم يبق منهـا سوى شبح رجل طويل يقف في زقـاق البيوت الطينية التي كنّـا نسكن فيها في حي الجبيلة في البصـرة في مطلع ستينيات القرن الماضـي، وقد فـرغ لتوّه من تنـاول ربع قنينة خمر يتحـوّل معه إلى

طفـل وديع، كثير المـرح وسريع النكتة يشاكس بعض الرجال ممن هم بعمره بخفّة دم وبراعة في الحيلة يتحولون معها إلى مجال لتندر الآخرين الذين يزدحمون عادةً على مجلس قاسم في الزقاق، حيث تتعالى الضحكات في الداخل من البيوت، ضحكات نساء تخفّين وراء أبواب البيوت، ليتابعن هذا العرض الذي يتكرّر مرة أو مرتين في الأسبوع، متفاجآت بهذه الطلاقة الغريبة التي تأتي لقاسم الخجول والذي لم يسمع أحد صوته في حالات صحوه، وهو يجتاز الزقاق مطرقاً برأسه باتجاه حذائه اللماع وببدلته الرسمية الأنيقة التي قيل أن خياطاً باكستانياً قرب شارع الأطباء في عشار البصرة بقي يعمل عليها لمدة أربعة أشهر حتى أتمّها.

كان هذا التبدّل في شخصية قاسم السكران هو الخيط الواهن الذي ربطه بشخصيّة تبدّل، ولكن بمستوى آخر، شخصيّة أبي تحسين، كما تخيلتها في الحياة خارج السجن من خلال كلامه عن تهمته وإفادته، وفي حياته داخل الزنزانة كما تبدت لي خلال الساعات الماضية وهو يتقلب بين مزاج مرح حيناً وبين تقطيب واكتئاب مرات لا ينتهي منها إلا حين يتحول من دون وعي إلى استخدام أصبعين لنتف الشعرات الزائدة على وجهه ليحدد بدقة وانتظام مسار لحيته التي استطالت في السجن كما استطالت لحانا نحن جميعاً بحالها الفوضوي الذي يتضح بلحية الحاج حسين أكثر مما أراه على وجوه الآخرين، بخلاف اللحية المؤطرة بدقة، لحية أبي تحسين الذي ما زال دافناً وجهه في البطّانية فيما لم نزل نحن صامتين.

(٢٤)

بعـد ثلاثة أيام تنبّهت إلـى أن محمد من الممكـن أن يكون على معرفـة سابقة، أو ربما مـا زالت مستمرة، مع رعد عبـد القادر، فهو مـن سامراء التي ولد رعـد وترعرع فيها، وهو أيضـاً بعمر قريب من عمـري وعمر رعد، لم يغادر تلـك المدينة التي بقيتْ، برغم عزلتها، واحـدة من أهـم المدن التـي أسهمت فـي صنع العـراق الحديث، عـراق القرن العشرين. ولعل امتزاج تكوينها بين الطبيعة الريفية وبين التحضّـر المدني المبكّر (الذي أسهم في نموّه السريع والنشيط كون المدينـة بطابعها التاريخي مركزاً دينيّـاً مهماً من جانب ومركزاً آثارياً من جانب آخر) جعل منها مصدراً مهماً لرجال حيويين في مجالات الآداب والأكاديمية والطب والسياسة والدين ومختلف العلوم.

سألت محمد فجأة:

– هل تعرف رعد عبدالقادر ماهر الكنعاني؟

– العبّاسي؟ صديقي أو معرفة بالإعدادية..

– نعم هو.. تعرفه؟

– كنّـا شبّاناً نلعب كرة القدم، وكان هو يقـرأ، يقرأ أي شيء، كنّا نسمّيه المثقف.. فعلاً أصبح شاعراً ويعمل بالصحافة في بغداد. عمّه نعمـان ماهـر الكنعاني من الضبـاط الأحرار وهو أيضـاً شاعر، رعد صديقك؟

كان الجـواب مفاجأة سعيـدة بالنسبة لي، أيـة مصادفة هذه التي

تجمعنـي في السجن بزميل سابق لرعد عبد القادر! في الأقل وجدت هنـا، في هذا المكان المعتـم، خيطاً يربطني بصداقاتـي البعيدة عني الآن، كمـا وجـدت شخصاً مشتـركاً مع محمد زميلـي في الحبس والذي كان واحداً من أكرم مَن صادفتهم في حياتي. في السجن تنمو أحيانـاً وتتضخم الأنانيّة والحيازات الشخصيّة، وها هو محمد يوزّع كلّ شـيء مما يأتيه بالتساوي، لتكون له حصتـه المساوية لحصة أيّ سجين يشاركه الزنزانة. أجبت محمد:

- رعد أكثر من صديق.

- ما معقول!

- لماذا؟

- تعـرف؟ كل المتنفذين هنا هم من أقرباء وعشيرة رعد، يستطيع رعـد أن ينهي كلّ شيء بمجرد اتصـال.. معقولة لم يعرف حتى الآن باعتقالك في ((الحاكمية)) وهو صديقك؟

- آآآ، لا أدري، ربما حتى عائلتي لا تعرف مكاني!

ما لا يعرفه محمد عن رعد عبدالقادر، أقرب اصدقائي من الشعراء داخـل العـراق، أن رعد في بغداد ليس هو رعد الـذي كان يعرفه في سامـراء، فـي مدرستها الإعدادية. لا أستطيـع أن أقول له إن رعد غير قـادر علـى حمايـة نفسه، وقد جـرى تصنيفـه كشاعـر، إن لم يكن معارضـاً، فهـو في الأقل غير منسجم مع ما يجـري في البلد، فكيف يتأتّى لرعد أن يساعدني ويتدخل؟ في مثل هذه الحالات ربما يكون تدخّلـه ووساطته سبباً ليس في مضاعفـة مشكلاته والشكوك الدائرة حولـه، وإنما أيضـاً في تعقيد مشكلتي التي هـو نفسه لا يعرف عنها شيئاً. لم أجد ما أقوله لمحمد سوى:

- أكيـد يحـاول، ولا يكلّـف الله نفساً إلا وسعهـا، فكيف لنا أن نكلّف الناس بما فوق طاقتهم؟

- أكيد يحاول، أتذكر رعد رجلاً شهماً وهو ابن عائلة، لم ألتق به منذ أيام الإعدادية.

لـم أنتظر مساعدة من رعد في السجن. كان هناك احتمال يقلقني هو خشيتي من أن يُجرجَر رعد المريض بالسكري إلى ((الحاكمية)) بسببـي بقصد الحصول علـى معلومة قد تفيدهم فـي التحقيق. كان يقلقنـي أكثـر أن يُستغَل اعتقالي ليجري معه توقيـف أصدقاء لي، من بينهم رعد، كانوا جميعاً موضع شك وعدم اطمئنان.

لن تكفي، بعد هذا الاعتقال، حربُ الدومينو التي لجأنا إليها لدرء أخطار كلامٍ عن حرب حقيقية ستقع على الأرض حتماً. حتماً انتهت الدومينو وحربها في مقهى الجماهير مع أول يوم اعتقالي.

كتبـت مرة، ربما قبل عامين، مستذكراً أيام الدومينو والإنجازات الثقافيـة التـي قدمتهـا مجموعتنـا الصامتـة تحـت سـتـار المقهـى والدومينـو، قلت: في أيام الدومينو هـذه، والتي كانت تبدو لكثيرين عطالـة وساعات عدمية لمثقفين يؤمَّل منهـم إنجاز عمل وكتابة، في هذه الأيام، وعلى طاولات الدومينو نفسها عرض قاسم محمد عباس على الأصدقاء تحقيقه لكثيـر من نصوص محيي الدين بن عربي، مع دراساتـه اللماحـة لفكر هذا الصوفي العظيم قبـل أن يتطور مشروعه الشخصـي ليتناول مخطوطات وتواريـخ متصوفة آخرين وينتقل بعد ذلك الى الأديـان والمذاهب التي همشتها حيـاة التصارع وإرادات السياسـة والتاريخ الـذي يكتبه المنتصرون، قـرأت لقاسم مخطوطة روايته (المحرقة) التي احتفظَ بها ليصدرها بعد ٢٠٠٣، مقدّماً عبرها

منظـوراً آخر إلى الحـرب في الثمانينيات، وهو منظـور بقي يتوارى خلف الكثافة الفارغة لأدب الحرب الدعائي، ووراء حُجُب الخوف والمنع وحظر النظر إلى الحرب عبر جانبها الوحشي المدمر.

ومن طاولات الدومينو وساعدت حسين محمد عجيل في إيصال تحقيقـه وتعليقـه على كتـاب (رسائـل الأستاذ الرئيـس محمد كرد علـي إلى الأب انستاس ماري الكرملي) إلـى مجمع اللغة العربية في دمشـق ليطبع ويصدر هناك، كان حسيـن حريصاً على أن يصدر هذا الكتاب بالذات مـن المجمع الذي بقي المفكـر والباحث السوري محمـد كرد علي يرأسه منذ سنة تأسيسـه عام ١٩١٩ حتى وفاته عام ١٩٥٣.. وفي الأيام نفسها كتب علي بدر روايته البكر (بابا سارتر)، كنـت قارئهـا الأول، وهي مخطوطة لم تُطبع بعـد قبل أن تصدر عن دار رياض الريـس، كانـت (بابا سارتـر) بداية طيبـة لمؤلفها الذي كنّـا نحسـب أنه يعدّ نفسه مـن أجل ظهور مؤجّـل كناقد أو باحث. قـرأت لعلي مخطوطة روايتـه الأخرى (تل المطران) قبـل أن يسافر ويغادر المجموعـة والمقهى إلى عمان قبل الحـرب بأسابيع، ومنها إلـى بلجيكا فـي ما بعد. نشـط سهيل سامـي نادر، متجـاوزاً كسله بالتحريضـ المستمر مـن قاسم، فأنجز روايته (التـل)، كان قبل أكثر من عقد على ذلك قد أنجز فصولاً منها ورمى بها تحت وطأة الكسل والشعور المدمّر باللا جدوى واليأس من كل شيء. قرأتُها، ودُهشت لصبر سهيل عليها، قرأها الجميع مخطوطةً، وحرّضوه على الإسراع في طبعهـا، ولم يتردّد في الاستجابة إلى طلـب كان واضحاً عليه أنه غير مقتنـع به، فطبعها لتبقيها الحرب في المخـازن قبل أن تصل إلى قرّائها بطبعة ثانية صدرت عن دار المدى بعد الحرب والتغيير. وعلى مقربة من طاولة الدومينو، وحيـن تكتمل المجموعة بانضمام حيدر

سعيد ويحيى الكبيسي وجمال العميدي ونصير غدير، يلتحق بها أحمد الشيخ في ساعات يخطف فيها نفسه من مكتبه الذي هجر به الصحافة إلى الاستنساخ وبيع الكتب المحظورة، ويلتحق عدي رشيد وأصدقاؤه، وهو يهيئ نفسه لعمل سينمائي بقي ينتظره حتى التغيير، وبفعل هذه المجموعة الرائعة تعرّفت على كورش، الشاعر الكردي الشاب الذي حضر إلى المقهى، مع عدي، ليتعرّف عليّ، ولأطّلع على شعره الذي كان يكرّس له جانباً كبيراً من وقته إلى جانب دراسته الطب في بغداد التي هجرها مع إكمال الدراسة ليستقر في كردستان. قبل سفر كورش بليلة دعاني إلى عشاء في مطعم في البتاويين بعيد عن أماكن تواجدنا المعتادة، منوّهاً إلى أن لديه ما يريد قوله لي بشكل خاص، فاجأني حين أبلغني بفكرة السفر وبموعده، مؤكّداً لي أن ما هو مهم ومن أجله كان هذا اللقاء هو ضرورة معرفتي أن عمّه هو وزير دفاع في كردستان، وأن بإمكاني، في أي وقت التحوّل للإقليم إن اقتضت الظروف ذلك. عمل كورش طبيباً هناك، ونشر شعره قبل أن يموت مؤخراً، وبمفاجأة صاعقة للجميع، منتحراً.

تكتمل مجموعتنا أحياناً بأحمد سعداوي الذي نشرت له صحيفة (أخبار الأدب) المصرية كتاباً كاريكاتيرياً بعنوان (الرأس)، وعمد فيه إلى استخدام ثقافي رفيع للكاريكاتير، كما يمرّ، بين حين وآخر، ناظم العبيدي، وضياء الخالدي، ووجيه عباس الذي كرّس شعره العمودي حينها لأغراض صوفية، وعبدالكريم العبيدي، وعبداللطيف الراشد، وعبد الأمير المجر، وحسين علي يونس الذي وضعت مقدمة لأحد دواوينه المبكّرة.. وبفترات متباعدة يغامر زعيم نصار فيمرّ بالمقهى حين يكون عائداً من رحلة لم أكن أسعى لمعرفة جهتها لننعزل في زاوية ما أو نمضي إلى إحدى صالات العرض التشكيلي، لقد أسرّني

في إحدى المرّات أنه على صلة بالمعارضين المتحرّكين بين الأهوار وإيـران.. حصل صفاء أبـو سدير على الدكتوراه فـي الإعلام، ونال حيدر سعيـد الدكتوراه فـي اللغة، كما حصل جمـال العميدي على الماجستيـر بعد مشكلة مع الخبير الفكري كادت تودي به وبدراسته لـو لا تدخل أحـد المثقفين المتنورين، وأكمل احمـد الشيخ ونصير غديـر وكريم شغيـدل دراستهم في الأدب العربـي لينالوا الماجستير والدكتـوراه. وكان ثمّـة أصدقاء مـن أدباء المحافظـات، لا تكتمل زياراتهـم إلى بغـداد من دون المرور بالمجموعـة ومقهى الجماهير والتطلّع أو المشاركة في طاولة الدومينو، لعباً وحواراتٍ ومشاريعَ.

أصـدر رعـد عبدالقادر ديوانـه المهم (صقر فـوق رأسه شمس) وطرحه، مفاجئاً الجميع، على طاولة الدومينو. أعانه في إصدار تلك الطبعـة البغدادية المحدودة الصديق الشاعـر منصور عبد الناصر قبل أن يغـادر إلى عمـان ومنها الى أوربا. لكن ما أنجـزه رعد، بالإضافة إلـى كتاب الصقـر وإكماله الدكتـوراه أيام الدومينـو، كان أضعاف مـا تضمّنـه (صقر فـوق رأسـه شمس). بينمـا أصدرت أنـا (كتاب الفردوس) وكتاب (اليـوم) وكتاب (الساحر)، وهـي أعمال شعرية أُنجـزت بالتزامن مع زمـن المقهى. فيمـا كان الصديق خالد مطلك مصدراً أساسياً من مصـادر إيصال الكتب والمطبوعات الحديثة إلينا مـن معرض أبو ظبي للكتاب حيث انتقل وحميد قاسم للإقامة هناك، في الإمارات العربية المتحدة".

ما أكثر الأدباء والفنانين والصحفيين الذين هاجروا، وكانت مقهى الجماهيـر محطتهـم الأخيرة في البلـد: عبد الأميـر جرص وحسن النواب وحسن جوان وسليمان جوني ومحمد غازي الأخرس وماجد

عدام وباسم الأنصار وزعيم الطائي وأديب كمال الدين وسلام دواي ومحمد شاكر السبع ومكي الربيعي، وبالتأكيد نسيت آخرين كثراً..

انصرفت للتفكير بما لم أقله عن رعد عبد القادر لمحمد السامرائي، وانصرف محمد لقراءة القرآن، لم يعلّق على ما تحدّثت به مع نفسي بصوت ربّما بدا مسموعاً له في الأقل، وأنا أقول:

أيّ مصير هذا الذي يتأرجح بين سجن وحرب!

(٢٥)

كان أبو تحسين قد بقي نائماً لأكثر من عشر ساعات حين استيقظ في الليل. كان مزاج الزنزانة مكفهرّاً لعدم معرفتنا ما تعرض له عند استدعائه؛ هل جرى تعذيبه؟ هل جوبه بحقائق ومعلومات تؤذيه؟ هل تعرض للحالين معاً؟

هذه الاحتمالات جرت مناقشتها من قبل الجميع في الزنزانة باستثناء الحاج حسين الذي كان يدرك أن الكلام والنقاش والامتعاض يتعلق بأبي تحسين لكنه لم يعرف التفاصيل، فسأل محمد عن حال أبي تحسين:

– إعدام؟

– لا، لا.

ضحكنا من تطرّف الحلول والمصائر عند الحاج حسين. كان خميس يؤكد أن أمراً آخر غير كلّ هذه التوقعات سنعرفه من أبي تحسين نفسه حين يستيقظ. وفعلاً بعد ما استيقظ، وبعد أن استفسر عن رياض، وعبّر عن سرور فاتر لخبر الإفراج عنه، تحدّث مع محمد عن شيء آخر لا صلة له بالتحقيق أو التعذيب اللذين توقعناهما:

– تأجلت الحرب.. أو، لن تقع الحرب! كل شيء سيبقى على حاله!

مفاجأة فعلاً، وبرغم ذلك لم يستطع بعضنا أن يخفوا دهشة بدت في عيونهم من عدم قدرة أبي تحسين على إخفاء حماسته ورغبته

بانــدلاع الحرب. كانت كل جهوده خــلال الأيام الماضية تتركز من أجــل ترسيــخ صورة محددة عنــه، صورة البعثي الحريصــ والملتزم بمبــادئ الحزب والثــورة والمؤمــن بشخصية القائــد، وهي صورة لا تنسجــم مــع مزاج الرغبة فــي الحرب الذي طفا فجــأة على محيّا وانفعال أبــي تحسين وقد أغمض عينيه بكسل واضح وفتح فمه على وسعه متثائباً حين كان خميس يسأله:

– كيف؟ سمعتَ الأخبار؟

– نعم، سمعت قناة فضائية عربية..

عــاد ليتثاءب ويفــرك عينيه، فيما عــاد خميس يستحثّــه من أجل حديــث أســرع وأكثــر وضوحاً وتفصيــلاً عما نسمــع، فأجابه وهو ينهض باتجاه حنفية الماء، ويعود منها من دون أن يستخدمها:

– تقــول الأخبار أن تركيا لن تكتفي بعــدم المشاركة في الحرب وإنما ستمنــع طائرات التحالف مــن استخدام أراضيهــا.. حقيقةً ما فهمت، تلخبطت عليَّ الأمور، كان يجري الحديث في الفضائية عن قاعدة تركية اسمها إنجرليك كما أذكر!

(طائرات التحالف)؟.. هــذه تسمية لا يستخدمها بعثي ملتزم من المفروض أنــه اعتاد على تسميات أخرى متداولــة إعلامياً ورسمياً: طائرات العدوان، طائرات العدو، الطيران الأمريكي؛ لم أتكلم، ولم يعمد أحد إلى إحراج أبي تحسين الذي بقي صامتاً ولا يركّز في نظره إلى شــيء محدد، بقيت الوجوه تعبّر عن حيــرة بين تخوّف مما نقله أبي تحسين وبين إهمال الخبر وعدم الاهتمام به.

لــم يــدم الصمت طويــلاً، فقــد طُرحتْ فــي الزنزانــة تحليلات وتصــوّرات كثيرة عن هذا المســار المتعثّر للحرب التي كان ينتظرها

العراقيون ويخشونها، في تمزّق نفسي عصيب بين رغبة التحرر من الطغيان وبين الخوف ممّا يمكن أن تجرّ إليه الحرب، بينما البشر الموجودون هنا في السجن، والذين هم صورة مجسّدة للحال العام في السجن الكبير المفتوح على طول البلاد وعرضها، مضطرون إلى كبح قلقهم من مصائر الحرب ونتائجها لصالح رغبة في الخلاص من السجنَين، وفي الأقل من أحدهما، من هذا الحبس مجهول الأفق. بهذه الحدود فهمت الكآبة المفاجئة التي اعترت أبا تحسين الذي لا ينتظر أي فرج سوى فرج الخلاص من السلطة كلها دفعة واحدة، ولا خلاص منها من دون هذه الحرب التي يراها تُجهَض بقرار تركي مفاجئ.

لم يكن قرار تركيا مفاجئاً. تنتظر المنطقة حرباً معقدة ليس بمجرياتها الحربية المتوقعة وإنما بنتائجها التي ستربك التوازنات، وهذا ما يجعل الموقف التركي متوقعاً. لقد سمحت تركيا طيلة سنوات الحصار باستخدام قاعدة إنجرليك من قبل الأمريكان والبريطانيين لفرض تطبيق القرار الأممي بشأن مناطق الحظر الجوي الذي جرى بموجبه تحييد القوة الجوية العراقية في الصراع الدائر بين السلطة وخصومها العراقيين في شمالي البلاد وجنوبيها. كان الطيران الأمريكي والبريطاني في استخدامه لصلاحيات القرار الأممي يكرّس جوّاً، بدا مستمراً، من الحربُ التي أوقفتها الإدارة الأمريكية في ١٩٩١ بكارثة طالت مئات الآلاف من العراقيين الذين عادوا محطّمين من حرب الكويت أو من الذين بقوا في قراهم ومدنهم ينتظرون فرصةَ التعبير عن غضبهم وإرادتهم في إسقاط النظام. لقد خدعت أمريكا ملايين من العراقيين حين وعدتهم بدعم خروجهم ضد السلطة فتركتهم ضحية بطش لا حدود لبشاعته، كما

قدّمتـه التسجيلات الفيديوية للنظام التـي كُشِفتْ بعد سقوطه، وهي تسجيـلات لعـلّ من حسن الحظ أنها كانت لا بـدّ منها للقادة وكبار الحزبييـن لتوضيح الصورة وتأكيد ولاء قيادات حزبية وعسكرية أمام صدام ومن ثم فقد ساعدت في فضح الجريمة، جريمة سلطة مستبدة وجريمـة إدارة أمريكية عادت بعد أكثر من ١٥ عاماً لتعتذر للعراقيين عن موقفها المخزي مما تركتهم فيه.

لم أتكلّم في ذلك النقاش الذي جرى بثقة واطمئنان غريبين وكما لو أننا في بيت محكم الأمان وليس في سجن كان كل شيء من وسائل المراقبـة والتنصت متوقعـاً فيه. كان بعض مَن تحدثـوا يغلّف حديثه بصيـغ الحرص والولاء للسلطة بينما هو يذهب في تحليله إلى حتمية حـدوث الحرب، وكان الذهاب إلى مثـل هذه الحتمية في أي حوار هو تعبير لا واعٍ وغير مباشر عن رغبة بانتهاء النظام. تحدث علاء عن السلطـات التركية وأكد أنها في المآل الأخيـر تريد ابتزاز الأمريكان ودول الغرب لتوافق على استخدام أراضيها مقابل ضمانات بحصولها على ما تريد. كنت، في داخلي، أرى أن موقف تركيا محسوم لصالح عدم التدخل مع ثقتهـا بحتمية وقوع الحرب سواء بتسهيلاتها أو من دونهـا، لا تريـد تركيا التورّط فـي حسابات عراقيـة وإقليمية معقدة خصوصـاً أن النظـام العراقي، وقد حطمت الحربـان كل مخالبه، ما عـاد يشكل أية مشكلة مقلقة سـواء لتركيا أو لسواها من دول الجوار والمنطقـة، لكن مثل هذا الموقف لن يعدو كونه عائقاً طارئاً ستسْهَل على الأمريكان معالجتُه في الإطار الاستراتيجي الموضوع لحرب لا يمكن أن يوقفها عارض مثل العارض التركي.

أدرك ابـو تحسيـن أنـه قد بالغ فـي التحدث بحريـة عن الحرب

المنتظـرة فعاد بعينيه اللتين لا تستقـران على نقطة محددة وهو يختم الحوار بالقول:

– نتمنـى، نحن البعثيين، أن تحدث الحرب الآن وليس غداً حتى يرى الأمريكان أيَّ رجال سيواجهـون دفاعاً عن العراق والقائد، الله يحفظه.

وكان لمثـل هـذه الخاتمة أن تنهـي أيَّ حديث، سـواء بالموافقة عليهـا وتعضيدها، صدقاً أو نفاقاً، بشعارات متحمسة، أو بالصمت، احتقاراً أو خوفاً، والانسحاب الآمن من الحديث.

(٢٦)

قبل أن أمْثل للمرة الثانية أمام المقدم إبراهيم وفريق محقّقيه الشبان، كنت قد جرى اقتيادي إلى غرفة تعذيب، وجدت فيها الشاب الكردي ممدداً على الأرض ويطلبون منه المغادرة بعد وصولي فلا يقوى على ذلك. لقد تعرض إلى أسوأ ما يمكن أن يلقاه رجل مثله اعترف لهم بكل شيء ولم يبقِ على ما يخفيه عنهم. لم أحتمل المشهد الحادث أمامي، فندَّ مني ما يشبه الاعتراض حين قلت لهم:

- لماذا؟ لقد قال كل شيء، وأنا اعترفت بمجيئه لي و..

وقبل أن أكمل، تُرِكَ الشاب الكردي لتنهال عليَّ الضربات والشتائم وكلمات السخرية، فيما بقي المسكين في زاوية، ممدّداً على الأرض، لا يستطيع فعل شيء غير البكاء.

لم يكن يَدور في خلدي أنّ موقفاً كهذا الذي تساءلت فيه عن مبرر مواصلة تعذيب الشاب الكردي، وهو موقف عفوي حركته في داخلي مشاعر إنسانية بريئة، وقد دفعتُ ثمنها، سيكون له تأثير جذري في مسار التحقيق والمشكلة كلها.

أمام المقدّم إبراهيم كان ألمي وحزني مفيدَين في تبرير اقتضاب إجاباتي على أسئلة سريعة ومكرّرة. طلب أن تُرفع العصابة عن عينيَّ اللتين كانتا من الصعب عليّ فتحهما. كان يريد النظر في عينيّ حينما أجيبه على أسئلة يراد منها تخطئتي والعثور على منفذ لاختراق حاجز نكراني الرسالة التي هم جميعاً مقتنعون بتسلّمي إيّاها من الشاب

الكـردي. لقد كان البحث عن تخطئتي مجديـاً لهم فعلاً، فأمام هذه السرعـة والتنقّـل المفاجئ في محـاور الـكلام وموضوعاته وكثرة التداخل بين المحققين في هذه الجلسة أخطأت خطأً كاد يكون قاتلاً حين سهوت عند إجابتي على أحد أسئلة المقدّم فقلت له:

– حين تلقيت الرسالة كنت..

انتبهـت حالاً لهذا الخطأ الذي اعترفت بموجبـه بتسلّم الرسالة، فعدت مستدركاً فوراً بالقول:

– أقصد رسالة سامي الشفوية.

وواصلـت كلامي من دون أن أثير انتباه المقّدم إبراهيم الذي ربما كان مشغـولاً عن إجابتي. بعـد ربع ساعة، وحين طلـب المقدّم من المحققين الشبان المحيطين بي توجيه ما يشاؤونه من أسئلة لي، كان أول المتحدثيـن شاب يجلس إلـى الخلف مني بالضبط، كما خمنت ذلـك من الاتجاه الذي يأتي منه الصوت، وجه الشاب كلامه للمقدّم قائلاً:

– سيـدي في أثناء تحقيقك معه اعترف هـو بشكل صريح بتلقّيه الرسالة، وكان شيطاناً منتبهاً حيث عاد وحاول الرجوع عن اعترافه..

– كيف؟ كيف اعترف؟ لم أنتبه لذلك!

شرح الضابط الشاب ما حدث، فسألني المُقدم:

– هـا، ماذا تقـول بعد هذا؟ لماذا عدت وأنكـرت يا أفندي؟ كل التحقيق مسجّل بالصوت لدينا والصورة.

– نعـم أخطأت فعلاً. كنت أقصد الرسالة الشفوية التي حملها لي الشاب من سامي وهذا ما بينتُه بالتحقيقات السابقة، ولمّا خشيت أن

يُفهَــم كلامي بالخطأ، كما تفضّل السيّد الضابط، عدتُ فأوضحت . نعم كنت أقصد التوضيح وليس التراجع.

بقيت عيناه تتنقلان ما بين وجهي وحذائه، وهو يقاطعني بالقول:

– رجعتَ تتمنطق أمامي، وتعرف كيف أردّ على التمنطق الفارغ!

– ....

– للمـرّة الأخيرة سأطلب إحضار الكـردي ليواجهك بالحقيقة، بعدها سيكون لي حساب آخر معك.

نـادى ليوتى بالشاب الكردي الذي حضر. كان هو الآخر مفتوح العينين فيمـا تكاد ساقاه تخذلانه في حمل جسـده المتهالك. وقف علـى مسافة متوسطـة بيني وبين المقدم، وكانت عينـاه المضمّختان بالدمع متجهتين نحوي بتركيز شديد، فسأله المقدم أن يعيد ما حدث له معي في الجريدة، صمت لحظة، ثم قال:

– والله سيدي سأقول الحقيقة!

– ابن الكلب، وماذا كنتَ تقول قبل هذا؟

– سيـدي، أنا صحيح جئـت إلى الجريدة، وجلسـت في مكتبه ولكـن ليس أكثر مـن دقيقتين أو ثلاث، لاحظـت عليه الانزعاج من مجيئـي، كان قليل الـكلام معي حتى أني استغربـت أنه لم يطلب لي شاياً..

– إي حقّك، مو كنتم بشايخانة حتى يأمر لحضرتك بشاي!

– أنـا أخرجـت الرسالـة ووضعتها علـى مكتبه، ومـا أدري إذا شاهدها أو لا..

– فتحها وقرأها؟ أليس كذلك ابني؟

– أنـا طلبت منه ليسمح لـي بالخروج، خرجت بعـد أن قال لي (شكـراً، سلِّم لي على سامي .) ولا أعـرف هل انتبه لها، هل فتحها، هل قرأها؟ أنا خرجت مباشرة والله يا سيدي!

كان يقول هـذا وعيناه، دامعتين، تتحدثان معـي: لقد غيّرتُ كل شيء إكراماً لموقفك وأذيّتك بسببي، هكذا كنت أسمع عينيه تقولان. كان حديثه مع المقدّم يأتي لي مثل عاصفة من عطر وسط تلك الجيفة التي دُفِنتُ فيها. قلت مع نفسي: لقد تغيّر كل شيء. لقد نجوت.

أخرج المقدّم الشابَّ الكردي بصفعة رمت به دفعةً واحدةً خارج المكتـب، كان يتبعـه سيـل من شتائم بذيئـة لا يُسمَع مثلُهـا في أكثر الأماكن وضاعة ودعارة.. صاح أحد المحققين الشبان:

– ماذا قال هذا؟ كيف غير إفادته؟

– لن يجديه ذلك، سأعرف كيف أجعلهما كلبين يتوسلان ويلعقان الحـذاء من أجل تثبيت إفادتهما واعترافهما بالحقيقة.. مع مَن يلعب هـؤلاء؟ (ثم التفت نحوي غاضباً فيما كان يتناول ورقاً نشافاً ليمسح فمه) ماذا تقول يا سافل؟

قـال المقدم ذلـك وسط صمت خيم على جميـع الضباط الشبان وعلـى القاعة ولم يقطعه سوى وقع ضرب وآهات كانت تتسرب من الشاب الكردي عبر الباب والنوافذ، أجبت المقدم بقصد تغيير اتجاه انفعاله:

– سيـادة الضابط، هنا تلفـون وتستطيع الاتصـال برئيس تحرير الجريـدة، وتسأله عن كمّ الرسائل التي يتلقّاهـا القسم الثقافي يومياً؛ أتلقـى يومياً بحـدود مئتي رسالة مـن كل المحافظـات، وربما فعلاً وضعَ الرجل رسالتَه على المكتب واختلطت بين هذه الرسائل التي لا

يمكن أن أفتحها جميعها وأقرأها بمفردي في غمرة عملي وبعضها لا أقرأهـا أصلاً. الرجل محق إذا كان فعلاً وضع الرسالة على المكتب، لم انتبه لها أبداً.

- كيـف لم تقـرأ رسالة جاءتك من صديـق وليس من قارئ بعث بهـا بالبريد، رسالة ومن صديق، وأيـن هذا الصديق؟ في الشمال، مع الجيب العميل، والرسالة ليست بالبريد، بيد شخص كردي، كيف لم تفتحها مباشرة، فهّمنا يا أستاذ، اعتبرنا حميراً مثلك، نريد أن نفتهم؟

- قلـت لحضرتك أنا لم أنتبه أصـلاً للرسالة، ولست متأكداً فعلاً مـا إذا كان مـا يقوله صحيحاً عن وضعه الرسالـة على مكتبي فكيف أفتحها وأقرأها؟

ردّ عليَّ بنبرة لم تخف ملامحه استهزاءها وتذاكيها:

- لا طبعاً غير صحيح! كيف يرميها على المكتب ولا يناولها لك بيدك. فعلا مثل هذه الرسالة لا تعطى إلا باليد، أنت محق يا أخي!

- لم أقصد هذا. أنا أنفي، كما قلت في التحقيق، وجود أي رسالة.

عاد إلـى كرسيه ليجلس ولم يلبث حتى نهضـ مباشرةً بخطوات متثاقلة باتجاه ثلاجة صغيرة جنب مكتبه، تناول منها قنينة معدنية من ميرندا.

ثمـة أشكال من البشر لا تستطيع إلا أن تنفـر منها وتكرهها أو لا تفضلها، تشعر معها إما بقرف أو تضايق أو عدم اطمئنان، فكيف إذا ما تجمعت كل هذه المشاعر السلبية فيك نحو نموذج من هكذا صنف من البشر يمثّله بدقة أمامي الآن المقدم إبراهيم!، لا يمكن لأيّ إنسان وحيثمـا شاءت مصادفة نحسة أن تجمعه بإبراهيم أن يخطئ تقدير أن

هذا الرجل هو رجل مخابرات أو أمن، أناقة وعافية تختلطان بعجرفة وصلافة لا تتأتّيان في تلك الأيام إلّا لمن هو مثله وبمثل وضعه الأمني الرسمي الـذي يحصنه بقـوّة مسبقة في مواجهـة الآخرين الخائفين دائمـاً والمتوجسيـن مـن كل غريب والذيـن اعتادوا علـى تدريب فراستهـم من أجل تخمين (القيمة الرسميـة) للفرد، كما تفصح عنها هيئته وتصرفاته، وهي عادات نشطت في المجتمع بكل مستوياته من أجل تفادي شرور وأقدار غير محسوبة. تضايقت وقرفت من المقدّم منـذ أولى لحظـات اللقاء به، وها أنا يتعزز لـدي الإحساس بضرورة عدم الاطمئنان إليه؛ رجل في نهايات شباب ما زال متشبثاً به، متهور وعدائـي ويختزن طاقة غريبة للكراهية والانفجار والرغبة في الإيقاع بالخصـم الذي هو المعتقل الذي هو أنا. أمام المقدم إبراهيم لا يشعر المـرء أن هـذه الرغبة بالإيقـاع بالخصم هي نتـاج لتصرف وظيفي مطلوب قـدر ما هي تعبير عن نزعة انتقـام احتلت كل روحه ويدرك معها المقدم أن الاعتراف قد يعني الموت.

قبل أن يعود ليجلس، قال لي:

– سأسألك سؤالاً..!

تناول جرعة ميرندا من القنينة مباشرةً وواصل وهو يجلس:

– سـؤالاً أريـد معـه إجابـة دقيقـة واعرفْ يـا حيـوان حساسية الموضوع!

– نعم، تفضّل.

– ماذا قلتَ لزوجتك عن مجيء الكردي ورسالة سامي؟ شرحتَ لها تفاصيل الرسالة طبعاً؟

كان السؤال صاعقاً بالنسبة لي. بمثل هذا السؤال نصل إلى اللحظة الحرجة التي يخشاها كل المسجونين السياسيين طيلة عقود التعسف والظلم في العراق. دارت بي الأرض، ولكن لا بد من إجابة:

– ما دخل زوجتي بالموضوع..؟ أولاً لم أتلقَ أيّةَ رسالة حتى أشرح لها مضمونها، ثانياً لو افترضنا جزافاً أني تلقيت مثل هذه الرسالة، واؤكد أني لم أتلقَها، ما داعي حديثي لزوجتي عنها. يومياً أتلقى عشرات الرسائل، ما علاقة زوجتي بعملي ورسائلي؟

ضحك وأدار وجهه نحو الضباط وهو يقول لي بطريقة أراد معها الايحاء بمعرفته معلومات تعارض ما أقوله:

– حيوان، ألم أقل إنك حيوان! سؤالي الأخير لك: هل أنت متأكد أنك لم تتحدث لزوجتك عن الرسالة، وأنها إذا سُئِلتْ ستنفي علمها بها وبما جاء فيها؟

– متأكد تماماً.

قلتُ هذا التأكيد بينما أنا لم أعد واثقاً من قدرتي على الاستمرار فيه وفي نكراني.

نادى على الحارس، فتقيّدتُ، وعُصبت عيناي، وأُخرجت إلى الزنزانة.

تمنّيت لو أموت.

(٢٧)

واحـدة من أسوأ لحظاتي في الإحبـاط وشعوري بالعجز والفشل تصادفـت مـرّةً مع واحدة مـن أعظم لحظات التعبير التـي تلقيها من زوجتي عن أجمل المشاعر الإنسانية التي أتوقعها دائماً منها.

حدث هـذا قبل سنـوات، بالضبط في منتصـف عام ١٩٩٥، عام الحصـار الأسوأ الذي سبق وأن تحدثت عنه. ففي صباح يوم جمعـة، سمعت زوجتي عند بـاب البيت تردّ على سيدة جارة لنا، جاءت لتطلب منها شيئاً من طحين الحنطة لتخبزه، كانت زوجتي تعتـذر بصوت كنت بالكاد أسمعه، وأنا في الغرفة القريبة من باب البيت، حين قالت لجارتها:

– والله، أنـا خجلانـة جـداً أن أعتذر منك، لكن مـا بيدي إلا أن اعتـذر منك، نفد الطحين تماماً منذ أمـس. وأرجوك لا أريده يسمـع، أخشى عليـه حين يعرف بذلك. ليس لدينـا ما نشتري به الطحين وأنا مثلك محتارة.

لا داعـي للخشيـة يا أم حيدر، أوَ تتوقعيـن أني لا أعرف بنفاد الطحين؟ قلت ذلك، وتساءلت مع نفسي: لكن ما الحيلة؟

لـم أعتد الاستدانة، ولم آلف الظهـور بغير مظهر الرجل وربّ العائلـة المكتفي الـذي لا يحتاج إلى شيء. أغلقـت باب الغرفة، بقيـت صامتاً محطّماً أخشى من أن تدخل علـيَّ، فلا كلام. أسوأ لحظـات الرجل في عائلته هي تلـك التي لا يتوفر فيها على حلول حين لا يُنتَظر إلا منه الحل.

دخّنت كثيراً. وبعد أقل من ربع ساعة بدأت بكتابة (هذا خبز)؛ قصيدتـي عن الحصـار وأم حيدر والجوع والألـم وتمزّق الرجل المحبـط، استغرقـت في كتابتها خمس ساعات متتاليـة، لم أكن خلالها أكتب بقصد الشعر، لم أفكّر بعمل شعري، كنت فقط أريد أن أكتب. ربما كنت أسعى إلى كتابة حرّة تعيدني إلى هدف الشاعر الرافدينـي الأول الذي كان يريد تحقيـق الشيء وإيجاده عبر سحر الكتابـة. لم يجرِ أي تبييـض للنص الذي كتبته، لـم أغير شيئاً فيه. كنت أكتب بتدفّـق غريب، وكنت أضطر فأقطع هذا التدفق مرّات فأتوقف، كما اعتدت في كل مـا أكتب. عادةً ما أشعر أثناء الكتابة بإرهاق جسدي ونفسي شديدَين، فأتوقف عنها من دون أن أنفصل عن مناخ الكتابة واجوائها، برغم التغيير الذي أعمل عليه في طبيعة حركتـي وجلوسي وتمدّدي. لم يكن فـي الغرفة كرسي ولا طاولة للكتابـة، كانت الأرض طاولتي وكرسيّـي وسريري، وكانت هذه المعاناة ليست إلا مظهراً خارجياً عرضياً لمعاناة أشد تحدث هناك في الداخل المحطّم، وهو داخل لا يريد الاكتفاء بمواجهة حطامه ومواسـاة تمزقه وإنما يسعى للتعبير عن رائحة الحرائق كما تشتعل في عمق الإنسان حين لا يقوى على اطفاء حريق أيامه وحياته.

فـي سنوات التسعينيـات كنت، في حـوورارت صحفية، دائماً أواجه أسئلة عن ظرف كتابة (هذا خبر)، وكنت اعتذر عن الاجابة وأعـد بأن لحظة مناسبة ستأتي للحديـث عن ذلك. كانت كرامتي ككاتب تمنعني عن اعطاء إجابة ناقصة ولا مجال حينها الا لاجابة ناقصة تحذف تفاصيـل العوز ومحنة العيش بلا متطلبات أساسية. لكـن أنا أروي بعـد هذه السنوات ظرف القصيـدة وحكايتها بعد تغير كل شيء.

لقد انفتح صدري بعد كتابة (هذا خبز)، شعرت بالجوع والعطش. لـم أعتد أن أطلع زوجتي على شعر أو أية كتابة سواء قبل أو بعد كتابة (هذا خبز)، تاركاً لها هي حريّة أن تقرأ أو لا تقرأ، لكن هذه القصيدة قصيدتهـا وهي عزائـي لها عن الخبـز المضاع، الخبز الـذي قبلناه فـي أردأ مـا يكون عليه خبز يتناوله بشر، وها هـو يشحّ حتى برداءته ويتـوارى ولا سبيل إليه. كانت أم حيـدر هي القارئ الأول لـقصيدة (هـذا خبز) قبـل أن تُنشر بعد ذلك بستة أشهـر. ربما هي أول عمل شعـري انشغل بمفردة (خبز) التي لـم يألفها الشعر العراقي من قبل، كان السياب يتحدث عن جوع (مامرّ عامٌ والعراق ليس من جوع)، لكن ذلـك الجوع لايبلغ حدّ الافتقار إلى (خبـز)، فكانت القصيدة أول عمل سمح بالتعبير بكثافة عن (الخبز) ككناية عن الجوع والفقر وانهيـار الكرامة الانسانيـة بسببها. لقد رآها نقّـادٌ أسطورةَ الحصار والجـوع، بينمـا راها نقّـاد آخرون تحريضـاً على الثـورة وتفجيراً للصـراع، فيما هيّأت القصيدة مجالاً حيوياً لكثير من كتابات شعرية وأدبية جديـدة، وحفّزتها على الاقتراب مـن موضوعات وتفاصيل حياتيه ويومية كان يتفاداها الشعراء، ليجري التجرؤ من أجل التركيز على الجانب الأسود من الحصار والمسؤولية المشتركة بين السلطة والأمريـكان والمجتمع الدولي عن المعانـاة القاسية للشعب، والتي تسبـب بها الجميع في أخطـر إبادة غير مباشـرة تعرّض لها مجتمع بشـري ولسنوات طويلـة. كان الغذاء هو المظهـر الصارخ للإبادة، لكـن تحطيم النظـام الصحي وانتشـار الأمراض والعجـز الحقيقي والمصطنع عن مواجهتها وتفاديها وفشل الولادات وموت الأطفال وانهيـار التعليم وانسحـاق الجامعات وتلوّث البيئـة وأزمات النقل والإسكان وارتفاع نسبة العنوسة ومشكلات الزواج والبطالة وحتى

انهيار قيم وتقاليد وانحطاط ذوق وسوى ذلك الكثير كانت كلها مظاهر أخرى لإبادة مجتمع بكامله وإخراجه عن الحد الأدنى من السياق الحضاري والإنساني المتاح حتى لأخطر المجرمين في سجون الغرب الأوربي والأمريكي. كنا جميعاً، كمثقفين، كتّاباً وشعراءَ، دون ما مأمول منا في التعبير عن حجم المعاناة وفضح الجريمة. وليس واضحاً حتى الآن ما إذا كانت تبريرات بعضنا معقولة بأنّ الكلام عن الحصار كان يصبّ في مصلحة النظام، فيما كان كتّاب آخرون منشغلين بفهم تعبوي سلطوي أراد التأكيد على قدرات وهمية على مواجهة الحصار. لكن الكتابة عن مثل هذا الحال كانت فعلاً تتطلب حالة من التوازن الدقيق الذي تعرّي بموجبه الكتابةُ الإرادةَ الدولية الحمقاء من جهة وسوء استثمار السلطة الدكتاتورية لمعاناة شعبها من جهة أخرى، ذلك هو التوازن الصعب الذي كان ينبغي لمثقفي داخل البلد التوفر عليه، بينما مسؤولية مثقفي الخارج كانت أكثر حرية ويسراً في التعبير والخلاص من الملابسات الحادثة في هذه الأزمة الإنسانية الخطيرة، لكني فوجئت مرّة حين تحدّث لي مثقف عراقي، كان خارج البلد وأبلغني، عما تعرّض له من تقريع في التسعينيات، من أحد السياسيين المعارضين، حين دان هو الحصار، حيث رأى هذا السياسي في الإدانة ما يساعد النظام على التملّص من العقوبات الدولية ومن المصير الذي ينتظرونه له. هذا ما يفعله التطرف ومايسوغه الاستخدام السياسي للمعاناة: سلطة لا تريد كلاما عن الوجه المأساوي للحصار ومعارضة لا تريد ذلك أيضاً، تختلف الدوافع طبعاً، لكن النتيجة واحدة، معاناة ملايين البشر.

فـي ظلام تلـك السنوات، وفي سـواد لياليها، كنـت أحياناً أُعين أم حيـدر وهي تغسـل كميات كبيرة من تمر الزهـدي رخيص الثمن لتضعـه بقِدْر كبير على نار شديدة وتطبخه بالمـاء قبل أن يبدأ الفصل الأشد إرهاقاً، وهـو عصر الكمية المطبوخة واستخلاص عسل التمر (الدبس) منهـا والذي نعبئه في قنـانٍ زجاجيـة، كان معظمها قناني معجـون الطماطـم التي كانـت هي الأخـرى تتطلب جهـداً مرهقاً من أجـل تنظيفها من استخدامها السابق، بالمـاء الساخن ومساحيق الغسيل، وإعدادها بشـكل مناسب للاستخدام الجديد الذي نوظفها له.

لـم أعتد على أي عمل عضلـي أو يدوي، وهي الأخرى لم تمتهن فـي حياتها سوى التعليم الـذي احترفته منذ عام ١٩٨٢، لكنها، مثل أي أم عراقيـة فـي سنوات القحط تلـك، كانت أجدر منـي في تعلم المهنة الجديدة (صناعة الدبس) وفي بيعه بسعر مخفض إلى الجيران بالكميات المحدودة التي ننتجهـا كل ليلة. كانت تكتفي بسعادة أن أكون معها ولو بمشاركة وجدانية في هذا العمل الشاق الذي لا يؤمّن غير متطلبات يوم أو يومين من حياة الكفاف في أبسط متطلباتها.

الآن، أتخيَّـل ذلك المشهد الذي ننتهـي منه في ساعة متأخرة من الليـل فأضحك لمنظرنا فـي الصباح: هي تمضي إلـى عالم التلاميذ والمدرسة، معلمةً بما تستلزمه المهنة من ترتيب معقول في الملابس والمظهر وهدوء وتوازن يسمحـان باستيعاب حرية الأطفال وعبثهم وحاجتهـم إلى التعلم، وأنا أمضي إلـى الجريدة تاركاً ورائي عناء ليل من العمل والسهر وعذابات الروح والعقل والجسد، شاعراً وصحفياً لا أحـد يتخيل ليله ذاك ومهنته المسائية تلك.. لم يعرف بذلك أقرب

أصدقائي الذين كان لكلٍّ منهم وسيلته ليتدبّر ومعيشة عائلته حاله بهذا الشكل وذاك.

في الكثير من المرات طلبت مني أن أغادر العراق، مهاجراً يحفظ نفسه وموهبته من خطر محتمل في كل لحظة ومناسبة ومكان في البلد:

- اذهب واحفظ نفسك، لا تخش علينا؛ الأولاد يتعلمون ويكبرون ونحيا، المهم سلامتك!

كم سمعت هذا منها، خصوصاً حين كنت أعود إليها من محنة في العمل أو من صدف المساءلات المباشرة وغير المباشرة التي تتحرّى الماضي وتشكّك بالحاضر غير محسوم الولاء.

- حيثما تكون ستجد من يرحب بك، وستجد ما يناسبك من عمل معقول هو خير وأنفع من هذا الذي لا يسد رمقاً ويضعك في دائرة الخطر.

كانت تقول هذا، وهي تعبّر عن ثقة بي وبإمكاناتي لا أعرف كيف تأتّت لها، لكني أعرف الحال الذي يكون فيه الحب، الحب الحقيقي الخالص، مصدراً لمعرفة باطنية عميقة ولا تخطئ التقدير. كنت أقول مع نفسي حيناً، ولها حيناً آخر، إن الضعف الذي أنا مرغم عليه هنا خيرٌ لي من ضعف قد أواجهه هناك وأكون أنا من أختاره، أستطيع هنا مواربة هذا الضعف وقد أجتازه بأقل الخسائر، لكن لا حيلة في مواجهة ضعفٍ يختاره المرء بنفسه ويمضي إليه. ربما كنت أخدع نفسي بهذا التبرير، لا أدري. خسرت في بعض المواقف، وخسرت من حياتي الكثير، وخسرت من صحتي ما هو أكثر، استغنيت طيلة التسعينيات عن السهر الليلي خارج البيت مع الأصدقاء، وهو اعتياد

ظـل يلازمني حتى الآن. اضطررت لسنوات طويلة أن أعمل في ثلاثة أماكن ولما يقرب مـن ست عشرة ساعة في اليوم ومن دون أية عطلة أسبوعية، إنها خسائر تتراكم وتتسع وتترك آثارها في الجسد والمزاج والسلـوك كلما مضينا في نفق الحصـار، لكن شيئاً واحداً كان يعادل كل هـذه الخسائر وأنا أنظـر إليه باطمئنان، ذلك هو الضمير الذي لم أخسره يوماً ولم يخذلني مرةً.

في أول سفرة لي إلى خارج البلد، وكانت إلى عمان عام ١٩٩٣، كان معي رعـد عبدالقادر. كان الجو بارداً جداً في كانون الأول في عمان، وكنا، رعد وأنا، قد جئنا من جو بغداد المعتدل. كان كلّ منا بقميص وفوقه بلوز أوفـر. كان لا بدّ من ملابس ثقيلة، ولم يكن من خيـار أمامنا، مـع شحّة ما لدينا من نقود، سـوى الذهاب إلى أماكن بيـع الملابس المستعملة فـي عمان. كان دليلنا إليهـا صديق عراقي معارضـ، كان الرجل على بيّنة من إمكاناتنا، نحن صديقيه القادمين مـن العراق المحاصـر، فرأى (الفرصة) مناسبـة ليعرض علينا البقاء فـي عمان بشقّـة مؤثثة، لـكلٍّ منا، وبراتـب معقـول، كان العرض مغريـاً، ولكنه، وفي لحظته، بدا جارحاً في وجهه الآخر.. هل ينبغي أن يهاجـر كل العراقيّـين ليعبّروا عـن معارضتهم؟ التفـتَ إليّ رعد وابتسمنا معاً بمرارة؛ شراء موقف؟ ومَن يشتري ممّن؟ نحن بموقفنا غيـر الممالئ وغيـر المُشترى الـذي نتشرّف به ونحـن في جحيم بغداد، أم هو المعارض المقيم حرّاً في نعيم عمان ويعرض بيع وشراء الموقف..؟ كان الصديق بوضع مادي مسترخ تماماً، اكتفينا بشكره على العرض، كان أكيداً أنه ينطلق من نيّة طيّبة، وبالمقابل لم يكن أي منّا، أنا ورعد، منطلِقـاً من موقف يشكّك بوطنية الصديق وحرصه، كان يعرضـ المساعـدة في الانقـاذ من ورطة الجـوع ومن جحيم

الخـوف ومن نحس المصادفات التي يمكن أن تنهي حياة المرء، وربما كنا بحساسية مبالغ فيها، ففي ظروف العسر والحاجة تتضخم الحساسية عادة لدى نمط من الناس إزاء أي تصرف وموقف مساعدة وإلا فكثير من الكوابح وعزة النفس تنهار كلما كانت الضغوط أكبر. تلك هي خصوصيّات الحال العراقي التي لم يفهمها إلّا العراقيون أنفسهم في محنتهم تلك والتي كان يجهلها حتى إدوارد سعيد بعقله التحليلي النيّر.

اخترنا أرخص جاكيتين. عدنا وحدنا سعيدَين ومتدفئَين بالجاكيتين وحزينَين مما بدا لنا مساومةً لا نستحق أن نوضع فيها، نحن اللذين إذا شئنا أن نكون معارضَين سياسيَّين فسيكون مكاننا مع قوى لا تمتلك إمكانات هذا العرض ولا تعد بتقديمه لمثقفين مثلنا، عدنا إلى قاعة المؤتمر الذي كنّا مدعوَّين له، وقرأت ورقتي البحثية التي جئت بها من بغداد إلى عمان والمعنونة (الحريّة أولاً..)، ولم يكن الصديق معنا.

كنت أقول لزوجتي لكلّ مكان اشتراطاته ومشكلاته، وإذا لم أستطع التحرر هنا من اشتراط ما فيمكنني في الأقل أن أقدم مقابله خسائرَ أقل سواء في الموقف أو الرأي أو في المعيشة، وهي خسائر أكون معها مرغماً ومعذوراً حتى لو أمام نفسي وضميري، لكن الاشتراطات التي لا تقبل المناورة هناك في المكان الغريب وظروفه التي أجهلها ربما يكون ثمنها باهظاً، وقد لا يجد المرء من خيار سوى الاذعان مكرهاً. كثيراً ما كانت مشكلتي القاتلة أنا الذي اعتدت أن لا أطلب شيئاً هي التحسب المبالغ فيه من احتمال الوقوع تحت ضغط الحاجة.

مبكّراً، توفّرت لي ثقة سريعة بقدرة زوجتي على التنظيم والإدارة المنزلية وقدرة أخرى أعظم على مواجهة الصعاب والتحديات بصبر وبحلول عملية فتركت لها كلّ ما له صلة بهذا التنظيم الذي ما كان لأسرةٍ أن تستمر من دونه بسلام في ظروف الحصار.

شاهدتها لسنوات كان يتعذّر فيها شراء ملابس جديدة للأطفال، وهي تسهر على نولها وخيوطها لتحيك لهم أوفرات وتنورات، تفوق في جمالها وتكويناتها ما تزخر به السوق من بضاعة رديئة المنشأ والذوق. وحين اشتدّت الضائقة والجوع شاهدتها، وكان ذلك قبل أيام من عيدٍ كان على الأبواب، ولم نتمكن من أن نشتري ملابس جديدة للأطفال ولا حتى خيوطاً للحياكة، فاجتهدت قبل العيد بخمسة أيام لتفك خيوط ملابس كانت محاكة ومستعملة قبل سنتين أو ثلاثة، ولتبدأ بإعادة حياكتها بأشكال وتصاميم جديدة، أبدلت معها ألوان حيدر بما كان يستخدمه بلال، وهكذا للبنات. كنت مرهقاً في العمل، لم أسهر معها ليلة العيد حين كانت مُصرّة على مواصلة إتمام عملها المرهق الذي شغل أيامها الخمسة الماضية من أجل أن يرتدي الأولاد ملابسهم (الجديدة)، لكني أفقت فوجدتها في السادسة صباحاً، وقد فرغت لتوّها من آخر قطعة محاكة، وهي تهمّ لإعداد الفطور.

في الزنزانة الانفرادية، كانت ثقتي بها تطمئنني على قدرتها على سدّ غياب الزوج والأب. أهلي وأهلها قريبون منها، وهذا مصدر آخر مهم للثقة، لكن يومها، كما ذكرت سابقاً، كنت قد غادرت المنزل ولم يكن فيه سوى أجرة نقلي إلى الجريدة. كان يقلقني ضعفها على

غيابي، لا أضعف منها من دوني، كان يشد من إزري صبرُها الذي أعرفه واختبرته في غيابي خلال سنوات الحرب الثماني، وفي أسوأ محن الحصار. لم تتعرف على دلال امرأة على زوجها، لكنها انسحرت بدلال زوج على امرأته، وتحملت تقلّبَ مزاجه، من أشد ما يكون عليه العاشق من رومانسية وخفة روح وجمال وجدان ورقةِ لغةٍ، إلى أقسى ما يكون عليه الرجل من فظاظة حين شعوره باليأس والضعف والعجز.

الآن في الزنزانة، وقد نام الجميع، من سيحتمل معي هذا الشعور المدمر باليأس وتحطّم كل شيء أمامي.

في لحظات كثيرة احتجت إليها. علّمتني أن أحتاج إليها، لم أتخيّل للحظةٍ حياتي من دونها، ودائماً كانت تعطيني المثال على أن قدراً عظيماً نادراً جمعنا معاً، ومع هذا القدر تنظمت حياتي وتفرغتُ عن معظم شؤون المنزل لصالح عملي والكتابة. أحسست بسعادةِ تعلّمي بعض ما تدربت عليه هنا في ((الحاكمية))، غسل الملابس مثلاً، قلت سأتحدث لها عن هذه الخبرات الجديدة التي تعلمتها في السجن حين خروجي منه، لكن أشعر كم هي تحتاج إليّ الآن، كم سيكون نهارها بطيئاً وهي تنتظر عودتي، وكم سيكون ليلها طويلاً وهي تتقلّب بين نار الأفكار والمخاوف والهواجس، وكم سيكون صباحها قانطاً وهي تستيقظ على يوم آخر لا أكون فيه معها.

قلت: سيقبضون عليها.

كان كلام المقدّم واضحاً وصريحاً عن إمكانية استدعائها إنْ لم يكن القبض عليها والمجيء بها إلى السجن.

ما زالت السيدة في زنزانتها، هل ستكون هنا امرأتان؟

لم أعد أعلم ما هوآخر رقم وصل إليه السجناء؛ ضاع العد، كان يؤتـى بالمقبوض عليهم أفراداً وجماعات، بقيت أتنصّت من أسفل الباب عند مجيء أي موقوف جديد، ربما هي.

سألني محمد:

– مـا الـذي حـدث؟ لا تبـدو بوضـع طبيعـي منـذ عودتك من التحقيق.. ماذا؟

– أنا مرعوب، محمد.. أرجوك أنا مرعوب!

أخـرج قنينة البيبسي كولا، ووزع على الجميـع. لم أستطع حتى رؤيـة حصتي، اعتذرت عن أخذهـا بإشارة من يـدي. أكاد أتقيأ، لا أقـوى على الكلام، نظر إليّ محمد، وفهمـت أنّه يريد تأجيل كلامنا حتّـى الليل ونـوم الجميع. أنا أيضـا كنت أريد هـذا، فتمدّدت على بطانيّتـي متظاهراً بالنوم على وجهي، بينما أذناي في الممر وبالي في البيت وذهني يقلّب ما يفكر به المقدم وما ينوي الإقدام عليه.

كانت الكارثة قد اكتملت حين تذكرت بأنها تعرف كل شيء عن الرسالة. نعم هي تعرف كل شيء يا إلهي!!

عـدت مرهقاً ومنزعجاً فـي ذلك اليوم الذي جاءتنـي فيه الرسالة والشـاب الكردي. كان مـن أسوأ عاداتها أنها تحدس كلَّ ما يشغل بالي مـن خلال ملاحظتها ملامحي ونظرة عينـيَّ ومن طريقة تحيتي لهـا ومن أول تصرفاتي فـي البيت. أتذكر يومهـا حين دخلت البيت تظاهرت بابتسامة كاذبة وبمرح زائف، قالت:

– ماذا؟ ثمة شيء هذا اليوم؟ ماذا؟

– لا شـــيء، كنت سعيداً بلقــاء صديق لـم ألتقِ بــه منذ سنوات. لا تنغصي سعادتي بأسئلة لا مبرر لها، ألا يحقّ لي أن أكون مرةً سعيداً؟

– أبداً، لستَ سعيداً، ثمة شيء ما. قل لي أرجوك لا تدعني أقلق.. هل أهيئ لك الغداء؟

– لا، تغديت في المقهى.

– لكنك لم تكن في المقهى! جئتَ مبكراً من الجريدة، انظر إلى الساعة.. قل لي ماذا؟ ماذا في الجريدة؟

لم أتماسك نفسي، صرخت بها:

– هل أنا أمام زوجة أم محقق؟

– لا عليك، ارتح.. أنا آسفة!

خجلــت من حدَّتـي، وحتى إذا مــا استيقظت عنــد الغروب من نومي، جاءتني بكوب شاي وقطعة من كعك، ثم عادت:

– إيه؟ ما زلت لا تريد أن تفضفض؟ إحكِ يا عيني، بهذي الطريقة تؤذي نفسك وتؤذيني معك.. قل لي أرجوك ماذا جرى؟

شرحــت لهــا كل ما حدث من مجــيء الشاب الكــردي ورسالة سامي التي قرأتها ثم مزّقتها مباشرة.

– وماذا يقلقك من هذا؟

– لدي إحساس أن هذا الأمر لن يمر بسلام!

– لمــاذا؟ أنت لم تقل للشخصـ الذي زارك شيئاً يدعوك للقلق، اعرف أنك كتوم وشديد التحسّب.

– إذا عُــرف الأمر، فسأُحاسَب على تستّري على المعلومة وعدم تبليغــي على الكردي الذي جاءني بما هــو ممنوع في مكان عملي،

وعلى عدم تسليم الرسالة. حتى إذا تساهلوا معي فسأُحاسب حتماً، عشرات القصص مثل هذه لم تنته على خير.

- ومتى انتبهت على هذا الاستنتاج الأخير بشأن التستّر ومحاسبتك؟

- حالاً، حين كان قربي وعند ذكره سامي والرسالة بين يدي. حالاً فكرت بهذا، كنت أشعر أن وجوده قربي كارثة. لم أجد حلاً سوى أن أدعه يمضي ويتركني.

- هل أنت نادم على هذا الحل؟

- كيف؟ لا، لا، لا.. معقولة يذهب بك التفكير هكذا؟ أندم لأني لم أبلّغ على الكردي المسكين..؟

كان أسوأ إحساس راودني وهو قربي في الجريدة، وهذا ما لم أقله لزوجتي، فقد كان مرعباً حتى أني خشيت قوله لها، هو: ماذا لو كانت الرسالة ومجيء الشاب الكردي جزءاً من لعبة توريط أمني أو مجرد اختبار ولاء؟ ماذا لو كان الشاب مرسلاً من أجل التوريط أو الاختبار من قبل جهة أمنية؟ أمام هذا الهاجس كان لا بد من التبليغ عن كل ما جرى وقبل أن يغادر هذا الشاب مبنى الجريدة وإلا ليس سوى التحسب لاحتمالات كثيرة يكون أفضلها سيئاً. لجمت هذا الهاجس ومزقته مع الرسالة التي رميت بها في سلة النفايات وتركت ملامحي وتصرفاتي تعبر للشاب عن امتعاضي من وجوده، هذا أقسى ما أقوى على فعله في مواجهة الشاب والتخلص من الحرج الذي وضعني فيه، سلوك غير مهذب وخجلت منه ولكن ما عساي أفعل من أجل تفادي ما هو أسوأ من قلة الذوق تلك. لم أستطع فعل أي شيء في العمل في ذلك النهار.

نهضت مـن مكانها، وقبّلتني قبل أن تذهـب إلى صلاتها، وهي تقـول لـي: "كان الله في عـون العبد مـا دام العبد في عـون أخيه. أردتَ أن تحفـظ شخصاً وثقَ بك فسيحفظك الله حتماً، لا تبالغ في حساباتك، تهيأ لنمضي إلى الكرادة".

اعتدنـا فـي أيام الحصار علـى تزجية أوقات شحيحـة في شارع فلسطيـن والكـرادة مكتفيـن بالفرجة علـى معروضـات المحال. دائماً منذ الطفولة، كانت محـال الذهب والمجوهرات هي أكثر ما يستوقفني بخلاف ما يفعله الرجـال الذين ينأون بأنفسهم وبنسائهم عن تلك المحال واغـراءات معروضاتها، حين أردت أن أشتري بيتاً صغيـراً وخرباً باعت كلّ ما تملك من ذهب الزواج وما توفرت عليه فـي الثمانينيات، فيما كان الحصار بعد ذلك قد أخذ منها حتى خاتم الـزواج وتلك الفراشة اللازوردية وسلسلتها الذهبية التي أهديتها لها أيّـام الخطوبة، وكان قـد صاغها، كقطعة نادرة غيـر مكررة وبسعر متساهـل، الصديق المهندس عبد الكريم لعيبـي، صديقي الصابئي مـن أيـام كلية الهندسة في البصـرة. وبعد هذا، ها أنـا أتلمس خاتماً معدنياً رخيصاً بأصبع في كفها وهي تسحبني من كفي من أمام متجر كبير للذهب في الكرادة، تبتسم وتقول: "لا تنسَ، كلّ هذه ديون..! وديوني لا تسقط بالتقادم".

استعضـتُ عن هذا من خلال إسعادها بأشيـاء كانت ترى أنها لا تُقدَّر بثمـن، كانت هي وحدهـا التي تقدّر قيمتهـا. صرنا صديقين حبيبيـن أكثـر مـن كوننـا زوجيـن، وكان هذا مجـال تنـدُّر وغَيرة أخريات، من صديقاتها وجاراتها وقريباتها، كنّ يمزحن معها، وكنّ بهذا، حسب تفسيرها هي، يعبّرن عن الحاجة إلى صداقة أزواجهن.

فـي الحرب كنت دائماً ما أصوّر لها أنـي في المكان الأنأى عن المعـارك وقذائفهـا ودباباتها، فيمـا كان ملجأي فـي الجبهة مزاراً يوميـا لعشرات القذائف التي وحده الله يعـرف كيف كانت تضعني فـي دائرةٍ كان ملجـأي مركزها وموئـل شظاياهـا المتساقطة. وفي الإجازات كانـت حياتنا تتلوّن بأمسيات رائعة فـي مطاعم وأسواق المنصـور والأعظمية وشارع النهر، وهـي أماكن نزهتنا وراحتنا في أيام الخطوبـة. قبل هذا كنت قد خطبتها وتزوّجنا، وأنا أحمل بطاقة مـزوّرة أستر بها تخلّفي عـن الجيش والحرب، بينما هي التي طلبت منّي أن أتخلّف عن الحرب التالية في الكويت: "ابق هنا.. ولو تطلّب الأمر، فسنحيا براتبي ما حيينا".

لم أستطـع تناول العشاء مـع زملائي في الزنزانـة لكنني نهضت وغسلت وجهي ويديَّ وشاركتهـم الإناء المشترك مجاملةً ولأكسر المناخ النفسي السيئ الذي تلبّدت به الزنزانة بسببي.

وحتّى إذا ما نام الجميع، سألني محمد بهمس:

– ماذا جرى، أقلقتني؟

– زوجتي، محمد، سيجيئون بزوجتي.

– لا، لا! لا إله إلا الله..؟

شرحت له ما دار مع المقدم، وسألته رأيه، فسألني:

– هـل تعرف زوجتـك شيئاً عن الموضوع ومـا إذا كانت هناك رسالة؟

– لا، لا تعرف شيئا.

وتداركت:

– ليس هناك رسالة أساساً.

ولكــن، يا اللللله، هي تعرف كل شيء وتعـرف بالرسالة التي لا أقوى على الكلام بها حتى مع محمد الذي جاملني بالتأكيد فتجاهل اعترافي بالرسالة حين أبلغته بعدم معرفة زوجتي بها، بل بتّ لا أقوى على الاعتراف بالرسالة حتّى مع نفسي هنا في الزنزانة، بدأت أصدّق كذبي وادعائي بعدم وجود رسالة من فرط ما تمسّكت بهذا الخيار.

سيكـون من السهـل ايهامهـا من قبل محقـق قذر مثـل المقدّم ابراهيم؛ يكفي أن يعطيها المعلومات المتاحة عنده، ويتظاهر أمامها بأنـه استحصلها مني، كبلاغ ضدّ سامـي، ويريد التأكّد من صدقيّتها ليطلق سراحي، وسيكون جوابها حتماً بالإيجاب والتأييد للمعلومات المتطابقة مع ما تعرفه هي عن اللقاء بالشاب الكردي والرسالة.

هكذا كنت حتّى أرتّـب السيناريو الذي يمكن للمقدّم اتباعُه في انتزاعِ اعترافٍ ذهبيٍّ من زوجتي.

بقي محمد يحاول تهدئتي على أمر ليس بإمكاني تغيير المسار فيه حيثُمـا اتجه. استبعد أن يجري تطوير الأمر إلى حد اعتقال امرأة، لا هي ولا زوجها متورطان في شيء، والمخابرات واثقة من هذا، لكن محمد لم يكن معي في التحقيق ليعرف الطريقة التي أدار بها المقدم الكلام، ولم يكن بموضعي ليقـدّر مدى دقة معلومات ذلك السافل وصوابهـا، حتى أنّـي في لحظات خُيّـل لي أن تحقيقـاً مع زوجتي خـارج الدائرة وربما في مدرستها قد أجري فعلاً، وبه تم استحصال المعلومات الموثوقة التي يتحدث بها معي هذا الثعلب، كل هذه أدلة

ومعلومـات تتراكم ضدي وضد سخف نكرانـي وستضاعف حتماً نوع العقاب الذي ينتظرني.

تمنّيـت لـو أن تخمينـي الأخيـر، عن تحقيـق أجـري معها في مدرستها وتنتهي مسؤوليتها بـه، هو الأقرب إلى الحقيقة، فلتخلص هي ما دمت أنا متورطاً.

نام محمد، ولم أنم. كان ذهني منصرفاً إلى إعادة تذكُّر ما جاء في الرسالة التي أبعدتُها عن ذهنـي طيلة الأيام الماضية. لقد حان الوقت من أجـل الاعتراف، وهو اعتـراف سيعيـد دورة التحقيق من جديد ويضعني في مهب قدر أسود!

سأعترف..

(٢٨)

أنساني كابوس إشراك زوجتي بقضيتي بارقةَ الأمل التي شعَّ بها التعديل الجذري الذي أجراه الشاب الكردي على إفادته، لم أتذكره حتى سألني علاء مساء اليوم التالي عما جرى في التحقيق. لم أرد أن أتحدّث له عن التطور الخطير جراء إشراك زوجتي بتفاصيل القضية، فتذكّرت، في سياق حديث عشوائي عن التحقيق، ما قال به الشاب الكردي.

استغرب الجميع عدم اهتمامي بهذا التفصيل المهم، اتهموني بموقف يائس وعدمي لا يتناسب وضرورة التركيز على كل ما هو إيجابي وتنميته والتمسك به لصالح التخلص من المشكلة والسجن. وحده محمد الذي يعرف أن لا قيمة لكل تطوّر إيجابي إزاء تهديدي بزوجتي الذي لا يعرفه سواه، ولذلك تكفّل هو بالتبرير، بالنيابة عني، للآخرين بالقول:

- هو محق عندما يفكّر ويركّز على أسوأ الاحتمالات حتى يتفاداها.. شهادة الرجل الكردي باتت أمراً واقعاً يؤخذ بنظر الاعتبار حتماً.

أيّدته، وأضفت أنه بالتأكيد ستجرى تحقيقات أخرى في ضوء الإفادة الأخيرة للشاب.

لم أواصل، فقد سمعت أصواتاً كثيرة، قلت حتماً هم مجموعة جديدة من المقبوض عليهم. كان عدد وطبيعة الأصوات يوحيان أن

هــذه المجموعة الجديــدة أكثر بكثير من المعتــاد، وكان واضحاً أنّ أكثر من أربعة حرّاس يرافقون المجموعة الجديدة، في الأقل ميّزت، وميّز معي الآخرون أصوات الحراس الثلاثة الذين اعتدناهم.

فُتحــت أبواب أكثر من زنزانة بالتنــاوب قبل أن يُفتَح باب زنزانتنا ويُرمــى إلينا بشاب أسمــر ممتلئ.. سلّــم علينا، فبــادره أبو تحسين بسؤال قبل أن يرد على التحية:

- الأخ مصري؟

- نعم، أنا فتحي من مصر

- يا مرحباً بك، سلامات، سلامات. استرح.

رحــب به أكثر من واحد فــي الزنزانة. لم يرد فتحــي بشيء، كان مرعوبــاً، يتأمل في الوجــوه، فيما توحي تعابير وجهــه أن باله وذهنه كانا في مكان آخر.. سأل من دون أن يوجه السؤال لشخص محدد:

- أين نحن؟ في أي سجن؟

- في ((الحاكمية)).

أجابه خميس، فعاد ليسأل:

- قلت أيه؟ (الحاكمية)؟ إيه يعني (الحاكمية)؟ أمن ولّا مخابرات ولّا أيه..؟

- سجن المخابرات العامة..

- مخابرات؟

كان فتحــي مندهشاً وخائفاً، وكنّا نحن أيضا مندهشين من مجيء رجــل مصري للسجن هنا. الوقت غير مناسب لمعرفة مشكلته، لكن

الحـاج حسين الذي تحوّلتُ إلى مترجـم عنه وله من دون أن أعرف لغته الفارسية طلب مني ، بعدما عرف بكونه مصرياً غريباً مثله هنا، أن أسألـه ما إذا كان ضمن هذه المجموعة الكبيرة التي جيء بها، سألته، فأكـد ذلك فيما كانت عيناه وملامح وجهه تعبر عن استغراب من لغة الحاج حسين. أفهمت الحاج أننا جميعا غرباء عن هذا المكان وكلنا أهـل فيه. كنت أتفاهم مع الحـاج حسين بكلمات أحاول جاهداً من أجل العثور عليها وليس بجملٍ وهذا ما شغل فتحي الذي سألني:

- العمّ كردي؟

- لا، هو إيراني فارسي..

- إيراني؟

كان المصـري الـذي أُعطي رقم ٥٠٢ واحداً مـن أربعين معتقلاً جـيءَ بهم من حفل كان قد أُجري من قبـل مجلة مسيحية تصدر عن الكنيسـة في بغداد، وكنـت مطَّلعاً قبل الحبس علـى بعض أعدادها. كانـت المجلة تعنـى بالجانب الديني وبأخبـار الكنيسة، وهي مجلة متواضعة حتـى في طريقة إخراجها وورقها وطباعتها، وتكاد تقترب بهـذا التواضع مـن النشرة الخاصة محدودة التـداول أكثر من كونها مجلة توزَّع بشكل عام، وهذا ما هو مألوف عن مطبوعات كثيرة في البلد في سنوات الحصار.

كانـت التهمـة الموجهـة إلـى المجموعـة التـي معظمهـا مـن المسيحيـن، باستثنـاء ثلاثـة أو أربعة من المسلميـن بينهم المصري فتحـي الذي معنا فـي الزنزانة، هي العمل التبشيـري الذي قيل، كما نقـل لنا ذلك فتحي عن المخابرات، أنـه هدف الحفل الذي أقيم في قاعة حفلات في واحد من فنادق بغداد.

ينكر فتحي صحّة التهمة، وهـذا الإنكار ينسجم مع ما أعرفه عن الكنيسـة في العـراق. يقول فتحـي إن الحفل لا يتعـدّى كونه حفلاً اجتماعيـاً ليست وراءه أية أهداف دينيـة أو سياسية. لكن فتحي كان يعزو التهمة الملفقة، كما يصفها في ما بعد مع تمتّن الثقة بينه وسجناء الزنزانـة، إلى تصـارع كنسي بين مجموعة مسيحيـة مرتبطة بحزب البعـث وبين رجال الكنيسـة المخلصين لرسالتهـم الدينية والذين لا يعنيهم شأن السياسة. لفّقت المجموعة الأولى التهمةَ من أجل أن تطيح بالمجموعـة الثانيـة، كما خمّنـت ذلك، حيث كان مـن المستحيل مجرد التفكيـر بالقيام بنشاط مثل هذا الذي قُبض بسببه على فتحي وجماعتـه. من الصحيح أنّي قبل السجن كنت أسمع عن تحول ديني يقوم به عراقيـون ولكن كان هذا يتمّ خارج العراق ولا صلة للكنيسة وللمسيحيين العراقيين بـه؛ يضطر عراقيون راغبون بالهجرة أو النفي الاختياري فيستثمرون، أمام جهات اللجوء الدولية، القوانين العراقية التي تمنع مثل هذا التحوّل كما يستثمرون القوانين الأوربية التي تمنح حق اختيار الدين والتفكير والمعتقد، وكل هذا الاستثمار هو من أجل الحصول علـى اللجوء في دول الاتحاد الأوربـي وأمريكا وذلك إما للتخلصـ من مثل هذا الحال الذي نحن نـرزح فيه أو تطلّعاً إلى حياة أخرى هناك، بينما الكنيسة في العراق معروف عنها تفهّمها للحساسية الدينية وتحاشيها أي عمل مثل هذا من شأنه تأليُب السلطات. وعادةً ما كان يقـال أيضاً إن مثل هذا التحوّل يجري في خارج العراق في بلدان الجـوار العربي، مـن دون تدخّل مسيحي عراقـي، وبسرّية تامة لحين الحصول على اللجوء والانتقال بموجبه إلى دولة أوربية.

بعد دقائق من دخول فتحي الزنزانة سمعت صوتاً نهضتُ معه نحو الباب؛ وضعـت أذني عليه وسط استغـراب الجميع من حركتي هذه،

لقد سمعت صوت امرأة جيء بها. لم اعبأ بدهشة الجميع، كان المهم أن أميّـز الصوت الذي بدا واهناً منكسراً بالكاد يُسمَع. لم أسمعه جيداً ولم أميزه. لم أميزه، فانهاريت.

استلقيت علـى الأرض، وكانت أذني تحاول عبثاً البحث عن منفذ للصوت من أسفل الباب.. (لقد جاؤوا بها، يا الله، ماذا أفعل؟)، هكذا صرخـت في أعماقـي؛ لترفعْ صوتها قليـلاً، لا أميّز الصـوت، بالكاد أسمع نشيجها. كان أنفي يتمـرغ بتراب أرضية الزنزانة، وكانت أذني تـكاد تلتصق بالحديد البارد للباب. لا صوت، يا إلهي، نسيت الزنزانة وفتحـي والآخرين. كان وقـع خطاها يبتعد شيئاً فشيئـاً. ما أسمعه من نشيـج ومن كلمات قليلـة تردّ بها على أسئلة الحارس يكاد يضيع بين اللغـو والضحكات العالية للحراس مع بعضهم. وحين فُتح باب زنزانة وأُغلـق عليهـا كان الصوت وكل شيء قد انقطـع واختفى عن سمعي، أعتـم المكان في ناظـري وامتلأ صدري بالتـراب، لقد دفنت وجهي على البلاط. شعرت باختناق شديد لم أسع إلى التخلص منه حتى ربّتت كـفٌّ على كتفي فجـأةً، أدرت رأسي نحوها، كانـت يدَ محمد الذي يكاد يختنق وهو يقول لي:

– انهضـ! ألـم تسمع ما قاله فتحـي، هذه سيـدة مسيحية ضمن مجموعة فتحي كانت معهم في الحفل.

فعـلاً لم أكن قد سمعت فتحي، ولم أدرِ بما جرى حولي في تلك الاثنـاء التي بـدت دهراً، كنت بعيـداً عن الزنزانـة والسجن والعالم، كنت أحاول الإمسـاك بصوت أتضرع من أجل أن لا يكون صوتها. لكنها اختفت واختفى الصوت.

استغرقـت فـي غيبوبـة للحظـات قبـل أن يرشـ الحـاج حسين

والآخـرون ماءً على وجهي وقبل أن أعود إليهم من دون أن يعرفوا ما الذي حدث.

عدتُ إلى مكاني.

إنهـا سيـدة ثانيـة، وليست زوجتـي إذاً، يؤتـى بها إلـى الحبس الرجالي، إلى جنب تلك السيدة التي في الزنزانة المقابلة.

مـا أضعفنا! وما أقذر هؤلاء، ومـا أتفه الأقدار التي تجعلني سعيداً لأن سيدةً أخرى غير زوجتي قد اعتُقِلت.

هـل ينبغي أن أُسعد لأن المرأة التي جيء بها في هذا الليل لم تكن زوجتي..؟

(٢٩)

مثلمـا توقعنـا، كان مجيء فتحي إلـى الزنزانة بدايـةً لأيام تلونت بشيء من الخفة والسخرية من مرارة الحال الذي كنا فيه. تحوّل الألم أحيانـاً إلى نكات، وتحول الحبس إلـى طرائف تُروى، ينقضي معها النهار بالضحك على حراس ومحققين لم يبق لهم في متعة أدوارهم، التمثيليـة منها والجدية، سوى أيام ليخلصوا مـن ((الحاكمية)) ومن هذه الأدوار التي تورّطوا بهـا واستمرؤوها وليعودوا بشراً مثلنا. لقد صار واضحاً للجميع، ولو بالصمت، أن جميعنا ينتظر الحرب ومعها الخلاص من كل شيء.

المصريـون وطنيون فـي كل شيء، لـم يرق لفتحـي أن يقال في الزنزانة إن ((الحاكمية)) أسوأ سجن على الأرض، لا بد من أن يكون لمصـر امتياز حيـازة السجن الأسـوأ. كان يتحدث عـن سجن (أبو زعبل) بحماسة جعلته يفتخر بعظمة مساوئه وبمدى الظلم والتعسف الـذي جرى ويجري فيه. سـرد قصصاً كان قد سمعهـا من مصريين بقـوا في هذا السجن الشهير لسنوات، كما يقول، ولم ينس أن يكون متحسباً مـن المباحث المصريـة حتى وهو في سجـن (الحاكمية)، فأكد أن مثل هذا التعسّف خفّ كثيراً مع وصول سيادة الرئيس محمد حسنـي مبارك لسـدة الحكم. كان الغريب هو فـي قدرة فتحي على أن يـوازن بين أهوال (أبـو زعبل) وبين أن يؤكد عدالـة مبارك. أصرّ علـى الاحتفاظ بامتيـاز السجن المصري، من حيـث مدى البشاعة، فـي مقابل إصرار خميس على عدم التنازل عـن امتياز ((الحاكمية))

العراقـي. ظل الجـدل غير محسوم بينهما أيامـاً، حتى عاد فتحي من وجبـة تعذيب، مـا إن صحا من تأثيرها حتى جرّ أذنـه اعترافا بأحقية خميـس، معلناً تنـازل جمهورية مصر العربيـة لجمهورية العراق عن هذا الامتياز الذي لا يُضارعه بلد فيه.

احتفلنا بهـذا النصر الوطني اعتماداً على المائـدة السامرائية التي جرى تجديدها قبل يوم، فـي أثناء زيارة عائلة محمد، وكان من بقايا وجباتهـا الأساسية (كبدة بالزيت)، إضافـة إلى ثوابتها الأكثر ديمومة من معجنـات أبرزها (الكليجة) وفواكه طازجـة ومجففة وحلويات ومكسرات ومعها بيبسي كولا حتماً.

مـع هذا أهـدت المفاجأةُ فتحـي نصراً لم يكن يتوقعـه في أفضل حال، فقـد اكتشف فتحي بالمصادفة أن محمـد يحتفظ بسكائر في ثنايـا بطانيته، ومعها عرفنـا أن فتحي مدخن، فكانت مشكلة أخرى: ينبغي تأمين إشعال سيكارة لفتحي.

مـرّة أخرى ابتسم الحـظ لفتحي، فالحارس هـو الشاب اللطيف الـذي لم يمانع في إشعال سيـكارة واحدة لمحمد في النهار وأخرى في الليل، مؤكداً علـى ضرورة أن لا يُطلَب هذا من زملائه الآخرين، حيـث عاد الحارس بعد ربع ساعة بقداحة خبّأها في كفه التي أدخلها من نافـذة الزنزانة ليشعل السيكارة بعيداً عـن مدى تصوير كاميرات الممر.

لـم يكتفِ فتحي بالسيكارة التي لم يطفئها حتى أشعل ثانية بعقبها فيما تلبّد جو الزنزانة محكمة الإغلاق بالدخان ورائحته التي كرهتها أنا المنقطـع حديثاً عن التدخين. احتمل الجميع ذلك إكراما وتقديرا لحاجـة فتحي، لكن الحـاج حسين الذي لم يستطـع مواصلة صبره

على السيكارة الأولى في هذا المكان المغلق تماماً والضيق والمكتظ فامتعض وعبر عن انزعاجه بحدة أزعجت فتحي ولتنشأ مشادة بين الاثنين، مشادة كان كل منهما، بلغته، يشتم ويسخر ويتبرم من دون أن يعرف خصمه ما يقول.

أعرف مَواطن ضعف الحاج حسين الايراني، وهي أقرب الى مَواطن ضعف فتحي المصري، تلك هي المشاعر الوطنية التي يتمسكان بها، بمناسبة ومن دونها، في كل حوارات الزنزانة وخلافاتها، تلك المشاعر التي تتأجّج عادة في المكان الغريب، فكيف هي بالسجن الغريب في المكان الغريب. كانت اللغة العربية المشتركة بين العراقيين والمصري في الزنزانة تخلق، كما بدا واضحاً لنا ذلك، قناعة لدى الحاج بأننا جميعا في طرف وهو في طرف آخر.. لم يكن لم حاج حسين قادراً على التعبير عن تلك المشاعر وعن إحساسه بالوحدة، وهي مشاعر بدأت بملاحظتها مع سرعة اندماج فتحي بالمجموعة، لكن انفعالات وتعابير وجه الحاج كانت تفصح عن ذلك الشعور الذي يكن في وارد اهتمام أي سجين في الزنزانة.

تذكّرت أني أحفظ بيتين من رباعيات الخيام بالفارسية، كان قد غناهما المغني والموسيقي الإيراني شجريان، فيما أحفظ معظم الترجمة الممتعة التي قدّمها أحمد رامي لرباعيات الشاعر العظيم كما غنتها أم كلثوم قبل عقود. قلت للاثنين:

- بينكما مشتركٌ هو الخيام ورباعياته، لذلك سأغني لكما مقطعاً من أم كلثوم المصرية وآخر مما أحفظ من شجريان الإيراني.

انتهيت من المقطعين، ليبقي فتحي يواصل أداء أغنية السيدة أم

كلثـوم، فيما انزوى الحاج حسين مستسلماً لنوبة بكاء حادة لم تُفلح معها كلّ محاولات فتحي الكثيرة ومداعباته في إخراجه منها، وكان عليَّ من بعدما صحا الحاجِ من نوبته أن أعمل المستحيل لأقنعه بعدم معرفتـي بالفارسية التي ظلّ يصـرّ على أني قد أخفيتهـا عنه، متذرعاً لذلك بقراءتي بيتي الخيام.

يفخـر المصريون بروحهـم الفكهة، مردّديـن أنّ أصل الذي بنى مصـر كان حلوانياً.. ولا أدري مـا إذا كان الإيرانيون يسعدهم امتياز كونهم أعظم البكائين على الأرض.

(٣٠)

تأجلت الحرب ولكن ليس بسبب الموقف التركي وإنما لمصادفة عيد الأضحى.

كان علاء هو الذي أبلغنا بذلك بعد عودته من جلسة تحقيقية، خرج منها بفحوى أنه سيحال إلى المحكمة حتماً. حاول الجميع طمأنته، لكنه كان يتحدث بثقة عن أنه سيحكم عليه بالحبس، لم تخف ملامحه ونبرة صوته سعادته بمثل هذا الحبس المتوقع، المهم أن لا يُعدَم، مال نحوي مبتسماً وهامساً:

- الحرب.. سيحكمون هم عليّ بالحبس وستطلق الحرب سراحي.

أبو تحسين، وحين عاد أمس من جلسة تحقيقية، كان أكثر تفاؤلاً من علاء حين قال عن مشكلته:

- هذه مشكلة ستطول قبل أن تصل إلى المحكمة. الحرب ستسبق أي شيء.

فيما كان محمد على أمل أن يُطلَق سراحه في أيّة لحظة، حتى أنه، ومنذ ثلاثة أيام، حفظ، على ظهر قلب، رقم هاتف منزل والدي، وتكفّل بتوضيح كل شيء للعائلة.

كنت أقرب إلى الاطمئنان بعد مرور هذه الليالي التي لم يؤتَ فيها بزوجتي، ولم أستدع لتحقيق آخر له صلة بها. صار واضحاً

عنــدي أنّ الموضوع لا يتعدى، بإطاره العــام، استفزازي والضغط عليّ بورقة الزوجة. هكذا، في الأقل، طمأنت نفسي

وفــي أول يــوم العيد، وفي حدث غير متوقّــع، زار مدير السجن الزنازيــن وهنأ السجناء بالعيد. عزا عــلاء الزيارة والتهاني إلى كونها تعبيــراً غير مباشر عن أن رجال المخابــرات بدأوا بـ (غسل أيديهم) من مستقبــل النظام، والّا ففي ظروف أخرى، كظروف الثمانينيات والتسعينيات، لم يكن ممكناً أن تحدث هذه الزيارة التي لا يحلم بها السجناء ولا يجرؤ السجّانون على القيام بمثلها.

قبــل أن يصل المدير إلى زنزانتنا سمعته يطمئن السيدة المسيحية، وكان واضحاً مما سمعت أنها لا تريد أن تطمئن، فيما سمعت السيدة المسلمة تقول له:

- المفروض أن يجري نقلنا إلى سجن للنساء.

ولــم أسمع له تعليقاً على مــا قالت، بينما في زنزانة أخرى سمعت المدير يقول لسجين فيها:

- الناســ تذهــب لترتاح في بيــروت وتستمتع وأنــت تعود منها وهابياً؟ غريب أمرك.

ردّ عليه السجين:

- أنا مسلم سنّي سلفي سيدي، لست وهابياً.

لــم يعلّق المديــر بشيء سوى ضحكــة مجلجلــة استغربت معها الحــوار والمشكلة. فُتِحــت نافذة زنزانتنا؛ وبعد تبــادل سريع وبارد لتهانــي العيــد، سأله محمد عــن مشكلتــه، فلم يعط جوابــاً واضحاً محدداً، ليتحول ويسأل فتحي عمن جاء به، وهو مسلم في غير بلده،

إلى حفل مسيحي، لم ينتظر جواباً من فتحي، حيث نظر إليَّ، وسألني مباشرةً:

- الصحفي أليس كذلك؟

- نعم.

- أين وصلت قضيتك؟

استغربت السؤال الذي افترضت أن الإجابة عليه لديه هو وليست لديَّ.

- لا أعرف، التحقيق مستمر. لكن هل يمكنني الاتصال هاتفياً بالبيت أو الجريدة؟

- لماذا؟

- فقط لتطمئن عائلتي في هذا العيد أني هنا..

في هذه الأثناء كان الحاج حسين يقف إلى الخلف مني، يلكزني ويتوسل بي أن أسأله عن قضيته بحيث انتبه له المدير، فوجد فيه فرصة للتهرّب عن إجابتي، فسألني:

- ماذا يريد؟ أليس هو الإيراني؟

- يطلب مني أن أسألك عن قضيته؟

- وهل تعرف الفارسية؟

- لا، يعتمد على الكلمات المشتركة بين اللغتين وعلى لغة القرآن في حديثه؟

- حسناً، قل له يوجد اثنان من جماعتنا لدى (اطلاعات). كتبنا لهم أن أفرجوا عنهما نفرج عن صاحبكم. نحن في انتظار جواب المخابرات الإيرانية عن طريق وزارة الخارجية.

وحين غادر المدير إلى زنزانة أخرى لم يكن أيّ منا قد حصل على شيء باستثناء هذا التعقيد الذي تورُّط به الحاج حسين. ازداد اطمئناني على مشكلة زوجتي؛ كان واحداً من مقاصد طلبي الاتصال بالعائلة هو كونه محاولة اختبارية لحثّ المدير على الكلام عن موضوع زوجتي وما إذا كان حقيقياً أو أن المخابرات جادة في استدعائها والتحقيق معها.

بقي الحاج حسين ينظر إليّ وكما لو أني القاضي الذي سينطق بالحكم عليه، كان جواب المدير يعني لي أن قضية الحاج دخلت في إطار معقد لن يكون معه الإفراج عنه ممكناً وقريباً. أردت أن أطمئِن الحاج، وإلا ما الجدوى من إخافته بالتفاصيل التي تحدّث بها المدير والتي أعجز حتى عن إيصالها بوضوح إليه، وهي تفاصيل لا يقوى على أن يكون طرفاً فاعلاً فيها ولا حتى التخلص منها بأي تصرف منه، قلت له متفادياً النظر في عينيه:

- فرج قريب..

ضحك الحاج حسين فرحاً، ومضى ليتوضأ، وانصرف يصلّي شكراً لله على الخبر السعيد في أول أيام العيد.

كانت أيّام العيد أيّام راحة واطمئنان من التحقيق والتعذيب وفتح الأبواب وإغلاقها. صحيح أنّه جيء بموقوفين جدد، إلا أنّ كلّ الجهاز التحقيقي والإداري كانوا يتمتّعون بعطلة العيد التي أجّلت حرباً لكنّها أكّدت وقوعَها.. زاد عدد الموقوفين على الست مئة، فتبادر إلى ذهني سؤال توجهت به الى محمد:

- من هو السجين الأقدم الآن هنا في (الحاكمية) ؟

- العقيــد الركن الطيــار المتقاعد. سأتحدث لك عنــه.. ذكّرني رجاءً، قصته تستحق السماع..

فهمــت من تأكيده أنه يريــد التحدث بهذه القصــة بهمسنا الليلي المتأخر حين ينام الجميع، فانتظرت آخر الليل.

(٣١)

– هــل تتذكر قصة الطيار العراقي الذي قيل أنه استشهد في حرب تشرين١٩٧٣ بعدما نفذ طلعة جوية ناجحة في تلك الحرب، كنا في الإعدادية حينها؟

سألنــي محمد فــي آخر الليل، همســاً، فيما الجميع نيــام باستثناء الحاج حسين الذي بقي يصلي الليل كلّه ويقرأ القرآن. قلت لمحمد:

– ثــم عاد بعد فترة وتبيّــن أنه نجا بعدما سقطت طائرته في سيناء؟ أتذكــر حادثاً مثل هذا لكــن لا أذكر ما إذا كان ذلك حدث في حرب حزيران ١٩٦٧ أو حرب تشرين ١٩٧٣..

– نعــم، نعــم.. ذاكرتك جيدة. ذلــك الضابط هــو العقيد الركن الطيار المتقاعد، أقدم سجين هنا، كان قد جرى اعتقاله قبلي بأسابيع، بعد العفو مباشرة.

طيلة فترة اعتقالي لم أشاهد ذلك الرجل الذي تمنيت لو أني أراه، محمــد هو الآخر لــم يكن قد رآه طيلــة الأيام الماضيــة. كان الطيار الشيــخ فــي زنزانة أخــرى، شاركه فيهــا سجين آخر لبضعــة أيام، ثم نقــل هذا السجين إلى زنزانتنــا هذه قبل أن يجري نقله إلى سجن (أبو غريــب) بعدما حكم عليه بالحبس المؤبد لقضية سياسية لم يروها لي محمــد، هذا السجين كان في فترة وجــوده في هذه الزنزانة قد روى لمحمد قصة العقيد الركن الطيار وها أنا أرويها هنا.

يقول ذلك السجين لمحمد أنه لم يصادف في حياته من هو أشجع

مــن هذا العقيد الشيخ الذي بقي في السجــن مرحاً مشرقاً يسبغ على جميع من يلتقيهم مــن السجناء، وحتى سجانيه، محبةً ولطفاً وأحياناً ردوداً لاذعة يمرّرها بخفةِ دم لا تُجارى. تلقّى يوماً شتيمة من حارس سخيــف: «ابن الكلب».. فرد عليــه بهدوء أعصاب: «نعم، أبويه». انصــرف الحارســ خجلاً من سخفــه ومما رآه طولَ بــالِ من العقيد الشيــخ، فيما ضحك جميع مَن فــي الزنزانة وقد انتبهوا إلى أن العقيد ردّ الشتيمة على الحارس من حيث لا يدري وهو الممتن.

كان هذا العقيد متبرماً ناقماً من النظام، كان ينتظر فرصةً للتخلص والهرب خصوصاً بعد السنوات الأخيرة التي تداخل فيها الاحتجاج السياسي لدى كثيرين مع الاختناق من انهيار المعيشة والخدمات في البلد الذي أوصلته الحروب والحصار والقبضة الخانقة للسلطة على الجميع إلى أسوأ وضع إنساني في المنطقة والعالم.

قــرر العقيــد الركن الطيار الهــرب. لم يكن يملك مــا يوصله الى عمان، وقد باع كل شيء وأنفقه تحت طائلة الحصار والجوع، فوجد مــن المناسب أن يعمل على الوصول إلــى كردستان، بأقل التكاليف، ومنهــا قد تتوفر له فرصة المغادرة إلى خــارج العراق، وحتى لا بأس في البقاء هناك، في كردستان، بعيداً عن السلطة التي يكره، خصوصاً أنــه، كما يقول، كان يتمتع بعلاقــات حميمة مع ضباط كرد في بداية حياتــه العسكرية عام ١٩٦٠ قبــل أن يُحال هؤلاء على التقاعد برتب صغيــرة ويعودوا من بغداد ليقيموا في مدنهــم في كردستان حيث لم يلتق بأحد منهم منذ السبعينيات.

اتفــق على ذلك مع جماعة، كان شخصــ منهم ينتظر في الكراج العام في الموصل وصوله من بغداد ليجري إيصاله، مشياً على الأقدام،

إلـى دهوك الكردية مقابل أجرٍ، توفّر العقيد الطيار المتقاعد على دفع نصفه لهم على أن يدفع النصف الآخر قبل وصوله مشارف دهوك.

وصــل إلى كراج الموصل فجـراً، حسب الموعـد المتفق عليه. لــم يكن يعرف الدليل الكردي الــذي سيوصله، لكن (كلمة سر) هي (الموصــل أمــان) ستكون مفتاح تعــارف وثقة لينطلق مــع دليله إلى حيــث يريد وحسب ما يراه الدليل مناسباً. لم يبق العقيد الطيار طويلاً ينتظـر ذلك الشخص الدليل؛ ففيما كان يحتسي الشاي من بائع عربة فــي الكراج، وكانت حقيبته الصغيــرة على الأرض، تقدم منه شابان، وانتظراه حتى دفع ثمن الشاي وقبل أن ينصرف سلّما عليه:

– صباح الخير سيادة العقيد.

– صباح النور، نعم؟

– أين المسير؟ خيراً؟

– ماذا تتوقعان..؟ أين سأمضي؟ أريد الخلاص منكم.

– هــروب؟ سيــراً على الأقدام وأنت الطيار؟ هــذا لا يليق برتبتك ومهنتك وعمرك؟

– لمــاذا لا يليق؟ وهل بقي ما يليق؟ نعــم كنت سأهرب.. تفضّلا نمضي إلى حيث تريدان؟

– إلى الشمال تتوقع؟

– لا، طبعــاً لا.. إلــى الأمــن أو المخابــرات أو الاستخبــارات العسكرية، أليس كذلك؟ تفضلا، تفضّلا!

– ولا تخاف؟

– مــمَّ أخاف..؟ رجــل بعمري مــمَّ يخاف؟ وضعــت خيارين:

المـوت أو الخلاص منكم، لم يحدث الخلاص فمرحباً بالموت، أليس هو أيضاً خلاصاً؟ ماذا بقي من العمر؟ تفضّلا.

يـروي لي محمد عن ذلـك السجين الذي عاش لأيـام مع العقيد الركـن الطيـار المتقاعد في زنزانتـه أن العقيد طيلـة التحقيقات التي أجريت معه بقي مصرّاً على القول لضباط التحقيق والسجانين:

- اتركـوا خياراتـي التي قلتها لكـم. سيكون هذه المـرة الخيار لكـم. إمـا أن تتفضلوا وتطلقـوا سراحي وتتركونـي أهاجر؛ ثقوا لن يكـون لي أي موقف سياسي معارض ضدكم، بالعكس سأكون ممتنّاً لهذا الكـرم، أو أن تتكرّموا عليّ بالحكم بالإعدام، لكني أفضّله رمياً بالرصاص، فأنا ضابط سابـق كما تعرفون، وهذا حـقّ لي، وحينها سأكـون مرتاحـاً فعلاً لأني خلصـت منكم.. الخيار لكـم الآن، فأنا سجين وأنتم السجّانون.

كان محمـد يروي لـي كلّ تلك التفاصيل عـن رجل شجاع يقبع هنا في زنزانة ينتظر مصيراً مجهولاً يُطمر معه ذلك التاريخ والموقف البطولي الذي سجل به شرفاً لبلده وجيشه ومهنته، كنت أصغي صامتاً وكنت استعيد ذكرى رجل آخر.

استعدت، وأنا أصغي لمحمد ولحديثه بإعجاب عن العقيد الركن الطيـار المتقاعد، حكايةً حدثـت لي في مقهـى البرازيلية في شارع الرشيد ببغداد أوائل الثمانينيات، وبالتحديد في السنة الثانية للحرب؛ كنـت كلّ صباح أصل من بيتي لأقضي نهـاراً في القراءة والكتابة في النصف العلوي الأخير من المقهى التي كان قد هجرها المثقفون إلى مقـاه أخرى، لم يكن ثمة عمل، وكانـت الحرب على طول الحدود مـع إيران على أشدها. كانـت (البرازيلية) مكاناً يوميـاً أثيراً لي حتّى

توجّه ذات صباح نحوي، في مقعدي المعتاد، رجل في السبعينيات من عمره، أنيق منتصب القامة وبشعر مصفوف بعناية، وببدلة فرنسية مما كانت تستورده (أورزدي باك)، وقف الرجل قريباً مني، ونظر نحوي قبل أن يلتفت إلى صورة كبيرة لصدام على الجدار الجانبي للمقهى، مشيراً إليها بكفّه التي تحمل برشاقةٍ نظّارته الشمسية، ثم صاح بي:

- أنا الرئيس!

وبحركة بطيئة اقترب مني ضاحكاً فيما ما زالت عيناه على الصورة وهو يواصل الكلام بصوته الجهوري:

- رئيسكم هذا متخلف عن الخدمة العسكرية، أنا الرئيس.

ارتعبت مما أسمع، تظاهرت بالانشغال عنه بالكتابة وبعدم انتباهي له فعاد ليكرر عليّ:

- ها، خفت؟ تخاف من هارب؟ أنا الرئيس...

وفعلاً كان الرجل رئيساً، كما عرفت في ما بعد. كان ضابطاً من أبطال حرب ١٩٤٨ في فلسطين برتبة (رئيس)، التسمية القديمة لرتبة (نقيب) التي جرى تداولها بعدما تمّ تغيير التسمية في الستّينيات العارفية، مرضَ الرئيس وفقد عقلهِ، لكن لم يفقد هيبته العسكرية ووسامته واناقته.

غادرت المقهى فوراً. لم أعد إليها إلا بعد حين، وقد رأيت الرئيس محنيّ الظهر، لا يقوى على كلام يتأتي به.. كان أشعث الشعر وبلحية كثّة وبالبدلة نفسها، وقد اتسخت وتهرأت وبدت أكبر من مقاس جسده الضئيل بكثير. لقد كان (الرئيس)، بما انتهى

إليـه من مرض، وبعده العقيد الطيـار المتقاعد، بما آل إليه من حبس ومصير غامض، من أجيال لم يحظ الجيش العراقي بمثلها في ما بعد، فـي الفترة التي بدأ معها رفع شعار الجيش العقائدي في السبعينيات. لقد بـدأت المؤسسة الحزبية حينذاك بتشكيـل طبقة داخل الجيش تعلـو على التراتب العسكري وتتدخل فـي تفاصيل العسكرية، كان واضحـاً أن الهاجس الأمنـي من الجيش والخشية مـن مغامرات ضباطـه للقفز إلى السلطة هو الدافـع لهذا الغطاء الإيديولوجي الذي سمح بإحـكام السيطرة على الجيش وبخلق نـواة تفككه وانهياره. حـدث ذلك فـي غضون سنـوات قليلة، قبل أن يتوجّـه الجيش إلى أطول حرب مع مطلع الثمانينيات، حرب تفككت معها ألوية وفرق وتشكلت ألوية وفرق وفيالـق جديدة كانت تتطلب أن يؤتى بضباط متطوعيـن على سلك الشرطـة فيُزجون بالجيشـ، ويؤتى بخريجي الجامعات، ويؤهّلـون خلال ستة أشهر عسكريـاً بالخبرات الأولية اللازمة لعملهم ضبّاطاً فـي مختلف الصنوف، وفي الأخير، وتحت ضغـط الحاجة يجري تأهيل عدد كبير من قدامى ضباط الصف ممن لـم يكملوا حتى الإعدادية، ليتحولـوا إلى ضبّاط في صنوف مقاتلة. كنـت أتذكّر ضباطاً كثيرين مرّوا بي فـي جنديّتي في الحرب؛ كانوا هـم أيضاً شجعاناً في الحفاظ على حياة جنودهم، وفي الحفاظ على إنسانيتهـم في الحـرب، سواء في التعامل مع الجنـود أو مع الطرف الآخر من تلك الحـرب المشؤومة، وكان هؤلاء يتوارون ويضيعون ويندحـرون أمام حقـارةٍ استشرت في الجيش فـي ظل الحرب، من خـلال ضبـاط شنّوا حروبهم علـى جنودهم بقسـوة أعظم من هذه الحـرب التي يتعاملون بهـا من وراء المدافـع والدبابات والملاجئ الحصينـة ضد عدوهم، وكانت النياشين تطرز صدورهم التي أثقلت

بالكراهيـة. لقد رأيت أحدهـم، وكان على سجـادة صلاة، يقايض جندياً على إجازته مقابل حذاء:

- هات حذاءً إيطالياً وتمتّع بإجازة سعيدة عند أهلك.

لقـد انتهـت حـرب الثمانينيات، ومعهـا انتهت صـورة الجيش وتقاليـده بصعود طبقـة من قادة جدد جاؤوا بعد قيـادات بدأت بهم الحـرب وانتهت بتقاعدهـم أو إعدامهم أو حبسهم أو مصارعهم في الجبهات. أُتخم القادة الجـدد بالعطايا والمكرمات، لكن شراهتهم امتدّت إلـى استخدام الجنـود المكلّفين والاحتيـاط الذين انقسموا إلى طبقتين: طبقـة قادرة على الدفع النقـدي للضباط، وأخرى تدفع جهدهـا العضلي لبناء فيلل وقصور ومزارع وبحيـرات متباينة القيمة والمستـوى بتباين مستويات الضباط وتراتبهم، فيما كان على قلّة من الضبـاط، نأت بنفسها عن هـذا التوسيخ والتلويـث للسمعة والمهنة والكرامـة الشخصيـة، أن تتحمّل الجوع والعـوز، وتستعين عليهما بأعمـال أخـرى، كسياقـة تاكسيات مثـلاً، وهي المهنـة التي التجأ إليهـا العميد الموقـوف معي على القضية نفسهـا التي جرى اعتقالي بموجبها من بعد مـا تم الاستغناء عن خدماته في الجيش الذي جرى تقليصـه عدداً وعـدةً بموجب أمـر أمريكي بانتهـاء حرب ١٩٩١، وأحيل على التقاعد.

(٣٢)

انتهت أيام العيد، وعدنا إلى التحقيقات وإلى غلظة الحراس والأصوات الخادشة للسمع والروح، أصوات أبواب وجلجلة مفاتيح وصرير أقفال يتعمد الحراس أن تكون هي علامة الحياة في المكان الذي هو وجه آخر لمستشفى رديء في الصمت واليأس والكآبة، لكن مع البقاء على الفارق في أن المستشفى يمكن أن ترتفع فيه الأجساد باتجاه الحياة بينما هي تنحدر، هنا في ظلام زنازينها وأقبية تعذيبها وغرف محققيها نحو تلاشيها واضمحلالها ودمارها.

مرة أخرى ينتبه النقيب حميد إلى التأثير المفزع للسجن على جسدي. كنت أتلمس لحيتي التي استطالت وأتحسس تحتها خسوفين لم أعتدهما في خدّي. قال لي:

- بعد سنة هنا ستكون مجرد شبح، ما هكذا تفعل بنفسك!

- هل يمكن أن أبقى هنا سنة؟

- الآن، طلبتك لأدوّن الصيغة النهائية لإفادتك وأرفعها إلى القاضي بعد توقيعك عليها؟

نظرت في الأوراق البيض التي أمامه. لم يرد في بالي مثل هذه اللحظة، لم أتوقع فعلاً موضوع المباشرة بتدوين الإفادة بشكلها النهائي، كما قال، مع هذا لم أبد متفاجئاً حين قلت له وعيناي على الأوراق:

- أكتبها أنا.. ؟ ممكن هذا رجاءً؟

نهضـ بتثاقل نحو الباب وهو يزمّ شفتيـه، بقي للحظات ينظر في الممر وهو يكلمني أثناءها:

– من الأفضل أن أكتبها أنا، افتهم!

– ولكن يمكنك مراجعتها بعدي..؟

– قلت لك افتهم يا رجل، لا تجادل..

– ....

– أنـت حظك من السماء حين تقـرّر أن أكون أنا ضابط التحقيق معك وليس سواي!

هل أستطيع مواصلة الإصرار على كتابة إفادتي بخط يدي؟ حماقة لا مبرر لها، يمكن للرجل أن يكتب أية إفادة ولن يكون بوسعي سوى الإمضـاء عليها، لا داعي لهذا الجدل الذي قـد يفقدني ما أتوقعه من تعاطف ممكن أن يبديه النقيب معي.

– حسناً، أشكرك جداً، أنا أثق بك، كما تريد.

عاد إلى مقعده وقد اختلطت في ملامح وجهه مشاعر متناقضة من الانزعاج والراحة. قلّـب الأوراق البيض التي أمامه وسحب قلماً من الجيـب الداخلي لجاكيته. بدأ بالأسئلـة الأساسية عن الاسم والمهنة والعمـر والوضع العائلي والعنـوان وجهة العَمل والانتمـاء السياسي وأقرب الأصدقاء، توقّف عند مسقط الرأس حين قلت له:

– ميسان، العمارة.

– البصرة، أليس كذلك؟

– لا، العمارة.

– نعم، نعم.. البصرة.

نظر نحوي شزراً. صمتُّ موافقاً على البصرة التي عشتُ فيها أول أحد عشر عاماً من حياتي بعد ولادتي مباشرة في العمارة وانتقال العائلة لانتقال عمل والدي إلى البصرة قبل أن ننتقل منها بعد ذلك عام ١٩٦٦ إلى بغداد التي ما زلت أقيم فيها. تذكرت أن العمارة كان تصنيفها هو الأتعس بين محافظات العراق، من حيث كراهية السلطة لها، فوافقت النقيب وازداد اطمئناني على هدفه من كتابة الإفادة بنفسه.

كنت أروي له كلّ شيء في ضوء إفاداتي السابقة في التحقيقات المختلفة، وأبرزها الاعتراف بمجيء الشاب الكردي إليّ في الجريدة ونكران تسلّمي أيّة رسالة من سامي العبيدي. كان الرجل يدوّن، وكنت أحاول الاقتراب بالكرسي ما أمكنني لملاحظة ما يكتبه، فمنعني من ذلك، مع هذا نجحت في البقاء على مسافة تسمح لي برؤية المكتوب، مستعيناً بقوّة بصري. كنت ألاحظ النقيب، وهو يهمل بعض ما أقول ولا يدوّنه، وكأنه لم يسمعه، كنت سريعاً في تفسير إهمال أي قول، وكنت ألاحظ فعلاً أن المهمَل قد يتطلب ويثير أسئلة أخرى أكثر إحراجاً وتفريعاً في التحقيق، وهو حال لا يضرّ بي وحدي حسب، وإنّما أيضاً يضع النقيب حميد في إحراج عن كفاءته المهنية أمام القاضي ومن ثم مسؤوليه، إن لم يواجهني بتلك الأسئلة التي كان يتخلص منها بالمحذوفات والإهمال، كما خمّنت ذلك.

لا أدري ما الذي كان يدفع بالنقيب لهذا التعاون الذي نادراً، كما أتوقع، أن يصادفه سجين هنا. توقعت أن الرجل ربما لديه قناعة بعدم أهمية المشكلة التي يحقق فيها وببراءتي، فكّرت ربما أيضاً

هـي طبيعة عملي تيسّـر هذا، ربما كون البلد علـى وشك حرب ولا تريـد معها السلطة أن تخسر المثقفين والصحفيين، هكذا كنت أعلل تعاون النقيب، لكن هـذا التعليل كان يصطدم بالأساليب البشعة التي واجهتها سـواء بالتعذيب أو أمام محققين آخريـن، غير النقيب، مثل المقدم إبراهيم ومدير القسم، وهي أساليب تنمّ ليس عن سلوك مهني مطلـوب من هـؤلاء، وإنما عن كراهية ووسخ فـي الضمائر والعقول والأرواح.

مـرّات قليلـة ومقتضبة جـداً كان النقيب حميد قـد تحدث فيها معـي عـن الشعر، وحـدث أن فلتت منه مـرّةً عبـارة، طرحها بروح إيجابيّـة، وهو يقول: (الشعر كما تكتبـه أنت وآخرون قليلون)، كان يتحـدث وقتها عن حبـه الشعرَ ومتابعـة ما يُكتَـب ويُنشَر، لكن هل هـذا يكفي وحده ليبدي هذا التعـاون؟ كانت عبارته، وهو يحسدني على تخصيصه محققاً لي، وتعريضـه غير المباشر بزملائه المحققين الآخرين، هي أيضاً موضع تفكيري وانتباهي وأنا أبحث عن مبررات إيجابيته معي. استبعدت تماما، اعتمـاداً على تقويمي لشخصيّته، أن يكون قـد تلقى رشوة من أهلـي الذين أشكّ أساسـاً بقدرتهم وقدرة علاقاتهـم المحدودة والهامشيـة على الوصول إليـه. صار تصوّري ينطوي على تقويـم خطير للنقيب في مكانه هذا؛ بدأت أقتنع بصورةٍ وضعـتُ النقيـب فيها، وهي صـورة تسمح بمثل هـذه الإيجابيّة في شخصيتـه، وبدا لي فيها أنـه يتوفّر على شيء مـن الثقافة التي نظفت روحه وعقله وقد امتزج هذا وانطبع بكراهية صامتة لتورّطه في العمل في هـذا الجهاز الذي هـو العصب الأساس في أمـن السلطة وأمانها على نفسها طيلـة عقود حتى صارت الثقة بالمخابرات أكبر من الثقة بالحـزب الذي بات وجوده في السنـوات الأخيرة يتراجع من حيث

الأهمية السلطوية والثقة به والاعتماد عليه مع ترهّله وانصراف القاعدة الأوسع من المنتمين إليه إلى تدبُّر شؤون حياتهم ومتطلبات معيشتهم واتخـاذ مئات الآلاف من الانتماء إليه صيغةً روتينية وظيفية، لا علاقة لهـا بقيم ومبادئ وسياسة وأفـكار. لم تعد تجري العودة إلى الحزب إلّا بوصفـه جهة ملزمة بتحمّل الجانب القبيح من التعامل المباشر مع الناسـ حين يُـراد تجنيدهم أو مراقبتهم. لقـد ورّط صدام حزبه حين جعـل منه عيناً شعبية تُعيـن الأجهزة الأمنيـة البيروقراطية في المراقبة والتبليغ وحتى التنفيذ، وحين جعل منه ذراعاً لسَوق الناس وتطويعهم بالإكراه، لقد حوّل حزبه إلى (وجه قباحة) كما يقول المثل العراقي.

صنَّفتُ النقيـب حميد على أنه متورّط في هذا المكان، أو أن ثمة نزوعاً معارضاً في أعماقه هو ما يجعل منه متعاطفاً معي.

وحيـن فـرغ النقيـب مـن تدويـن إفادتـي، كانت علـى ورقتين فلسكوب، قرأتهما سريعاً، ووقعت عليهما مباشرة، شكرته وسألته:

– ماذا بعد هذا رجاءً؟

– يبقى الأمر يعتمد عليك حين تكون أمام قاضي التحقيق ليصادق على إفادتك ويقرّر شيئاً بصددها؟

– ممكن أن توضّح لي رجاءً؟

– إذا كنـتَ مقنعـاً في تحقيقـه معك لن يطلب إعـادة التحقيق.. إعادة التحقيق مشكلة تقترب من الكارثة!

– واذا كنتُ مقنعاً ماذا سيقرر؟ ما هي الاحتمالات التي يقرّرها إذا كان ذلك ممكناً لك ولا يزعجك؟

– لا، لا.. اسـأل أي شيء. سيقـرر إما اطلاق سراحك أو يحيلك

إلـى محكمة. في كل حـال، وأنا أتوقّع أن يحيلـك إلى محكمة، لن تكـون عقوبتك أكثر من أربعـة أعوام حبس. ذلك طبعـاً إذا لم يقرر إعادة التحقيق معك كما قلت لك.

فـي الزنزانة التـي عدت إليهـا متأخراً فـي الليل رويـت لمحمد جوانـب مما حدث لي أثناء ضبط إفادتي، مـن دون أيّة إشارة لتعاون النقيب حميد الذي وصفته بالمحقق الماكر، فتحدّث لي محمد عما عرفه عن القاضي، الذي هو موظّف مخابرات أصلاً، من خلال مرور موقوفين آخرين بـه صادفهم محمد، واختصر وصف القاضي بـ(له قلب ذئب قاتل ولؤم حشرة مزعجة).

(٣٣)

كان معي في الزنزانة محمد والحاج حسين الإيراني وفتحي المصري وخميس وأبو تحسين بعد نقل علاء إلى زنزانة أخرى ومجيء مسجون بدلاً عنه كان اسمه وائل. عرفنا سبب النقل من وائل نفسه الذي برّر ذلك بأنه كان في زنزانة مع شخص عرف الحراس أنه يمتّ له بصلة قرابة، وهو موقوف بتهمة الانتماء إلى تنظيم صغير معارض، مما استدعى النقل.

كانت دعوى وائل غريبة، كما عرفناها منه، وهي قيامه بنقل رسالة خُبئت في ياقة قميص كان يلبسه إلى شخص معارض كان يقيم في الكويت.

ادّعى وائل، وهو يشرح لنا مشكلته، أنه لم يعرف بأمر الرسالة التي وضعت في قميص، قيل له، من قبل الشخص الذي سهّل مهمة هروبه إلى الكويت عبر الحدود البرية إن شخصاً هناك سيستدل إليك من القميص الذي ينبغي أن ترتديه، وليسهّل أمرك في الكويت عند بلوغك حدودها مباشرةً حيث ينتظرك هناك.

كان وائل أبعد ما يكون عن طبائع الناس الذين التقيت بهم في ((الحاكمية))؛ شكّاك، وفضولي، ونزق في طلباته من محمد بخصوص ما يدخره من أكل هو بالأساس للجميع وليس لمحمد وحده. لم أتكلم معه منذ أول نظرة رأيته بها، لم أرتح لطبيعته وثرثرته وطريقته الفجة والبذيئة في استخدام الحمام والتواليت ووساخته التي تبرّم منها الجميع. كره الحاج حسين، واستفز الجميع ليعرف

موقفهم من خصومة افتعلها مع الحاج الذي كان منصرفاً في معظم وقته إلى القرآن، ربما لعدم معرفته العربية وعدم قدرته على التفاهم تبعاً لذلك، أو هي تربية دينية نشأ عليها. بعد يومين، وفي لحظة انفعال إثر مشادة كلامية مع الايراني، تبيّن أن وائل يعرف شيئاً من الفارسية التي تحدّث بها مع الحاج حسين، وهو ما أثار استغراب الحاج نفسه قبل أن يثير ذلك انتباهنا واستغرابنا لبقائه يومين لم يفصح فيهما عن معرفته الفارسية، ولأنّه حتّى في تخاصمه السابق مع الحاج لم يتحدث معه بتلك اللغة التي نجهلها جميعاً.

بعد هذا التطور، وبعد أكثر من مناورة من وائل، سعى خلالها إلى عدم ذكر مدينته وأية تفاصيل تخص حياته خارج السجن، تلقيت إشارة من محمد بالتوقّف عن التهامس الليلي. نشأت صداقة بين فتحي ووائل لم تدم طويلاً إثر تبرم فتحي من الدلال الفائض الذي يريد وائل التمتّع به سواء في وجبات الأكل، أو في تغيير مكان نومه لأكثر من مرة، أو في محاولة فرض النوم على الجميع حين يكون هو محتاجاً إليه.

بعد استدعاء محمد وفتحي وأبي تحسين وخميس معاً في صباح أحد الأيام، حيث لم يبق في الزنزانة سواي والحاج حسين ووائل، بادر وائل فسألني بشكل مفاجئ وبنبرة لم يقو على اخفاء عدائيتها:

– ما معنى أننا جميعا تحدّثنا عن أسباب سجننا بينما أنت وحدك لم تتكلم لي عن دعواك وتهمتك؟

– لم أطلب منك أن تتحدث لي لتطالبني الآن بهذا. المفروض بك أن تتأدب وتحترم فارق العمر وكل شيء بيننا، وتتحدث في الأقل بلغة مهذبة.

– ليش؟ لم أتوقّع أنك تكرهني إلى هذا الحد، خيراً؟

تفاجأ بـردّي، ولاحظت أن لغته تحولت إلـى نبرة دفاعية. كنت متعمّداً مبادرته بهذا الهجوم الذي بدا، حتى بالنسبة لي، غير مناسب وغيـر مبرّر. كنت مقتنعـاً أن بشراً، مثل وائل، لا ينبغـي فتح أية ثغرة فـي التساهل معه تكـون سبباً في فتح ثغرات أخطر. لا بد من القطيعة معه، ولا بـد من ظهور قوي وذكي في مواجهة سخفه ونواياه. برغم هـذا خشيت من أني قد أكـون بالغت في صدّه وإهانته، حتى عاد هو ليكمل:

– المهـم أستـاذ، أنا عرفت أنـك صحفي معـروف، واستغربت اعتقالـك، وأردت معرفة السبب. أنا احترمك والله. وإذا ما تحب أن تتكلم فبراحتك.

– نعـم، لم أتحـدّث لك لأنـك تلاحـظ أنّي منزعـج، ووضعي النفسـي متعَب من دعوى أنـا متأكّد من براءتي منها، وأرجو أن يقتنع المحققون معي أيضا ببراءتي.

– أنا أستاذ أنكرت معرفتي بالرسالة، قلت لهم فقط أنّي كنت أريد الهجرة والعمل في الكويت.. هل موقفي صحيح؟

– تحدّث بكل ما تعرف، وقل كل حقيقة ومعلومة تعرفها. الناس يعرفون عنك كل شيء كما تقول!

افتعلت حاجةً بـي إلى النوم وادّعيت معاناتي من الصداع. انقطع الحديـث بيننا، وفي أثنـاء افتعالي النوم وبعد ربـع ساعة عاد الجميع بفارق بسيط بين واحد وآخر.

بدأت، وقد غطيت وجهي، بجمع خيوط حكاية وائل وربطها مع

بعضها، وتوصلت إلى نتيجة لا تحتاج إلى كثير من الجهد: أن وائل من المخابرات، وأن مجيئه له صلة بي من جهة، وبالحاج حسين من جهة أخرى، وربما، في احتمال ثالث، بفهم طبيعة العلاقة بيني وبين الحاج والتي انتبه لها مدير عام السجن في أثناء زيارته الزنزانة في العيد.

كان وائل يُستدعى يومياً تقريباً أو بين يوم وآخر في بعض الأحيان، وكان في كل مرة يعود فيها من الاستدعاء يشكو من آلام تعذيب، ويلوذ إلى داخل فراش نومه ليحول دون سؤالنا عن أماكن تعذيبه وآثارها.. ثم يعود، حين ينهض، ليقول إن الجلادين شياطين في اختيار طرق تعذيبه بحيث لا تترك أثراً، لكنه بعد حين، وفي غمرة مزاحه وثرثرته وحركته الدائمة، ينسى دوره التمثيلي وادعاءه الآلام، ويتصرف مثل ثور، بتلقائية سلوكه الأهوج، فنتبادل نظرات ضاحكة أنا ومحمد.

في حياة كالتي عشناها لن يكون صعباً على المرء اكتشاف حقيقة أشخاص يتكررون دائماً مثل وائل، أشخاص يعيشون معك أو يظهرون فجأة في حياتك أو تدفع الأقدار النحسة وسوء الطالع إلى اللقاء بهم في مصادفات تعيسة، في ساعة استراحة في مقهى أو بار، أو لقاء في حافلة أو قطار سفر، وحتى في لحظة حب خادعة. كان ينبغي التحسّب من كل شيء، فالخوف المستمر خلق التحفظ المستمر لدى الناس، ذلك التحفظ الذي تسرّب إلى داخل الأسرة وإلى مخدع الزوجية وإلى علاقة الأب بالأبناء.. ولا أدري، ما إذا كانت إشاعات السلطة ومعها الخيال قد بالغا في تضخيم صورة الخوف ولزوم التحفّظ، حين جرى تداول حكاية بدت أشبه بالطرفة السوداء عن عراقي اعتقل وأُعدم لأنه تجرأ في أثناء نومه وتورط بحلم فكّر فيه بالمشاركة في انقلاب مسلح

علـى السلطة، حوسب وحوكم على وفـق مفهوم في علم النفس يرى أن الأحـلام هـي انعكاس لما كنـا نفكر فيه في حياتنـا الواقعية. لكن مـا هو واقعي، وليس حلمـاً أو إشاعة، وما شاهده العراقيون فعلاً على شاشة التلفزيون، أن صدام استقبل رجلاً، وكرّمه لإقدامه على قتل ولده حين برّر الرجل جريمته بكون ولده هارباً من جبهة القتال في الحرب مـع إيران ولا يستحق الحياة بعد العـار الذي جلبه للعائلة المحترمة.. وعلى هـذا كان ينبغي التحفظ من الجميع، وحتى من أحلام مستهترة من مثل ذلك الحلم الذي ذهب بصاحبه إلى حبل المشنقة.

تحوّل الكلام الدائم في الزنزانة إلى صمت دائم، أو إلى مجاملات محـدودة ومتحفظـة، وربما إلى سفاهـة مفتعلة كانـت تُكسر أحيانا باحتجاجات طفيفـة وتذمّر من تصرف حارس أو من طول مدة البقاء وجهـل المصير. كانت تلك الاحتجاجات ستـاراً يجري معه التمويه على وائل بأن دوره غير مكتَشف، فقد كنا نحن أيضاً نحتاج إلى وائل، ولكـن ليتأكّد مـن أن دوره غير مكتشف، ليوصـل الصورة التي نريد إيصالهـا عنا لرؤسائه. ووسط هذا، ولرغبة أخـرى معاكسة في إهانته والثـأر من الخوف الذي أشاعه في الزنزانة، فقد كان يتلقّى أشد أنواع التقريع والإهانة والتوبيخ لغفلته وحماقته وهو يتّفق مع شخص يجهله ويجهل اسمه وعنوانه، كما يدّعي، من أجل تهريبه إلى الكويت.

لم أقطـع خدمتي للحاج حسين في إفهامـه ومعاونته على التفاهم مـع الآخرين، لكن هذه المرة بدأت أشرك وائل في كل شأن يستعصي التفاهـم اللغوي فيه بيننـا، حتى قرف وائل من الـدور، وامتنع مرّات كثيـرة عن المسـاعدة، مساعدة هذا الأعجمي الذي يأكل في الماعون ويبصـق فيه، كما وصفـه وائل مرة في لحظة انفعـال ندّت عن حجم

كراهيته لشيخ سجين لا حول ولا قوّة ولا لغة له هنا في ((الحاكمية)).

كان كل شيء في تصرفات وائل بالنسبة لي مفهوماً، واعتدت على طرق الالتفاف عليه ومخادعته، لكن ما بقي يزعجني فيه هذا الشخير الذي يبدأ من أول لحظة يضع فيها رأسه على الفراش وحتى يستيقظ.

وعلـى صوت شخيـر وائـل، استيقظت مـن شبه إغفـاءة. كانت المفاجـأة أن أجد محمد قد أخرج رأسه من الغطـاء وهو يتناول شيئاً مـا بملعقة، حاولت أن أعود إلى نومي من دون أن ألفت انتباهه، لكنه شاهدني فبكى:

- هـذا عسـل.. نعم عسـل، وهو المـادة الوحيدة التـي أخفيتها عنكـم، كميته لا تكفي وقـد تعوّدت منذ الصغـر أن أتناول ملعقة منه يومياً، لذلك أخفيته، عادة سيئة كما ترى.. أرجوك تعذرني، خذ هذه الملعقة رجاءً، تناولها.

شكرته واعتذرت عن قبول الهدية العسل، قلت له:

- لا تورطني بعادة مثل عادتك هذه وليس بمستطاعي تأمينها.

ابتسم وردَّ وما زال خجلاً:

- هي ملعقة يا رجل لن تلحق معها لتتعود!

- شكـراً جزيلاً، هنيئاً، هـذا أكثر من حق لك. أشركتنا في حقوق كثيرة، وكنتَ متفضلاً بمـا لا أنساه ما حييت.. العسل لك، وما رأيته هو سر بيننا. كل، عافيتين عزيزي.

ولـم أنم، فقد كنت تائهـاً بين كرم ونبل محمـد السامرائي، وبين شخير وائل الذي لا يعادلـه سوى وساخة روحه في هذا الوحل الذي يعوم فيه.

(٣٤)

حين نادى الحارس اللطيف على وائل برقمه ٩ انتبهت فجأة لمفارقة كشفت كل شيء يخص وائل.

نظر الحارس نحوه بما يوحي بالاشمئزاز، وطلب منه جلب فراشه لينتقل إلى زنزانة أخرى. لقد غادر وائل من دون حتى أن يودّعنا أو ينظر في وجه أي منا. وحين وُضعت الأقفال في الباب، نهضنا، أنا وخميس ومحمد باستثناء الحاج حسين الذي ظل ممداً على فراشه وفتحي حيث كان في جلسة تحقيقيّة، وقوفاً سعداء، وكأن كابوساً أزيح عن الزنزانة، صاح محمد:

– الحرية!

قلت له ووجهت الكلام إلى الجميع:

– الغريب أننا لم ننتبه إلى مفارقة كانت تفضح كل شيء!

نظروا نحوي منتظرين الجواب، فواصلت كلامي:

– ماذا يعني لكم أن يكون رقم وائل هو ٩ ؟

صفن الجميع للحظات. سألني خميس باندهاش:

– معقولة؟ كيف انتبهت؟ صحيح لماذا لم نفكر بالرقم من قبل؟

بقي محمد يفكّر ماذا يعني مثل هذا الرقم، وما المفارقة فيه، ليعود ويوضح بالقول:

– فعلاً.. أن يكون وائل برقم ٩ يعني أنه اعتقل قبل أكثر من شهر،

فيمـا هو يقول إنه جيء به قبل يومين من مجيئه إلى هذه الزنزانة. هذا خطـأ لم يجر التنبه له من قبل وائل ومن قبل إدارة السجن التي زجّت به في هذه المهمة المكشوفة.

غـادر وائل ولـم نعرف بالضبط ما إذا كان نقـل إلى زنزانة أخرى ليؤدي مهمة أخرى مـع سجناء آخرين، أو أن واجبه هنا انتهى، وعاد إلى عمله الطبيعـي في السجن خارج الزنازين وخارج دوره التمثيلي البائس، دور المعتقل. بعد أقل من ساعتين على مغادرته، فتح الحارس الشـاب باب الزنزانة، وأشار إليَّ بالنهوض والخروج، نهضت وسأله محمد:

- خيراً، أين؟

- قاضي التحقيق.

ربّت محمد على كتفي من دون أن ينظر في عينيّ:

- الله معك.. أخوي.

كنـت صامتاً قلقاً. فكّرت أن أعيـد معي الورقة التي لم تزل بيضاء والقلـم الجاف، لكني تداركت ذلك وما يمكن أن يفتحه من حديث لا أريـد التذكير به، فتركتهما حيث هما، لـم أنتبه إلى ما قاله خميس والحـاج، وقد وقفا مع محمد، واندفعوا جميعاً معي حتّى الباب قبل أن يطلب منهم الحارس العودة إلى أماكنهم، لم يعودوا، ولم أقوَ على الالتفات إليهم، أحسست أن الباب أطبق على وجوههم.

عُصبت عيناي وقُيدت يداي، وهبطنا السلم الضيق.

على السلّم، سألت الحارس الذي كان يتحسّر صامتاً:

- كم تتوقع سأبقى مع القاضي؟

تنبهت إلى سخف سؤالي، كان مجرد محاولة لقول أي شيء ولسماع أي شيء في طريق بدا لي طويلاً ومخيفاً وأنا اتجه لقاضٍ كانت صورته الأولى أمامي بشعة كما رسمها لي محمد. تعامل الحارس بجدية مع سؤالي فردّ عليّ:

– والله لا أدري، هذا يعتمد على طبيعة قضيتك وإفادتك ووضعك أمامه.

عند باب القاضي، طلب مني الجلوس على الأرض بانتظار أن ينادى عليّ. سمعت صوت النقيب حميد سلّم عليّ بصوت خفيض، وسألني:

– كيف صحتك ؟ قيل لي أنك مريض!

– الحمد لله، شكراً لك.

– انتظر حتى يُنادى عليك.

لا أحد يعرف بكوني مريضاً سوى وائل الذي ادعيت أمامه المرض أكثر من مرة تفادياً للكلام معه. هل هذه هفوة عفوية أم هي إشارة تعاون أخرى من النقيب حميد للتحذير من وائل برغم مغادرته الزنزانة؟

غادر النقيب حميد ولم يبق معي الحارس الذي عاد بعد قليل بموقوف آخر، عرفت من الصوت أنها السيدة ولم تكن معصوبة العينين، كما فهمت ذلك من حرية حركتها وعدم تلقّيها ايعازات بالسير من الحارس الشاب. جلست على مسافة قريبة. بعد قليل قالت لي بصوت خفيض ولكنْ واضح:

– السلام عليكم أخي.

- وعليكم السلام.. أرجوك، حاذري الكلام، قد يُسمِعونكِ كلاماً سيئاً.

- اطمئن.. أنا مفتوحة العينين، لا أحد في الممر.

- حسناً، ابقي انظري إلى الحائط، وراقبي الممر، وتكلّمي بصوت خفيض.

- اسمع رجاءً! إذا أفرج عنك إن شاء الله اليوم أو في أي وقت، احفظ هذا الرقم، الله يخلليك، واتّصل به، وابلغ عائلتي ما تعرفه عن وضعي هنا.

- تأمرين.. ولكن لماذا؟ احتمال يُفرَج عنك قبلي.

- مشكلتي معقدة.. لا أعتقد، لا مجال للحديث عنها. أنت تعتقد قضيتك تنحل ويُفرج عنك؟

- المفروض ذلك. كل شيء متوقّف على القاضي الآن.. ولا أدري.

- أدعو لك دائماً والله.. واضح أنت خوش آدمي.. الله يحفظك لعائلتك.

- أشكرك.. الله يسهّل أمر الجميع. اطمئني لن يطول بقاؤك هنا. ارجوك أن تطمئني.

- كيف لن يطول يا عيني..؟ تقصد الحربَ؟

أجبتها ضاحكاً:

- رحمة الله واسعة

- ونِعمَ بالله.. أنا فعلاً بدأت اطمئن منذ أيام، لكن العائلة والأطفال!

- ليكن الله في عونهم.. هم أيضاً ينتظرون الفرج.

كـرّرت الرقم عليّ مرتيـن؛ أعدته عليها، حفظتـه، وهو أول رقم هاتف مع هاتف بيتي أحفظه على ظهر قلب..

(٣٥)

دائماً في ذهني صورة أخرى للقاضي هي غير صورة القاضي الذي كنت أمامه..

حتى لحظة مثولي أمام قاضي المخابرات، لم أكن قد صادفت قاضياً في أثناء عمله سوى قاضي الأحوال المدنية في محكمة الرصافة بشارع النهر الذي عقد قراني بزوجتي عام ١٩٨٢.. كنت يومها متخلّفاً عن الجنديّة، كما ذكرت ذلك، فأبرزت له هويّة جامعية مزورة لم يدقق فيها كثيراً برغم أنها كانت تالفة تقريباً. كان الرجل مهذّباً وكيّساً، أكمل الإجراءات القانونية وبارك لنا وانصرفنا بصورة عزّزت لدي صورة القاضي كما رأيته من خلال ذلك الرجل وبقيت أراه في السينما والتلفزيون.

لم يحفظ قاضي ((الحاكمية)) الذي كنت أمامه من تلك الصورة سوى التسمية التي أُفرغت من محتواها تماماً مع أوّل كلمة بذيئة سمعتها منه، وكنت في مكاني في الممر، وقد وجهها للسيّدة التي نودي عليها قبلي. لم يستمر بقاء السيدة معه أكثر من نصف ساعة، خرجتْ بعدها وهي لا تقوى على كتم غضبها وانفعالها وانكسارها مما دار هناك، في غرفة القاضي، ولم أسمع منه الكثير.

لم يختلف الأمر كثيراً معي، فالرجل لم يكتفِ بقراءة إفادتي والمصادقة أو عدم المصادقة عليها وإنما رمى الأوراق جانباً، وخمنت حينها أنه كان قد قرأها قبل هذا بالتأكيد، وابتدأ معي تحقيقاً استمر بحدود أكثر من ساعتين.. بدأه بكلمات نابية وأنهاه بطرد عزّزه بشتيمة.

كان يتكلـم معـي بلهجته المحلية التـي أراد معهـا تأكيد سلطته، كمـا فهمـت ذلك، وحيـن كان يقرأ نصّـاً قانونيا كانت لغتـه تتعثّر، ليـس بسوء تلفظ وصرف الكلمات، وإنما أيضاً بجهل مطلق بمبادئ النحـو، وهذا ما جعلني أفكّر مع نفسي بـأن الرجل، وكذلك مَن هو مثلـه، لا يصلح لممارسة القضاء ما دام عاجـزاً عن فهم وإدراك اللغة التي كُتبت بهـا النصوص القانونية والتي يجـري بواسطتها محاكمة المتّهمين وسماع أقوالهم والنطق بالحكم عليهم.. لكن ما الذي بقي من أصـول القضاء في هذه المهزلة التي يُمنَع فيها أبسط حق للمتهم، وهـو توفّر محامـي الدفاع وحق الاطـلاع علـى الأوراق التحقيقية إضافة إلى التوقيف وتمديد التوقيف والاعتقال من دون إذن قضائي، وفـوق كل هذا هو سخريـةُ أن يكون القاضي موظّفـاً معيّناً من جهة الاتّهـام والتحقيق الأولي، وهذه مشكلات تجعـل المُطالبة بالصيانة اللغويـة سخفاً لا يقلّ في قيمته عن سخـف الوضع الذي كنت وكان القاضي فيه.

وضع نظارته على أسفل أنفه لينظر إليّ من فوقها قائلا:

– ما اسم الحمار الذي أمامي؟

– ....

– لم تجب! ها.. نسيتُ أن الحمير لا تفهم العربي، كيف أحكي معك، لازم أنهق مثلك يا حمار حتى تفهم؟

جاهدت من أجل كتمان ضحكتـي، ظرافة سخيفة وفجة، لكنها ظرافـة المكان وأهلـه. أجبته باقتضـاب وبصوت خفيض باسمي، وبقيـت أنتظـر سؤاله التالـي الذي انشغـلَ عنه بالبحـث بالريموت كونترول في القنوات الفضائية، ليتحدث مع نفسه أولاً ثم معي:

– لا أخبـار.. هذه القنوات كل أخبارها بالليل. هل تعرف يا غبي أن البلد مهدّد بحرب أم أنت نائم هنا مرتاح؟

– ....

– أشو حضرتك ما تجاوب، بس لا تقول أطرش ما تسمع!

– لم أسمع أخباراً منذ أن جئت إلى هنا.

– هـذا أفضل.. تريـد التآمر على العراق الـذي ربّاكم وأكلتم من خيراته في الوقت الذي تأتي البوارج من كل مكان للخليج.. كيف لم تبلّغ عن هذا المجرم الذي أتاك؟ كيف لم تبلّغ عن الرسالة التي حملها لك من صديقك المجرم الهارب؟

– لم أكن أعرف شيئاً منافياً للقوانين عنه و..

– وو.. كيـف لم تعرف وهو قادم لك من مجرم هارب، ويحمل رسالة خطيرة، وتنكرها..؟

– لم أعرف أن سامي العبيدي مجرم هارب؟

– ها؟ من المجرم إذاً؟ أنا يا حقير؟

– لم أقصد ذلك، أقصد أن...

– تعتقد أني غبي ولا أفهم قصدك حتى توضح لي..؟

– لا، عفواً.. لم أقصد ذلك.

– حمممممممار.. لا تكرر لم أقصد.

– ....

في الحقيقة، كنت مـا أزال أجاهد للسيطرة على ضحك، ما زال مسَيطَـراً عليه في ذلك الموضع السيئ والدقائـق الثقيلة التي تمرّ، لم

أدرِ لمــاذا دائمــاً يحشر نفسه في أي قصد أو تفاهــم بيننا. واضح أنه يعتقــد بمركزية وجوده هنا، مركزية تبدو معها مشكلة المتهم وكأنّها مشكلة شخصية معه. كنت أسمع وأقرأ عن الجدل البيزنطي، لكن ها أنا في نقاش أو تحقيق أو استجواب لا يذكّرني بغير الجدل البيزنطي، يسأل الرجل والمفروض أنه يريــد إجابات، وما أن أجيب حتّى تثور ثائرته، محوِّراً أيَّ جواب بما يساعده على تأجيج ثورته وهياجه.

ارتحــت قليــلاً حيــن تلقّــى اتصــالاً هاتفيــاً، توقعت مــن خلال تغيّــر مزاجه وطبيعــة حديثه ونبرة صوتــه أنه من عائلتــه، احترت ما الــذي ينبغــي أن أفعلــه، فيما هو مستمــر بالحديث عبــر الهاتف عن خصوصيات أسرية.. تظاهرت بانشغالي عن مهاتفته، وزاد اطمئناني حيــن كان ينظر إليّ من فوق نظارته، وهو يواصل الحديث مع مهاتفه بحميميــة من دون أن يحرجه وجــودي أو يضايقه. بقي ينظر نحوي كلّمــا مرّ بنوبــة ضحك، بصوت عالٍ بين حين وآخــر، كما ينظر إلى القنــاة الفضائية، ثــم ينظر إلى تحت كرسيه باحثــاً عن لا شيء هناك. استمر في الاتصال الهاتفي بحدود نصف ساعة حتى قال لمن كان أو كانت على الطرف الآخر من الهاتف:

– حسناً، لأكمل مع الحيوان الذي أمامي، وأعود أكلمكم.

– ......

– انتظروا.. سأتصل بكم.

– ......

– في أمان الله.

استغربــت، وأنا في محيط هذا الذي يجري أمامي هنا، ما يحدث

لـي ولآخرين، هم بالآلاف فـي بحر فترة زمنية محـددة وليس على مـدار سنوات حكم هذه السلطة، أذا أخذنا بالحسبان أن هذا يحصل فـي سجـن واحد مـن عشـرات السجون ومراكـز التوقيـف التابعة للمخابرات ولمديريـة الأمن العامة ودائـرة الاستخبارات العسكرية والأمن الخاص وسواها من سجون وجهات أكثر ضبابية وتوارياً عن انتبـاه الناس وأنظارهم والمنتشرة في بغـداد والمحافظات والأقضية والنواحي. دُهشت كيف يُدار أمن البلد ببشر مثل هذا الرجل المسجَّل فـي أضابير الدولة على سلك القضاء العراقي، لم أجد غرابة في ذلك، لقد بدأ الانهيار القضائي قبل واقعة هذا القاضي الطريف بعقود وذلك مع تشكيل محكمة الثـورة. تحول أمن البلد إلى أمن سلطة، وتحول أمـن السلطة إلى أمن فرد واحد، وها نحـن نرى هذا الفرد الدكتاتور كيف يفرّط بأمنه وبأمن عائلتـه وسلطته وبالتالي بأمن بلدٍ بقي يتقلب لعقـود من حرب إلى حرب إلى حصـار إلى قمع داخلي تهرأ معه أي حبـل للصلة بين الشعـب والسلطة التي ستذهب إلـى الحرب عارية مجـردة من روح الشعب التي تتمزق بيـن العيش في رمضاء الطغيان وبين القبول بنار الحرب، وما يمكن أن تجرّ إليه من ويلات وكوارث واحتـلال وخراب ودمار كثيراً ما كان الدكتاتور قد وعد الشعب قبل الآخرين به وبأنهم لن يقبضوا سوى التراب بعده وبعد زوال سلطته.

بأيـة معنويـات ستمضي النـاس إلى الحربَ وهي تحفـر آباراً في بيوتها بحثاً عن ماء قد تحتاج إليه مع أولى قذائف الحرب!

كانت رعونـة السلطة تريد تصوير هذا البحث عـن الماء على أنه جزء من تأكيد استعداد العراقيين لمواجهةٍ سينتصرون فيها، وكان هذا التصوير يتجاهل الانكسار الذي يضطر الناس على التفكير بمصائرها

الفرديــة وحلولها الخاصة بعيداً عن إمكانــات دولة صارت كلها في قبضــة سلطــة بخيلة ينعشهــا ويبهجهــا ثراؤها وسط قحــط الملايين وفقرهـم وأمراضهم وتحطّم آمالهم.

انتبهت إلى صوت القاضي يسألني:

– ماهي درجتك الحزبية؟

– أنا مستقل.

– تقصد كنت (نصيراً) أو (مؤيداً) وانقطعت عن العمل الحزبي؟

– لا، أنا مستقل.

خلع نظارته، ووضعها على الطاولة، وأغلق قلمه الحبر ووضعه في جيب جاكيته، وسألني، وهو بين أن يبتسم وأن يستغرب مما يسمع:

– يــا ابني الله يخليــك، افهم سؤالي جيــداً.. صحيح أنك حمار، لكن حاول.. حاول أن تفهم معنى سؤالي، متى انقطعت عن الحزب؟

– حضرة القاضي لم أكن حزبياً.. أنا مستقل.

– أنت تتكلم جاداً؟

– ....

– تعــرف؟ كنت دائمــاً أقــول إن الإعلام عندنــا (طايح حظه).. والآن ليــس تأكدت فقط وإنما عرفت السبــب: لماذا إعلامنا منحط ومتخلف؟

كنــت استغــرب من أنه تفاجــأ بكوني مستقلاً، فمثــل هذا مدوَّن فــي محضر التحقيق الذي أمامه، ولا جديــد في الأمر، في تصوري، ســوى أنه قد يرغــب في تأكيد ولائه وإخلاصــه بطريقة فجة لا تفكّر

في خطـب ودّ الناس المستقلين وإنما تدفع بهم إلى المزيد من الكره والنقمة والغضب الذي يعتمل في النفوس.

مـن الواضح لي أن ولاء مثل هـذا القاضي هو ولاء خوف وتابعيّة انتهازيـة ذليلة، وبهذا فـأن الطريقة المثلى لديـه، لضمان ولاء معتقل بائس مثلي، هي في تخويفه والإتيان به صاغراً إلى بيت الطاعة.

لا يفكـر مثلُ هـذا القاضي، مثلمـا لا يفكر سيـدُه الدكتاتور، أن هـذا النمط من العلاقات والشراكة بين النـاس والسلطة هو الانفجار الأعظـم الذي يهزّ كيان الدولة حيـن تتوفر له الفرصة الملائمة وليس ما يمكـن أن تفعله القـوات الأمريكية الزاحفة باتجـاه العراق، تلك القوات التي تتقدّم وكلّها ثقة واطمئنان من أنّها لن تجد جيشاً يقاتل، ولا شعباً يعترض على الإطاحة بطاغيته.

واصل القاضي استعراضه. جعل مني ممرّاً سهلاً لذلك الاستعراض الأجـوف. لم يكن من مصلحتـي محاورته ومجـاراة تفاهته.. كان يعـرف بذلك حتمـاً، وكان يستمرئ نصره الكلامـي السخيف على صحفـي عاجز عن الرد عليه. كنت أجد في الصمت حلّا مثالياً أدفعه بـه إلـى مزيد من التهـوّر الذي يشبـع سخفه ويطمئن شهـوة التفوق الفـارغ لديـه وأجد في هذا مـا يسهّل عليّ تفادي لحظـة انفعال منه يتغير معها كل شـيء. لقد مضى زمن كان يمكن لمثقف أن يفخر فيه فـي اسكات قاضٍ سلطوي واحراجـه، كان ذلك ممكناً مع نمط من القضـاة يتوفّرونَ على حدٍّ، ولـو كان أدنى، من احترام مهنتهم وحتى احتـرام المتّهم واحترام المنطـق والمجاراة في الحديـث. لقد أعاد هـذا القاضي (الفكه) إلى بالي صورة فؤاد التكرلي، الكاتب الروائي المعروف، حين كان قاضياً في الستينيات، وكان من المتهمين الذين

مثلوا أمامه، كمتّهمين سياسيين، أدباء ومثقفون عراقيون. كانت صورة فؤاد التكرلي، بخلقه الرفيع وثقافته وبوسامته واناقته التي بقي يحتفظ بهـا حتى أواخر أيامه، أبعد ما تكـون عن صورة هذا القاضي المسخ الـذي وقفت أمامه والذي لا يجمعه بالتكرلي أي جامع سوى المهنة التـي كانت قد أخذت سنوات من حياة وجهد الكاتب الروائي، لكن هـذه المهنة المشتركـة بين الاثنين عـادت الآن لتفجّر مفارقة أخرى عـن التحقيقات والمحاكمات ومدى التبايـن في طبيعتها التي كانت عليها فـي تلك السنـوات الستينية وما سبقها من عقـود وبين الحال الكاريكاتيـري الذي كنت فـي مواجهته، وهو حـال جرى الاعتياد عليـه منذ السبعينيّات التـي انتهت بأبشع محاكمـة سياسية لأكثر من ثلـث قيادة حزب البعث نفسه، في قاعـة اجتماع حزبي قاده صدام، وليـس قاعة محكمة ولا حتى قاض من صنف قاضي ((الحاكمية)). إنهـا (المحاكمة) التي لم تنه حياة أولئـك الضحايا وإنما أنهت حياة الحزب نفسه.

سيظـل يفخر هذا القاضي بمثل هـذا النصر على صحفي ومثقف لـم يتفوّه ولم يقوَ على مجاراة فهلوته، نعم أن مَن مثله يفخر بالفهلوة وليـس بامتلاكـه منطـق الحجـة وبلاغة النقاش والحديـث اللذين يجهلهما، كما سيوهم نفسه ويدّعي أمام الآخرين. كنت أعلّل نفسـي بمـا أقدّره في داخلي من أنه لم يبـق لديه من الوقت ما يكفي للتفاخر والزهـو الذي عاش عليه طويلاً في هـذا المكان الذي دفع من خلاله ناساً إلى الموت وناساً إلى غياهب السجون وآخرين إلى الهروب من بلد استحال إلى جحيم.

ربمـا وفّرتُ له، بصمتـي واقتضاب أجوبتي، مـا يُشبع في داخله

نشـوةَ الانتصار. نظر إلـيّ صامتاً للحظات قبـل أن يعيد نظارته على أنفـه، ثم بحث عن الأوراق التحقيقية، وحين وجدها، أمرني بالتقدم نحوه، وسألني:

- تعال لَكْ! هل هذا توقيعك؟

- نعم هو توقيعي..

- امشِ حمار.. وخلصني، الله لا يخلصك من نار جهنم.

حيـن تركت غرفته كان على الباب النقيب حميد الذي طلب مني انتظاره. دخل على القاضي، ثم عاد نحوي بعد أقل من دقيقتين. بقي ممسـكاً بي قبل أن ينادي على الحرس ليأخذني. قال لي وقد شعرت بلون الفرح في كلامه:

- مبـروك، لـم يطلب إعادة التحقيـقَ.. لا أدري بعد مـا إذا كان سيحيلك إلى محكمة أم يطلق سراحك! لكنه ظريف مو؟

وباستهجان غير مقصود نظرت إليه، وأجبت بعفوية:

- إي، هـو الشـاب الظريـف.. تعرف (الشـاب الظريف)؟ كان شاعراً عربياً قديماً..

لكزني على كتفي وهو يضحك ويقول:

- لا تباوع لي هيج.. خبيث..عود لما تطلع أكتب قصيدة (الشاعر الخبيث والقاضي الظريف)!

(٣٦)

لا أدري لماذا بقيت صورة القاضي وطريقته في الاستجواب ومحاولته استعراض الولاء تشغلني أكثر مما انشغلت بالنتيجة المترتبة على هذه الجلسة الغريبة. ربما كان تطميني من قبل النقيب حميد هو وراء انصرافي عن التفكير بالنتيجة. كان الحُكم بالسجن، وانتقالي تبعاً للحكم إلى سجن (أبو غريب)، حلماً ظل يراودني أكثر من حلمي بالحصول على براءة، في هذا المكان الذي غالباً ما يكون المحطّة الأخيرة التي تسبق القبر وتقود إليه.

كان القاضي يتحدّث كما لو أن الدولة هي من ممتلكاته التي يسيئ استخدامها ويهددها آخرون متطفلون عليها وعليه، وآخرون مثلي أنا الصحفي المستقل الذي تسلل على وفق تصوره هو في غفلة من عين الحزب والقيادة والحكومة فعاث في الصحافة المحترمة فساداً وتخريباً لينتهي الحال إلى أن تكون الصحافة الوطنية هي الصحافة الأسوأ في العالم، بحيث أن صحافة بلد مثل الصومال أفضل بكثير منها، على حد تعبير رجل آخر من رجالات الدولة هو محمد سعيد الصحاف.

ففي مستهل تسلّمه منصب وزير الإعلام، وهو آخر منصب له في الدولة العراقية قبل سقوط صدام حسين، قرّر الصحاف أن يلتقي بهيئات تحرير الصحف لمناقشة أحوالها وخرابها والعمل على وضع حلول لإخراجها من أزماتها، كما أُبلغنا بذلك قبل اللّقاء به. كان

اللقاء الأول في هـذا السياق من حصة جريدة الجمهورية التي كانت تعد الصحيفة الأولى في العراق.

جرى اللقاء في مكتب الوزير مساءً. حضر الجميع يتقدمهم رئيس تحرير الجريدة. بدأ الصحاف اللقاءَ، هجومياً، بلا تحية ولا مقدمات، بـدأ بتقويم لمستـوى الصحافة فـي البلد وبتركيز علـى تدنّي قيمتها المهنية والفنية وعزوف المواطن عنها لرداءتها، ولم يفت الصحاف، وهـو يقرأ بالإنكليزية، أن يشير إلـى التطوّرات الكبيرة في العالم التي يشهدهـا حقل الإعـلام، وخصوصا الصحافـة المطبوعة التي تواجه تحدّيـات انفجـار الميديا وتنـوع الوسائل وتسابقهـا وقدرتها على الاستحـواذ على الجمهـور، كان التقويم في تصـوّري سليماً، وكان يعبّـر عن طموح وزير جديد وذي خبـرة قديمة ومواكبة حديثة نسبيّاً للتغيـرات من أجـل التطوير، لكن المشكلة كانـت تكمن في مفهوم التطوير الذي يراد وظروف العمل الصحفي والسياسي التي بدا الوزير الحالم يقفز عليها وهـو يرغـب بصحافة تستجيب لمتطلبات تغيّرات وتطوّرات الميديا في العالم.

انتهـى الصحاف إلى أن يسأل رؤسـاء الأقسام واحداً، واحداً عن المشـكلات التي تحول دون التطوير الذي يتحـرّاه هو. حين وصل إليّ، سألني بنبرة جافّة:

– أنت رئيس قسم ثقافي، والعراق بلد الثقافة، هل تستطيع اقناعي لماذا الصفحات الثقافية سيئة؟

كان يتكلم كما لو كان يتحدث ببديهيات يجهلها الصحفي الذي أمامـه، وكان السؤال يحصرني في زاوية لا بد أن أكون معها صريحاً وواضحاً، ولا أدري ما إذا كنت صريحاً فعلاً أو متهوّرا حين أجبته:

– لـم يعد فـي (الجمهورية) صفحـات ثقافية، سيـادة الوزير، توجـد لدينا صفحـات مكرسة للشعـر.. وتعـرف، سيادتكم، أن مفهوم الثقافة أوسع من أن نحدّده بالشعر فقط.

– طبعاً الثقافة أوسع، ولكن لماذا الصفحات مكرسة للشعر؟

– مـاذا نفعل إذا جـاءت قصيدة من شاعر قدّمهـا لرئيس التحرير ورأى أن طبيعة موضوعها تستحق منحها الصفحة كلها..؟

– ولماذا؟ من يفرض هذا؟

– سيـادة الوزير.. كما تعرف حضرتك، هـذه سياقات ترسّخت فـي الصحافة، والجريدة جزء من سياق ثقافي وسياسي عام يريد نشر هكذا شعر!

– أي شعر؟

– الشعـر المكتـوب لأهـداف تعبويـة وللثناء علـى دور الرئيس القائـد.. (فكّرت أني ربمـا تجاوزت ما لا ينبغي تجـاوزه، لابد من تجـاوز شططي وأنا اذكر الرئيس في سياق مشكلة وتخلف الصحافة فعمدت إلى تفادي تكريس المشكلات وحدها أمام الوزير، لا بدّ من أن أطرح حـلا للتخلّص من اختناق الحوار)، أنـا اقترح بهذا الصدد أن تكرس صفحة فـي الأسبوع لمثل هذا الشعـر وتكون باقي الأيام لمختلف حقول الثقافة والفنون..

كان هو أكثر واقعيةً مني وأكثـر تفهماً لحسن التخلص المطلوب في مثل هذه الحالات فأنهى الحوار بالنتيجة التالية:

– ولكـن تعرف يـا أستـاذ أن دور الشعر مهمٌ في هـذه المرحلة لشحذ الهمم ورفع المعنويات.. الشعر مطلوب كما تعرف!

كانـت كل عيون الزمـلاء الحاضرين تسأل عن مبـرر هذا الجدل الذي ورّطت نفسي والوزير فيه. لكن كل الزملاء في الأقسام الأخرى قدموا للوزير مشكلات ليست بالبعيدة عن مشكلتي..

انتهـى الاجتماع التطويري ولم نحظ بموافقة مـن الوزير على أية خطـوة تطويرية، وكان من شأن هـذا الاجتماع أن يلغي الاجتماعات التالية المقررة مع الصحف الأخرى.

إرادة التغييـر في الإعلام كانت حاضـرة على مستوى آخر.. لكن أي تغيير؟

حاول عـدي صدام حسين تقديـم نموذج لصحافـة جريئة تنتقد وتقول ما لا يمكن قوله في الصحف التقليدية. كان يعتقد أن المشكلة هـي في الكيان الحكومي والحزبي الذي رآه معيقاً لتغييرات مطلوبة، لذلك فـإن سقف النقد في تلـك الصحافة المستحدثـة ارتفع ليطول وزراء وأعضاء قيـادة في الحزب، ولكن حسب طبيعة علاقتهم بعدي نفسـه. اصطدم نموذج عدي، هو الآخر، بمشكلة الارتباط بمرجعية أقسى من مرجعيـات الحكومة والحزب.. تحوّل هـذا النموذج إلى ساحـة لتصفية خصومـات عدي ضـد وزراء وقيـادات حزبية وضد اقربائـه الذين يعتقد أنهم يتطفّلون على حقّه وحق أسرته الشخصي في الحكم والسلطة والدولـة، وكان على الصحفيين الذين تورطوا بالثقة بقـدرة عدي علـى حمايتهم أن دفعـوا أثماناً، حين وجـدوا أنفسهم منزوعيـن من أي سند يحميهم ويقـدّم الدعم لهم عندما كانت تجري مساءلتهـم أو اعتقالهم بعدمـا يتورّطون بالتعرّضـ بالنقد لقوى نفوذ أخـرى فـي العائلة التي شهـدت في أكثر مـن مرة تطاحنـاً دموياً بين أطرافها المختلفة في التسعينيات.

وقبل نموذج عدي كان الوزير لطيف نصيف جاسم، وبعد عام على انتهاء الحرب مع إيران، قد كتب مقالات عيّر فيها الكتاب والصحفيين والمثقفين بشكل عام على عدم استثمار الحرية التي تريدها الدولة للإعلام الذي تريده حراً وجريئاً. لم يغامر أحد في تصديق هذه الدعوة التي أثبت إعدام الصحفي ضرغام هاشم بعد عامين بطلانها وزيفها.

كان قاضي ((الحاكمية))، هو الآخر، محتجّاً على حال الصحافة، لكن الرجل لا يريد تصوّرات تغييريّة على غرار الصحاف أو عدي أو لطيف، كان يعتقد أن الصحافة منحطّة وغير معبّرة بما يكفي عن إرادة القائد والحزب والثورة لأنها لم تندفع بالكامل بعد إلى مزيد من الانحطاط، إلى هوّة الولاء والتملق والتنطع الذي تكلّم به هو في جلسة يُفتَرَض أنها قضائية، وهذا ما يعزوه الى وجود نفر ضال من أمثال الصحفي المستقل المتسلّل إلى ممتلكاته الشخصية في هذه الدولة والعابث فيها.

ما زلت أتوقع أن محمد سعيد الصحاف يمتلك تصوراً ومفهوماً إيجابيين للصحافة اضطُرَّ إلى الصمت عليهما في اجتماعنا ذاك، ذلك لأن الدولة فيها عشرات ومئات مثل هذا القاضي الذي يكون ملكياً أكثر من الملك نفسه، هؤلاء الذين يريدون الاندفاع نحو مزيد من الانحطاط لأن بداهتهم في التملق تدلّهم على أن هذا الانحطاط هو المطلوب، ولذلك، وفي لحظة معينة، لم يقم الصحاف بإخفاء تصوره ومفهومه لصحافة متقدمة فحسب، وإنما أدى أيضاً في أثناء الحرب الأخيرة مهزلة إعلامية ما زالت مثار تندُّر العالم وسخريته، وقد أنهى تلك المهزلة بترك ميكروفونات الصحفيينُ مع أول رؤيته لدبابات العلوج على جسر الجمهورية.

(٣٧)

حينما دخلت إلى الزنزانة كان الجميع واقفين لصق الباب وكأنما تسمروا هناك منذ لحظة مغادرتي إياهم قبل ساعات.

بقيت عيونهم فقط هي التي تتساءل وتبحث عن جواب في عينيَّ، فقلت لهم:

– ربما يكون خيراً: محكمة وسجن في أكثر الاحتمالات.. وربما إفراج في أندرها.

تساءل محمد وأجاب:

– لم يطلب إعادة التحقيق إذاً؟ عظيم.. إن شا الله خير.

– لا أتوقع يعيد التحقيق، لم يوضح في كلامه معي أيّ شيء ضد التحقيق.. وسألني ما إذا كان هذا توقيعي وهذه أقوالي.

– الحمد لله خوش أخبار.. الله يفرج عنك وعنا.

– جميعاً إن شاء الله، ولكن أين فتحي؟

– في التحقيق..

– الله يعينه.

كان طعام الغداء ما زال متروكاً جانباً، قالوا لم نستطع أن نأكل، كنا في انتظاركما.

استفسرت من محمد عن طبيعة القاضي وما إذا كان يعرف شيئاً عنه غير ما كان قد قاله لي عنه، كان محمد دائماً يتوفّر على معلومات

تغنينا، وكان يحصل عليها من حرّاس ومحقّقين اكتشف، بعد زيارات عائلته وأخوته، أن بعضهم من مدينته وعشيرته، فصار على علاقة طيّبة مـع كثير منهـم، خصوصاً أن دعـواه لا صلة لهـا بالسياسة، وهذا ما يجعل السجّانين وموظّفي ((الحاكمية)) أكثر انبساطاً معه.

طمأنني محمـد أن هذه هي طبيعة القاضي، فهو يميل إلى الادعاء والتنطـع ليرعـب الآخريـن، سـواء مـن المحبوسين أو مـن موظفي السجـن، لا يكترث كثيراً بالحـدود المفترضة لعملـه، فيأخذ أدوار آخريـن، وكما لو كان هو الأول والأخير في السجن، وهذا ما يجعله بخلاف دائم مع المدير العام الذي يتفادى شرّه بتركه على هواه ما دام لم يمس مملكته في السجن.

الـكل يكرهه هنـا.. لكنه موضـع تندر الجميع الذيـن يخادعونه بافتراضـ قبولهم بادعاءاته التي يريد أن يوحـي بها للجميع أنه قريب من صدام من دون أن يجرؤ على التصريح بذلك.

سمعـت ذلك من محمـد، وبعده بقليل استمعنـا إلى صوت بكاء يتداخل بالضحـك. فُتح باب الزنزانـة، كان فتحي يبكي ويضحك، وكان الحارسـ الشـاب يضحك معه، وقد فرغا تـوّاً، كما يبدو، من حديث مشترك..

أُغلق البـاب وانزوى فتحـي جالساً، وهو يغالب بـكاءه، ثم عاد وانفجر ضاحكاً بعدما طلب سيجارة من محمد.. سألته:

- خيراً، أبو الفتوح؟

- كلُّه خير يا سيدي، كلّه تمام.

- أعرف كلُّه خير هنا في ((الحاكمية)).. لكن ماذا حدث؟

تمكـن محمد من اشعال السيجـارة ومناولتها لفتحي الذي شرح لي:

– بعد تحقيق طويل معي، كان لا جديد فيه، جرى نقلي إلى غرفة التعذيب قبل خمس دقائق..

– تعذيب وأقل من خمس دقائق.. يا فتحي؟

– علـى مهلك يا سيدي، اسمع.. ما إن دخلت الغرفة حتى تلقّيت صفعـة قويـة من الجلاد وهـو يقول لي: قـل أنا حمار. قلـت له: أنا حمار.. صفعني مرة ثانية، قل: أنا حصان. قلت: أنا حصان.. صفعة ثالثة، قل: أنا خنزيـر.. قلت، وقد دار رأسي بي: أنا حديقة حيوانات يـا بيه، أنـا كل حيوانـات الأرض يا بيـه.. أنا أكبر حديقـة حيوان يا سيدي! انفجر الجلّاد ضحكاً، وجلس على الأرض وهو يقول لي: "بالجملة يا فتحي؟".. فأجبتـه: "حتّى حيوانات منقرضة.. آ، والله.. ديناصـور.. أنـا ديناصور يـا باشا".. ظلّ يضحك، ومـا كان منّي أنا نفسي إلا أن أضحك معه، فأفرج عني.

(٣٨)

« كلهــم هكذا إذاً.. »، فكرت مع نفسي، حين كنت أضحك لما أسمعه من رواية فتحي المصري وجلّاده العراقيّ ذي المزاج الرائق.. كل الجلّاديــن والسجّانين يتشابهون إذاً في طباعهم وأمزجتهم، إنهم ورقة تصوير بيضاء فارغة قبل أن تشغلها مادة فيلمية جاهزة ومستقرة، وتظهر مــن خلالها صورة نظام الحبس والتعذيب، صورة لا يُراد لها أن تتغيّـر وتتبــدّل، تلك هــي مسؤولية أدوات الحبــس، من جلّادين وسجّانيــن، إزاء رؤسائهــم المباشريــن وإزاء سلطــة الحكم ونظامها السياسي القمعي بشكل عام.

كنت استعيد، مع نفسي أيضاً حين فرغ فتحي من حكايته، ما كنت قد سمعته من الصديق الشاعر عبد السادة البصري، قبل سنوات حين أفــرج عنه ومجموعة من أدباء وكتّاب البصرة الشبّان بعد فترة اعتقال جماعــي طالهم ودامَ لأكثر من عــام، تنقلوا خلاله بين أكثر من سجن بيــن البصرة وبغداد وحتى تكريت التي قضــوا فيها أسابيع سجناء في واحدة من قاعات الجنود المستجدّين في مركز تدريب الدروع الذي كان قــد بدأت منه رحلتي الطويلة في الجندية في حرب الثمانينيات، ولا أدري مــا إذا كان الأصدقاء البصريــون قد حُبسوا في التسعينيات فــي القاعة نفسها التي كنت قد نمت جنديــاً فيها أسابيع قبل أن أنتقل مــن هناك، من تكريت ومركز تدريب الدروع، إلى جبهة الحرب في أواخــر عــام ١٩٨٢، لقد قلت قبل فصول بعدم وجــود فروقات بين الحبســ (في المكان المفتوح) في الجنديــة والحرب من جهة وبين

الحبس (في المكان المغلق) في سجون النظام، وأتوقّف الآن على مفارقة جمعت الحبسَين معاً، وواقعيّاً، وأنا أتذكّر واقعة أدباء البصرة التي أيقظتها في ذاكرتي واقعة فتحي وجلّاده، لأرويها هنا.

كان عبد السادة يضحك كثيراً وهو يعيد عليّ في أكثر من لقاء ما حدث له في سجن الرضوانيّة، وهو ربّما (أحدث سجون النظام السابق زمنياً) ويديره الأمن الخاص، وهو الآخر أحدث أجهزة النظام القمعية، إنه الجهاز المباشر للسلطة المطلقة والمرتبط مباشرةً بها. وسجن الرضوانيّة هو السجن الرئاسي المباشر لتلك السلطة وحتى القريب منها مكانياً، والذي يدار من قبل أفراد الدائرة الضيقة الأقرب للنظام.

وفي آخر مرة سمعت فيها رواية عبد السادة كان الضحك مشتركاً بينه وبين زميله في السجن الدكتور عادل الثامري، الباحث المتخصص في التداولية والأستاذ في قسم اللغة الإنكليزية بكلية الآداب في جامعة البصرة، ومعهما زميلهما الثالث في الحبس الشاعر واثق غازي. كان الثلاثة نموذجاً للتعدد التفكير والموهبة والاهتمام والوعي يعكس التنوع والتباين اللذين يغلبان على جميع أفراد المجموعة المثقفة التي كانت بحدود ستة عشر كاتباً وأديباً والتي حبست في البصرة عام ١٩٩٢ بدعوى سعيها إلى خلق تنظيم حزبي معارض يعمل على إسقاط النظام.

«كنت معلّقاً على مروحة سقفية تدور بي، وكان على الأرض اثنان من أقسى الجلّادين، يتناوبان على ضربي بسلك صلب وسميك (كيبل) كلما مررت بأحدهما في حركتي الدائرية المحكومة بحركة المروحة المربوط بها..»، يقول عبد السادة ذلك بضحك يكاد يقترب

من الهستيريا التي لا تخفي آلام تلك الساعات بين ثنايا ضحكاته، ثم يستغرب فيقول متسائلاً: «إذا كانت المروحة لا تتعب فهي كهربائية فكيف لهذين الحيوانين أن لا يتعبا ولا يكّلا، وهما يواصلان الضرب بقوة، تتصاعد وترتفع وتيرتها كلما طال الوقت بخلاف ما أتوقعه دائما من خور وضعف طبيعي عند البشر الطبيعيين، أرتاح معه عندما تضعف قدرتهما على مواصلة التعذيب بالشراسة ذاتها التي يبدآن بها، لكن وبعكس هذا، ففي الحقيقة كانت قدرتي هي التي تضعف وتعجز حتى عن مواصلة الصراخ والتعبير عن الألم..».

يقول عبد السادة: «لا أدري كيف انتبهت في إحدى مرات التعليق بالمروحة، وكانت تدور بي بين الجلّادين إلى شاب طويل ممّدد على أريكة طويلة في الجانب البعيد من الغرفة التي كنت أُعذّب فيها، كان إلى جنب الأريكة طاولة عريضة تتوسطها قنينة ويسكي محاطة بألذ الفواكه والمقبّلات، كانت كأس الشباب في يده، سارحاً، منشغلاً عنّي وعمّا يدور قريباً منه من ضرب وصراخ وجسد يتحطّم وضحك وزعيق الجلّادين، وفي اللحظة التي أفرغ فيها الكأس في جوفه ووضعه جانباً على الطاولة العريضة حانت منه التفاتة عابرة نحوي، حين كان يملأ كأسه الفارغة فعرفته.. نعم عرفته».

«نسيت السجن والمروحة والتعذيب والجلّادَين وجسدي المتهالك، نسيت كل شيء»، يقول عبد السادة، « وصرخت، صرخت بأعلى صوت:

- سيدي..

لم يرد، لكنه بقي محدقاً فيّ ومواصلاً إملاء كأسه. وبين بكاء وتعبير غير مفهوم عن سعادة لا محلّ لها في تلك اللحظة، قلت:

- سيدي، والله العظيم، أنا معجب جداً بدورك العظيم في فيلمك العظيم (الأيام الطويلة)..

أنه صدام كامل، نعم صدام كامل الذي طفت ابتسامة خفيفة على محيّاه من بعد ما سمع جملتي الأخيرة، أنه حتى ترك كأسه واعتدل في جلسته على الأريكة، كانت سبّابته اليمنى تحكّ جبينه حين أمر الرجلين:

- أنزلاه!

- نعم سيدي.

ردّ كلاهما، وأُنزلت من المروحة، فتهاويت على الأرض، ليسألني بهدوء بدا معه متفاجئاً بما سمع:

- شنو تعرف عن دوري؟ أنت شفت الفيلم؟

- عشر مرات.. والله سيدي عشر مرات شفته.

- إي.. احكِ لي عن دوري..».

كان الفيلم السينمائي يروي جانباً مبكّراً من سيرة صدام حسين الشاب، كما كتبها الأديب الراحل عبد الأمير معلة في رواية حملت الاسم نفسه (الأيام الطويلة). كان فيلماً طويلاً، وبإيقاع بطيء وثقيل، مع هذا بقي يعاد عرضه مرّة أو مرتين وأكثر سنوياً، عبر التلفزيون، قبل أن يهرب بطله صدام كامل صهر صدام حسين مع شقيقه حسين كامل الصهر الآخر لصدام إلى عمان ويعودا منها بطريقة غريبة إلى بغداد التي قتلا فيها بطريقة أغرب مع شقيق ثالث لهما وآخرين من العائلة بعد أقل من أربع وعشرين ساعة على عودتهم وبأيدي قوّة قادها عمهم المعدوم في ما بعد ٢٠٠٣ علي حسن المجيد (ثأراً

لشرف العائلة الذي تلوّث بخيانة حسين كامل واشقائه لصدام)، حيث بات متعذراً عرض الفيلم الذي يجسد صدام كامل فيه شخصية صدام حسين شابّاً.

كان معظم العراقيين يحفظون أحداث الفيلم بفعل تكرار عرضه، ولم يكن صعباً على عبد السادة البصري أن يسرد الأحداث لبطل الفيلم السينمائي، الذي يشرف على تعذيبه، كواحد من كبار أقرب ضباط الحلقة الأولى للحماية الشخصية لصدام حسين الموثوقين عنده.

– لا أستطيع الحديث سيّدي وأنا مقيّد اليدين. عطشان..

– فكّوا قيده..

يقول عبد السادة: «كنت مجرد أروي الأحداث وأسرد الحكاية لصدام كامل الذي بدا مزهوّاً بما حسبه إعجاباً به من شاب مثقف، بوصفه نجماً سينمائياً». لم يكن ممكناً لهذا (النجم) أن يواصل الظهور السينمائي بعد هذا الفيلم اليتيم، فقد شاءت الأقدار له، وهو طالب إعدادي، أن يبدأ من (القمة) بتجسيده دور صدام، ولن يكون من المناسب أن ينحدر ليجسد أدوار شخصيات أدنى.. ربما كان هذا الممثل، الذي احترف العمل كحارس شخصي مع صدام بعد (توقّفه) عن التمثيل، ينتظر فيلماً آخر عن فترة أخرى من حياة سيده ووالد زوجته وابن عم والده، ويحلم بأداء دور البطولة فيه وهو يصغي بإعجاب للسجين الذي أمامه.

– ماذا تطلب الآن؟ ماذا تريد؟

سأل صدام كامل السجينَ البصري، امتناناً لما سمع منه، وتعبيراً عن سعادة مفاجئة أعادته إلى أيام المفاجأة الأولى التي صنعت حياته،

قبل أن يعرف أنها هي أيضاً التي ستنهيها بعد سنوات تلك النهاية الشكسبيرية التي حطمت العائلة حينما عادت من الخيانة إلى بيت الطاعة.

- شكرا سيّدي، سلامتك، لا شيء.

- لا، أنت لم تستحم منذ شهرين، تحتاج إلى حمام..

ثم وجّه الحديث للجلّادَين:

- خذاه ليستحم أولاً.. ثم عشّياه.

نُقل عبد السادة إلى حمّام مفتوح في الهواء الطلق، إلى حديقة جانبية في السجن، وبملابسه وبتيار ماء قوي من أنبوب بلاستيكي واسع تسقى به الحديقة، في ما يبدو، استحمّ، سعيداً بالماء وبهواء ليلة صيفيّة عذب وخفيف وتحت سماء بغداد بصفاء زرقتها..

- صابونة رجاءً.. أريد صابونة؟ ممكن؟

- تأدب غبي! لا تروح تطلب شامبو!

ونُقل من حمّامه المفتوح إلى غرفة مطبخ واسع وأنيق. كان ينتظره هناك صحن كبير مغلّف بالسليفون، وحين أُزيح الغلاف انكشف عن مأدبة، يقول عبد السادة إنه لم يأكل حتى الآن ألذ منها: وجبة رز عنبر مُزج بالزعفران والدارسين والهيل وتعلوه قطع من لحم الغنم العراقي اللذيذ وأخرى معها من أفخاذ ديك رومي. لم يبق على شيء، كما قال لي، كانت وجبته خلال الشهرين الماضيين قطعة خبز واحدة يوميّاً، قبل أن يعاقَب وزملاؤه في الأسبوعين الأخيرين، لتُختَصر قطعة الخبز بنصف قطعة احتجاجاً من إدارة السجن على السمنة التي بدت على الجميع والتي تسبّبت بها الوجبة اليومية المبالغ بها، قطعة الخبز..

كانت المفاجأة الأخـرى التي قدّمها الجلّادان لعبد السادة هي قطعة كيـك كبيرة مغطاة بالويفر والشوكولاتـة والجوز والفستق وبشرائح من فواكه مختلفة، قطعة كيك كاملة تكفي لحفل كبير، وهي من غير المألـوف في سنوات الحصار تلك. كانـت المفاجأة أكبر من كونها ثقيلة، فحين اعتذر عـن الأكل منها لشبعه بعد الوجبة المسلفنة، كان الرد قد جاءه حازماً:

– حقير! المفروض تعرف أن هدايا الأستاذ لا تُرد.

– حسنـاً، شكراً.. ولكن هل يمكن أن آخذها إلى الزنزانة وآكلها مع جماعتي؟

– نسأل الاستاذ..

وافـق الأستاذ علـى طلبه. وكانت صدمة زملائـه أن يأتي لهم من وجبـة تعذيـب بالكيكة الكبيـرة، يحملهـا بيديه وعينـاه تضحكان ليفاجئـه صديقه الأقرب الشاعر كريم جخيور بهجوم حاد كاد يطيح بالكيكة وبه لولا تدخل الآخرين. كان كريم يصرخ به:

– ها يا سافل، فعلتها واعترفت علينا؟

هذه النهايات الفانتازية لوجبـات التعذيب التي انتهى إليها فتحي المصـري وقبله بسنـوات عبد السادة البصري، فـي ظرف آخر وفي سجـن آخر غيـر (الحاكميّة)، في سجـن الرضوانية، كانـت تقابلها فانتازيا سـوداء لسجناء تضعهم مصادفات وسـوء أقدار في أحوال لا يمكـن الفكاك منها. ففي سجن الرضوانيّـة نفسه، وضمن مجموعة مثقفـي البصـرة كان الشاعر واثق غازي وجهاً لوجـه مع واحدة من اسوأ أقدار الفانتازيا السوداء.

كان السجّانـون يعرفون بموهبـة ومهنة واثق كواحـد من أفضل مدربـي البصرة بلعبة التايكواندو، كان لزاماً عليه أن يدرّب السجّانين على بعض حركات اللعبة التي لا تسمح أعمارهم وتصلّب أجسامهم بإتقانهـا بيسر، وكان اسوأ ما في هـذا التدريب المستحيل أن يتحوّل المدرب نفسه إلى كيس بشري يجري عليه تطبيق وممارسة الحركات التي يتعلمونها من مدربهم السجين.. يقول واثق ضاحكا بمرارة:

-رمهما راوغت فـي تعليمهم أصول الحـركات وكيفية تنفيذها يكـون لزاماً عليَّ أن اتوقّع ضربات مـن لاعبين عابثين لا أدري كيف تأتـي وفـي أي موضع من جسـدي ستنتهي.. كنـت أتمنى التعذيب العادي على هذا التعذيب الذي أتلقاه يوميّاً بعد درسي التدريبي لهم.

كانت المشكلة في مثل حالة واثق أنه يدفع ضريبة التعذيب مرتين: مرة مع التعذيب التحقيقـي المعتاد، وأخرى من خلال هذه التمارين التي لا تُدرج لحسابه ضمن جدول العقوبات الذي يتلقاه زملاؤه.

(٣٩)

كان محمد قلقاً في آخر الليل. نام الجميع، وحين تأكد من يقظتي استدار باتجاهي وتساءل:

– مــاذا لو كان مطلوباً من وائل ترويج هذا المقترح لمعرفة موقفنا ولاختبارنا؟

– ربما كان مطلوباً منه ذلك، لكن لا خيار أمامنا سوى أن نتحدث بالطريقــة الواقعية التي تحدثنا بها معه.. أنا شخصياً أتوقّع أن المقترح محاولــة اختبارية استفزازية من بنات أفكاره هــو وليست جديّة وإلا لتمسك بها وأثار هياجاً..

– والله لم أعد أعرف الصحيح والخطأ.

لقد غادر وائل الزنزانة مخلّفاً الذكرى الأسوأ التي بقيت مثار تندّر وتوجّس الجميع في الوقت نفسه وطيلة أيام..

فقبــل مغادرته الزنزانة بيوم، وبعد فراغــه من قضاء حاجته التي لم يأبه، وبخــلاف كل السجناء، من أن يقضيها نهاراً والجميع صاحون ومن دون أية تحفظات، طلب منا التهيؤ لسماع مقترح وصفه بالمهم جداً والجاد حالما ينتهي من غسل يديه.

لا أتوقــع ما هو مفيد وجاد من وائل، لذلك قــررت أن أبدأ تبديد توجســي من مقترح وائل بالعمل على تسفيهه قبل أن يطرحه وقبل أن أعــرف فحواه. لا خير يرتجى من وائل.. كنت أتهيأ لفتح القرآن عند سورة ياسين والانصراف معها عن وائل والمقترح حين قلت له:

- يبدو يا وائل أنك اعتدت اكتشاف المقترحات المهمة جداً مع قضاء حاجتك؟

- لا يا أستاذ.. اسمع أولاً!

ولم يترك مجالاً لانصرافي وانتهائه من غسل يديه، فقال:

- أخـوان مـا أدري شنو رأيكم أن نكتب طلبـاً للقائد الله يحفظه مكتوباً بالدم؟

ولمـا كان الجميـع قـد لاذوا بالصمت، فقد واصـل كلامه وهو يخطو نحو فراشه ماسحاً كفّيه بطرف قميص بيجامته:

- نقـول لسيادته فيه بما أن البلد مهدّد من قبل أمريكا فإنّنا جميعا جنـودك ومستعدّون لتدريبنـا للقيام بعمليات انتحاريـة ضد القوات الأمريكية إذا دخلت البلاد..

استمر صمت الجميع، فيما كانت عينا وائل تتحركان للتطلع نحو الكل، بقي للحظات ينتظر جواباً لم يسمعه، فقال:

- طبعـاً لا بـدّ أن نؤكد أن الحـرب إذا لـم تحـدث، وإن شاء الله لـن تحـدث، فإننا نتعهد بالعـودة إلى السجن ونأخذ مـا نستحق من أحكام..

قاطعه خميس بتساؤل:

- وأنت لماذا تتوقع أن جيشنا يسمح لهم بدخول أراضينا؟

- لازم نتوقع كل الاحتمالات حتى ننتصر..

- وإذا حدثت الحرب واستشهدنا بالعمليات الانتحارية؟

- طبعاً شهداء.. إذا نفدي الوطن والقائد طبعاً شهداء.

- كيف؟ وملفاتنا بـ ((الحاكمية))؟ تغلق؟

- يا أخي لنتّفق أولاً على الفكرة وبعدها التفاصيل، ما رأيكم بالفكرة أولاً؟

في حياة التملق والتزلف إلى السلطة كانت دائما تُبتَكر أفكار مثل هذه وتطرح بين الجد والهزل مشفوعة بشعارات لا يمكن معها الاستمرار بالهزل ليجري التركيز، ولو بطريقة مصطنعة، على ما هو جاد. دائماً هناك متبرعون لا يكتفون باستعراضات شخصية تخصهم فيعمدون إلى توريط آخرين بالاستعراض معهم. فبقدر ما بدا مقترح وائل مخيفاً ومرعباً فإن رفضه، بشكل مباشر، كان هو الآخر سيبدو أكثر خطراً ورعباً. كان يمكن لوائل، مثلاً، أن يبادر هو شخصياً ويقدّم طلباً يخصّه لإدارة السجن للإعراب عن رغبته في التطوّع انتحارياً، لكن وائل، وفي حال أنه غير مكلّف بالترويج لمثل هذا المقترح، فإنه يعبّر من خلال الطابع الجماعي المطلوب لمقترحه، عن عدم ثقته وقناعته التامتين بمثل هذا التفكير، كما يعبّر عن خشيته من أن يُفهَم مقترحه على غير ما يدّعيه الآن أمامنا.. الظهور الجماعي قد يخسر معه امتياز المبادرة الشخصية حين ينجح لكنه يضمن تشتّت المسؤولية والعقاب عندما يفشل.

قررت أن أهاجم الفكرة ولكن عبر مهاجمة وائل نفسه، كنت أخشى على خميس من خطأ ما في حديثه مع وائل، كما أخشى من أن يكون خوف الباقين يضطرهم إلى القبول، مكرهين، بالفكرة، وحينها لن يُفهَم أيّ رأي أطرحه إلا على أنّه تبرير لرفضي.. تذكرت عفواً عاماً عن السجناء في حرب الثمانينيات، وتم بموجب هذا العفو المكرمة توفير فرصة لكل المعفو عنهم ليعبروا عن وطنيتهم فكان

أن دُفع بهـم جميعهم إلى الحجابات والخطـوط الأمامية في مناطق التماس الساخنة في تلك الحـرب وقُتل معظمهم في تلك الظروف، وربما لم ينجُ منهم سوى من هرب من تلك الورطة.

بقـي الجميع صامتين. كانـت عينا محمد تتنقـل بيني وبين باب الزنزانة، ولا أدري لماذا كان ينظر باتجاه الباب. قلت لوائل:

– نظرياً الفكرة ممتازة، ولكن..

قاطعني وائل متسائلاً بانفعال:

– ولكـن؟.. ليش ولكن؟ الموضوع يا عمّـي ما يحتاج ولكن.. موضوع وطن وتهديد.. ليش ولكن؟

– ولكن أنت كلاوجي يا وائل..

– أرجـوك أنـا احترمك لا تتجاوز أكثر من الـلازم.. نحن نتكلم بموضوع يخص القائد والوطن!

– دعنـي أكمـل.. أنـت كلاوجي لأنـك تريد بهـذا المقترح أن تنهـزم.. مَن يضمن إذا وافق القائد علـى الطلب وخرجنا من السجن أنك ما راح تنهزم.

– وليش تفترض أنه أنا اللي ينهزم مو غيري؟

– هذه بسيطة، أولاً عبقريتك هي صاحبة الفَكرة..

– وثانياً؟

– ثانياً عليك أن تتذكر دعواك.. أنت جئتَ إلى هنا مقبوضاً عليك عند حدود الكويت، كما قلت، وكنت تنوي الهزيمة من بلد هو على وشك حرب.

ضحـك الجميـع على وائـل الـذي لاذ بالصمـت. أنهى محمد الضحك بالقول:

– يـا عزيزي يا وائل، أنـت واضح عليك وطنـي مخلص للعراق والقائـد.. وبالتأكيد حتى مع بقائنا هنا، فأنت وأنا والأخوة معنا وكل عراقي هنا سيكون رهنَ ما يأمر به القائد.. كل ما في الأمر أننا نخشى أن يُفهم الأمر حين نكتب مثل هذا الطلب بطريقة أخرى لا تقصدها.. إن شاء الله البلد سيكون دائماً بخير.. لا ينبغي أن نستبق الأحداث.

حاول وائـل أن يعقّب فأسكته محمد وفتحـي وخميس مؤكدين أنهم رهن إشارة القائد والوطن، وأنهم فعلاً يخشون أن يُفسَّر المقترح بغير موضعه..

طلـب محمد من الجميع التهيؤَ لوجبتـه السامرائية. انصرفت مع سـورة ياسين معتذراً عن تناول أي شيء، بينما انهمك وائل بمساعدة محمد وقد بدا كما لو أنه نسي كل ما قال وقيل قبل قليل.

(٤٠)

ولكن للزنازين متعتها أيضاً..

مـع تقادم الأيام تريد حياة السجيـن ألواناً أُخَر غير اللون الواحد الـذي تفرضه إرادة الحبس. وكانت واحدة مـن أمتع ليالي الزنزانة ٣٢ هـي تلك التي أظهـر فيها خميس وأبو تحسيـن براعة في قراءة أنواع من الشعر الشعبي العراقي وفي غنائه ايضاً.

فعـادةً ما يكون السجن مكاناً للتنامي التدريجي غير المحسوس للكآبة والاحتقان النفسي الذي يتفجّر بين السجناء أنفسهم أو بينهم وبين سجانيهـم، لكن الشـكل الأكثر دراماتيكيـة لذلك الاحتقان يعبّـر عن نفسه مـن خلال توجُّه مشاعر العـداء والشدّ العصبي نحو الداخل، نحـو الذات، وبما يضاعف مشـكلات السجين في حياة الحبس وفقدان القـدرة على التكيّف مع المحيط القسري الجديد، من أصدقاء وشركاءِ حالٍ ومصير ومن سجانين يتحولون إلى خصوم شخصييـن. بعد أسبوع من إقامتي في زنزانتي الانفرادية سمعت في آخـر الليل صراخاً وشتائم انتهت بفتح بـاب أحد الزنازين وإخراج سجين منهـا ضرباً وسحلاً حتـى انقطع صوت الصـراخ مع ابتعاد السجّانيـن والمسجون، وحين انتقلت بعـد أيام إلى زنزانة ٣٢ تبيّن لـي أن ذلك السجين كان قد جـرّب أن ينتحر بالتهام قطعة صابون، هي كلّ ما متاح لديه من وسائل إيذاء النفس. و(إيذاء النفس) مصطلح بقـي راسخاً فـي ذهني من سنـوات الجندية في الحـرب العراقية الإيرانيـة، حين تنامـت في الجيش محـاولات الانتحار التي كانت

بدرجة أقل من محاولات أخرى أكثر انتشاراً في جميع وحدات الجيش المقاتلة، وهي محاولات كان يعمد معها الجندي إلى بتر عضو من أعضائه أو إحداث تشويه جسدي يسمح له بالتحرر من الجنديّة وفي الأقل البقاء فيها ولكن بالتخلص من الواجب القتالي ليجري تحويله إلى واجب إداري أو خدمي. كان أبشع ما شاهدت في هذا المجال هو إقدام جندي شاب بعمر التسعة عشر على وضع قدمه على لغم أرضي مخصّص لبتر الأطراف، داس عليه بقوة، وصرخ صرخة واحدةً فقد بعدها الوعي، كان قد حسب لكل شيء حسابه فلم ينفّذ إرادته إلا بعد تأكّده من وجودنا جميعاً على مسافة قريبة منه، وبما يسمح بإخلائه ونقله إلى المستشفى قبل أن يموت بالنزف.

حالات الاحتقان النفسي في الحرب والسجن توفر بيئةَ عدوى يكون معها الجنود والسجناء أمام خيارات مرّة لتفادي واقع أكثر مرارة، وغالبا ما يرتبط هذا الاستسلام لتلك الخيارات بطبيعة الشخصية ومدى قدرة حصانتها الداخلية على التمنّع على الخيارات وعلى الواقع المر. ثمة نفوس تجد عزاءها، وهي في مثل تلك الظروف، في اختلاق فضاء روحي نسبي بديل، يسمح بالترويح وبالتمدّد والاسترخاء ولو إلى حين.

فقد بدأت ليلة الثنائي خميس وأبي تحسين بقراءة (الدارمي) والتباري في أبياته التي عادةً ما تكون على شكل سلسلة من أبيات كان قد نظمها شعراء وشاعرات مجهولون، غالباً ما يكونون ويكنّ من أرياف الجنوب والفرات الأوسط. تمتد هذ السلسلة في عمل الأبيات على معنى شعري بعينه وتتنامى قدرة التعبير حتى الوصول

إلى حالة مـن الإعجاز في المعنـى والبلاغة التصويريـة يبلغها بيت شعري معين لتتوقف عنده السلسلة.

كانت الأبيات التـي يرويها خميس أكثر قدامةً وأندر تداولاً، فنُفاجأ بها. كانت صلته الحيّة بمدينتـه الأولى الناصرية، قبل مجيئه إلى بغداد، توفّـر لـه دائماً مصادر جديـدة لشعر قديم تحفظه العجائـز اللائي ربما كان بعضـه من نظمهن لكنّهن يتكتمن علـى ذلك خصوصاً حين يكون موضوع البيـت الشعري مفعمـاً بعواطف ساخنة أو بنـزوع إيروتيكي صـارخ، فيضيع المؤلـف أو المؤلفـة بذلك التكتّم، ويبقـى البيت حياً خالداً مبتور النسب.

لا صلة للحـاج حسين ولفتحي بما يدور من مطـاردة شعرية، بينما يواجه محمد السامرائـي أحياناً صعوبة في إدراك معاني مفردات غارقة بالمحلية الجنوبية، يشير لي فأهمس له بمعناها من دون أن تتوقف حيوية خميـس وأبي تحسيـن الذي آثر الانتقـال إلى (الأبوذيـة) و(الزهيري) فتفوّق بمحفوظاته منهما على ما في ذاكرة خميس.

مـن حيـث يدري قـارئ الأبوذيـة أو لا يـدري فإن الاقتـراب منها والاندماج بأجوائها يجـرّ شيئاً فشيئاً إلى الغناء.. من النادر أن لا تُستَهل أغنيـة جنوبية من دون أبوذية توجّه المعنى وحتّى اللحن الذي يتحكّم به واحـد من المقامات المعروفة الـذي ينتهي إلى أساس المقام مع الجملة الشعريـة الأخيرة في الأبوذيـة وهي (قفل) الأبوذيـة، والقفل هو جملة شعريـة بقافية ثابتـة تختم المعنى الشعـري للأبوذية وتشـكل خلاصته التعبيرية.

كانت الرغبة في الغناء واضحة لدى خميس، لكن العيون كانت تتجه نحو نافذة الباب والممر الذي يفصلنا عنه جدار وباب سميك، قلت له:

– الحارس اليوم هو الشاب اللطيف وهو الأكثر تسامحاً، يمكنك أن تغني بصوت خفيض.

– ما أريد أن أغنّيه لا ينفع معه صوت خفيض؟

– لا.. ما معقولة! هل في نيتك أن تؤدي (طور الصُبّي)..؟ لا يمكن ذلك يا خميس! المكان والظرف لا يسمحان.

ما كنت أعرفه أن الشاعر مظفر النواب تعلم في السجن وأجاد غناء طور (المحمداوي)، وهو طور يتطلب من مؤدّيه صعوداً عالياً في الجوابات بأصوات تأتي مضمّخة بأقسى العذاب من أعمق أعماق القلب، يأتي الصوت بصراخ وأنين وكأن المطرب ينتزع مع كل هذا الشجن روحه ويرمي بها في كلمات ولحن تنهمر معهما الدموع وتعتصر القلوب عويلاً. حدث هذا في سجون الستينيات، وهو ما كان ممكناً في سجون تلك السنوات، سنوات حبس مظفر، لكننا الآن في ((الحاكمية)). في هذا السجن الذي يطلّ من خلاله العراق على الألفية الثالثة ليس بوسع المرء أن يغنّي مثلما ليس بوسعه أن يبكي ويتضور. الصمت هو الآخر ليس خياراً متاحاً دائماً. كل شيء ينبغي أن يمشي على وفق مشيئة ومزاج سجان ومحقّق وسلطة مستبدة.

لم تنفع النصيحة في قمع الرغبة التي استبدت في أعماق خميس..

بدأ يغني بصوت خفيض، صوت عذب يتلون مع كل (آ.. يا ويلي) التي يبدأ بها استهلال الأبوذية في (طور الصبّي) أو ما يسميه الموسيقيون أساس المقام، كان الصوت مزيجاً من تمدّن رياض أحمد وحسين نعمة، وهما من أبرع الذين غنّوا هذا الطور، خصوصاً في الحفلات الخاصة التي كان رياض أو حسين يسلطنان فيها، ومن فطرية جبار ونيسة الذي يحفظ له تاريخ الفن ترسيخه وتسجيله لهذا

الطور مع بدايات التسجيل الصوتي في العراق. كان أبو تحسين يقدّم مـع غناء خميس نقـراً خفيفاً على آنية البلاستيـك، فيما تنهمر دموع الحـاج حسين الذي لـم يتوقع، كما قال لاحقاً، أنـه كان يستمع إلى غناء.. كان خميس يحدّق بتركيز شديد في سقف الزنزانة حتى ليبدو، في لحظات من الوجد والشجن، أنّه يخترق السقف ويحلّق في سماء الهور الذي لا مكان يضارع سعة فضائه في تحمّل قوة الألم وتمزّقات الـروح التي تختزنها الطاقة اللحنية لهذا الطور وهو يقدّم أشف ما في مقام نهاوند من حزن.

بـدأ صوت خميس يرتفـع تدريجياً، وبـدأت تأوهات وشهقات الحاضريـن، هي الأخرى، تسمو بالصـوت العذب، فيشهق خميس غنـاءً موجعاً وقلبـاً يتفطر. كانت نقـرات أبي تحسيـن تأتي بصوت وحشي غريب لا يمكن أن يصدر عن إناء بلاستيكي تالف، كان النقر يأتـي من القلب صاخباً وصافياً مثـل إيقاع دفٍّ صوفيٍّ عميق، يرتفع الصوت ويرتفـع النقر، فيغمـران الزنزانة والممـر والسجن، فينفتح الباب.

– مَن هذا الذي كان يغنّي؟

كان علـى الباب الحارسُ الشاب اللطيـف غاضباً مكفهرّاً، وكان إلـى الخلف من الباب صمـتٌ يُزيد من عمقه أنـه يأتي بعد كل ذلك الغناء..

– سألتُ: مَن كان يغني؟

– ......

– للمرة الأخيرة اسأل: مَن الذي كان منكم يغني؟

همّ خميس أن يجيب فأمسك بفخذه محمد ولكزته من الخلف، أن اسكت.. فسكت.

كان الجواب الذي لم يكن قد تم الاتفاق عليه هو أن نصمت جميعاً.

- حسناً، لا تجيبوا، انتظروا الصباح!

صمتنا جميعاً، فأغلق الحارس البابَ بغضب، فيما تناهى إلى أسماعنا صوت سيدة تبكي فتغالب بكاءها بشهقات وحسرات ليست أقل مرارة من ذلك الطور الحزين الذي انتهى بنا إلى هذا الصمت الذي ينتظر صباحاً أسود.

العقاب الذي يتوزّع على جماعة أهون من ذلك الذي يمكن أن يقع على فرد.

(٤١)

جاء الصباح.

كان أول من فتح النافذة من دون أن يفتح الباب هو الحارس الشاب الذي أطلّ فنهض الجميع ليتطلعوا إليه بقلق. كان توقّعُنا ليلةَ أمس بعد انفعاله وصمتنا وعدم إجابتنا على أسئلته هو أن يحال موضوعنا إلى مدير القسم أو مدير عام السجن. توقّعنا أن يسفر الأمر عن عقوبة جماعية مع تفريقنا على الزنزانات بعد إرغامنا على الاعتراف ضدّ خميس الذي كان يغني.. لم يتوقف الحاج حسين عن التعبير عن غضبه، ما مبرر أن يُعاقب على غناء توهّم أنه يؤدي غرضاً دينياً طقوسياً فانفعل معه وبقي يستمع إليه باكياً، لكن فتحي كان الأكثر استرخاء وهو يعلّل لنا ولنفسه أنه لا علاقة له بغناء لم يفهم منه شيئا، مع هذا بقي هو يغني بأغنيات منسية من شادية واسمهان وليلى مراد ومحرم فؤاد حتى الصباح..

بقي الحارس يتطلع بوجوهنا، ويعود بين لحظة وأخرى إلى تفحص الممر، اردت أن أبدأ بالكلام معه، فسبقني بالقول:

- أخوان، ما حدث البارحة كان خطأً قاتلاً بالنسبة لرجال مثلكم.. أنا أخجل أن أتكلم معكم هكذا، لكن أنا صاحب عائلة وأخاف على عائلتي في الحالين: أخاف عليها إذا أهملت بواجبي كما مطلوب مني، وأخاف عليها من غضب الله إذا تسببت لكم بأذى.. أرجو نسيان الموضوع وعدم تكراره وعدم ذكره لأيّ واحد رجاء. هذه أمانة في رقبتكم وأنتم في شدّة، لا تورطوني رجاءً.

تكلم أولاً خميس فقال:

- يـا أخي ما دمت بهذه الأخلاق، أقول لـك بصراحة واطمئنان إنـي أنا الذي كنـت أغني وقد حذرني الأخوة مـن ذلك.. أنا مستعد لتحمّل كل النتائـج، لا تحرج نفسك ولا تحرج الأخوة، إما إذا كان الأمر لا يحرجك ولا يتسبب لك ولعائلتك بأذى فالعفو منك كرم لن أنساه.

- أنت مثل أخي، إنسَ الموضوع، وتهيأوا للإفطار قبل أن تتغير وجبتي وأغادر. خلاص الموضوع انتهى؟

- بارك الله بك، شكراً.. أنت متفضل.

قلنـا جميعا. وانصـرف الحارس الوديع، ليتـرك النافذة مفتوحة، لتتشبّـع الزنزانـة بهـواء جديد، هـواء لم يألفـه المكان، ولـم تعرفه العلاقات بين البشر هنا.

من الخـوف إلى التسامح، من الكراهية إلـى المحبة، من التنازع إلى التعاون..

الكلمات مهما بدت بسيطة وعابـرة تكون بقيمة جرعة من هواء لغريـق في الأعماق.. وأية أعماق سحيقة هنـا في الزنزانة، في سجن (الحاكمية) الذي يضيق بساكنيه كلما طال بهم المقام فيه، ولقد طال بنا المقام.

ولمّا عرف الحاج بالموقـف المتسامح للحارس، استغرب ذلك وتساءل متعجباً:

- يحب غناء؟

(٤٢)

أتممت الختمة الثانية للقرآن في الزنزانة ٣٢.. كان الحاج حسين يسألني عن معاني آيات حفظها من أيام المدرسة ولم يدرك معناها تماماً، وكان عليَّ أن أحاول تقديم معنى قريب يمكنه إدراكه مع صعوبة التفاهم بيننا.

بقيت في مكاني جالساً وصافناً وقد تذكرت أنه مضت عشرة أيام على حضوري أمام القاضي ولم أتلق بعد جواباً بشأن ما سيكون عليه وضعي ومشكلتي.

القصص والأحاديث والمجاملات بدأت تعاد وتتكرّر بين السجناء وتُستَهلك، فيما أخذ الوقت بالتمدّد والترهّل وسط هيمنة الشعور بالغثيان والقرف والملل والخوف مما يأتي ومن يومياتٍ تمضي برتابة وإزعاج وذهنٍ شارد وممزّق بين البيت والأصدقاء والحرب المنتظرة والمصير المجهول وما يدور في غرف التحقيق وإدارة السجن.

في مكان مثل هذا لا يمكن أن تطمئن على صورة واحدة تتوقع أن الأمور تسير باتجاهها. كل شيء متوقع، وكل شيء أيضا هو محتمل وهو خارج التوقعات في الوقت نفسه، قد يُعاد التحقيق، فما قاله النقيب حميد ليس صكاً غير قابل للنقاش والمراجعة، هكذا بدأت أفكّر، وفكرت ماذا لو حدث طارئ جديد، معلومة جديدة تصل فجأة أو يُعثر عليها، فتقلب الموازين وتغيّر كل شيء.

فــي حدث مفاجئ أطلق أمس سراح أبي تحسين؛ لم نعرف كيفية إطلاق سراحه، نودي عليه على عجل، وحين تأخر ولم يعد إلينا، جاء الحارس، وقال:

- بإمكانكم استخدام بطانيــات صاحبكم الذي أُفرج عنه.. فقد غادر السجن من غرفة المدير العام..

سُرِرنــا بالإفراج عنه لكن لا شــيء يبدد قلقنا عليه من احتمال آخر غيــر الإفراج قد يكون سيق إليه ليجــري تضليلنا بهذا الخبر الغامض. بقــي مثل هذا القلق وتذكّر مصير أبي تحسيــن كثيراً ما يراودني طيلة هذه السنوات حتى وقفت مؤخراً على صورة كبيرة له بشعر مصبوغ وبلحيــة خفيفة لــم ينس تحديدها بالدقة التــي كان يحرص عليها في الزنزانة، كانت الصــورة منتشرة في كثير من أحياء بغداد عام ٢٠٠٩ تحــثّ الناخبين على ترشيحــه والتصويت له فــي انتخابات مجالس المحافظــات، وقــد كُتب تحــت الصورة مــا يشير إلى كونــه سجيناً سياسياً من سجناء المخابرات العامة في ظل نظام البعث المنحل!

وأمــس أيضاً تــم إطلاق ســراح السيــدة المسيحيــة. حارس في السجــن ســرّب لمحمد معلومة عــن تدخل لم يفصح عنــه كان وراء اطــلاق سراحها، مما شحن فتحي المصري بجرعة أمل قوية لم يكن يعرف معها دواعي الإفراج عن السيدة شريكته في القضية التي أوقف بسببها.

كان اليوم هو الجمعة، لا تحقيقات ولا استدعاءات..

لــم يعكّر الصمت سوى حركات هوجــاء لحارس جديد لم نعرفه مــن قبل ولم يجد من وسيلة لتزجية وقت واجبه وصمت المكان بغير هذا الهياج الصاخب.

بقي خميس أسير كآبـة هيمنت عليه بعد ليلة الغناء؛ لم يقترب من الأكل إلا نـادراً، لم تنفع معه محـاولات فتحي بالحديث عن الحب والنساء والجمال الذي سيبقى ينتظر خميس حتى يفرج عنه، لم تكن حتى أغانـي شعبان وحاتم العراقي التي يغنيهـا فتحي بصوت لايكاد يسمـع قد نجحت فـي امتصاص الحزن ومشاعر تقريـع النفس التي ظـل يكرّرها خميس.. زاد خروج أبي تحسين من وحشته، فقد كان الأقرب إليه.

عبّـر محمد عن قلقـه وظل يستغرب من تأخـر حسم موضوعي، فيمـا كنت أكثر استغراباً منـه في ما يخص عدم حسم موضوعه الذي لا يستحق مثل هـذا التأخير. رعد عبد القادر الذي هو تاريخ مشترك بيننـا نحن الاثنين كان محوراً دائمـاً للحديث عن موهبته وخُلُقه. لم أنشغـل بمحاولـة اكتشاف رعد عبر ذكريات محمـد عن مرحلتهما معـاً، وهي مرحلة لم نكن فيها متعارفين أنا ورعد، وجدت هذا عملاً غيـر مبرر ولم أستسغه أخلاقيـاً، ولا تحتاج علاقتنا وما بيننا من عمق روحي واجتماعي وثقافي إلى مثل هذا الفضول.

كنـت ومحمد ننتظر أيّنا يُحسَم أمره قبـل الآخر، ومثل كل البشر كنـا نرجّح في حساباتنا النهايات السعيدة، هو يراها في الإفراج عنه، فيمـا أراها أنا في إفراج عني غير أكيـد أوبحبس في (أبو غريـب) شبه مؤكد، وكلا النهايتين، بالنسبة لي سعيدتان لخلاصي من هذا المكان والمخاطر المحتملة فيه دائماً على أكثر من مستوى.

الحـاج حسيـن بـدأ يشكّ فـي (فرج قريـب) ظلَّ ينتظـره بلهفة وصلـوات منذ أول يـوم العيد. روى لنا قصة النبـي يوسف ثم الإمام موسـى بن جعفر في حبسيهمـا، بدأ بكلمتين عربيتيـن أو ثلاث، ثم

استمـرّ يتحـدث بالفارسية لمدة ربـع ساعة من دون أن ينتبـه إلى أننا لا نعـرف الفارسية، ولـم نشأ نحن أن ننبّهه على ذلـك. استغرقنا في تأمّل حديثه بجديّة تامة، شاركناه الأسى وهو يندمج بالرواية، ويبكي، فننفعـل لبكائه. أنهى القصتين فسادَ صمت حزين انتهى حين انتبه هو إلى أننـا لا نعرف الفارسية التـي كان يتحدث بها، فتفاجـأ بإصغائنا لـه، وشكرنا على ذلك. كان يريـد أن يتحدث، يريد للغته أن تمرَّ بين شفاهـه، لم يطـق الصمت الذي هو فيه، ولم يكـن عندنا ما نقدّمه له سـوى أن نصغي باهتمام إليه وإلى لغـة لا نفهمها، نصغي إلى صوت إنسان يستنجد بسماعنا لتأكيد وجوده.

نحن موجودون ما دمنا نتخاطب.

(٤٣)

استحممت واستلقيت على فراشي، وحين استيقظ الحاج حسين في آخر الليل مـع مطلع الفجر ليتوضأ ويقرأ القـرآن تفاجأ بوجودي يقظـاً. كان محمـد وفتحـي وخميس غارقين في نـوم عميق، حين طلـب الحاج مني بإشارة بيده أن أجلـس، فجلس معي على فراشي، وبكلمات متقطّعة، سألني عن بعد بيتي عن ((الحاكمية))، أراد قياس المسافة بالوقت سيراً على الأقدام، أجبته:

– ساعة كاملة.

– والحدود: هنا.. إيران؟

مـرّة أخرى تذكـرت فيلم الفراشـة، ولاحظت للمـرة الأولى أن الحاج حسين يشبه ستيف مكويـن، بهيئته في ذلك الفيلم السبعيني، ضحكت، وقلت للحاج:

– لا تفكر بالهروب يا حاج، لا تشغل بالك بالمستحيل.

– هروب؟ لا..

– ماذا إذاً؟

– حرب.. يخرج كلنا.

يا اللللله.. قال ذلك بثقة. حتى الحاج حسين السجين الإيراني بات لا يستطيع أن يجد خلاصه إلّا بحرب تقودها أمريكا ضد صدام، وقد يحتـرق بها العراق.. لم يكن أحـد قد تحدّث مع الحاج عن الحرب

وقـرب وقوعها، لكن حين سألته عن كيفيّة معرفته باحتمال الحرب، قال لي إنه كان يفهم من كلامنا مع بعضنا زيادة فرص الحرب وقرب وقوعها. ضحكت ثانيةً، وسألته:

– حـاج حسيـن.. أمريكا بلـد الاستكبار العالمـي، كيف تنتظر حربها مع صدام؟

– آغا.. الظالم سيفي في الأرض.

اللغـة مشكلة كبيرة بقدر ما هي حل كبير. لا يمكن التواصل بهذا اللطـف وهذه الحيرة مع الحاج حسيـن. أمريكا التي ينبغي أن تُزلزَل بجندٍ مـن السماء تعود لتصبح سيف الله. هـذه مشكلة الإنسان حين تكون الأفكارُ تبريراً لحاجته ولحظته في التاريخ، حتى فتحي نلاحظ علـى محياه فرحاً صامتاً كلّما استعـرتْ أخبار اقتراب الحرب، ليس حبّـاً بها أو بأمريكا، لكـن الخلاص الشخصي قابـل لأن يتوفّر على أي تبريـر من أجل الحياة والحريـة. الدكتاتوريات تَشوّه كلَّ شيء في معرِض مطالبتِها الناسَ بكل شيء وحرمانهم من أي شيء.

كان خميس ما زال، مثل الاثنين الآخرَين، نائماً، يختلط نومه بأنين تعب وإرهاق نفسي واضح. انصرف الحاج حسين للوضوء والقرآن والصـلاة وربما الدعـاء من أجل الحـرب. ولا أدري لماذا انصرفت أفكّـر بما يمكن أن ينتظر خميس، الأصغر سنّاً في ما بيننا، والذي لم يعد يعرف من أمره شيئاً.

طبعـاً ليـس خميس بالبريء تمامـاً من جريمة تهريـب آثار ولقى أثرية والإتّجار بها، وهي جريمة يعاقب عليها القانون بالإعدام. لكن خميس هو الحلقة الأضعف التي ارتبطت، ربما بالمصادفة المحضة، بطوابيـر مـن اللصوص الذيـن ارتبطوا بنفـر محدود مـن المهربين

والمتاجرين الكبار بآثار يعود تاريخ بعضها إلى ما قبل سبعة آلاف عام.

دائماً ما يجري تقديم القربان أو تشتيت الانتباه من خلال التضحية بالصغار الذين يشكلون مظلة واقية لمرور الكبار.

لم يعرف تاريخ العراق متاجرةً سوداء بالآثار إلا بعد انتصاف الثمانينيات، وبشكل منظّم وأشد في سنوات الحصار في التسعينيات، ولعل وجود شخصيات متنفذة، ولها صلة حميمة بصدام حسين، كان تعبيراً عن تشكّل مافيا تهريب ومتاجرة بالآثار الوطنية تستغل غطاء السلطة والتسهيلات التي توفرها قوة ونفوذ الأشخاص المهمين في نظام شمولي استبدادي. وتمكن الإشارة هنا إلى تقطيع الثور المجنح في إحدى المدن الآشورية في التسعينيات وسرقة المتاحف في الموصل وواسط، ناهيك عن الآثار التي تُركت مكشوفة في المواقع الأثرية ولم تدرج في سجلات المتاحف ودائرة الآثار العامة وهي أسهل أنواع السرقات التي تجتذب إليها فقراء المدن القريبة من المناطق الأثرية، كما في حالة خميس، ومثل هؤلاء يشبهون عمّال مناجم الذهب الذين يتوفرون على قوت يومهم من مهنة خطرة في مقابل صنع مليارديرات من تجار ومافيات وعصابات.

أذكر في طفولتي في الجنوب كنا نصادف، أثناء اللعب في المناطق المتاخمة لأحيائنا وبالقرب من المقابر، أواني فخارية، ولم نكن نعرف أنها آثار وأن هناك تاريخاً وحضارات انقرضت ودفنت تحت تراب الأرض وتراب الجهل. كنا نكسر تلك الأواني ونحطمها، لكن فقراء هذه السنوات باتوا يعرفون أن مثل هذه اللقى التي كنا نراها تافهة يمكن أن توفر القطعة منها مصروف شهر أو أكثر لعائلة

نخرها الحصار والجوع وسوء تبذير ثروات حاضر البلد وماضيه.

تفكِّر المخابرات بنصب كمين لخميس والقبض عليه ولا تفكر بوضع المناطق الأثرية كمحميات لا يجوز الاقتراب منها والعبث بطبيعتها.. يتجه فكر المتنفذين المتاجرين بالآثار إلى الإبقاء على هذه المناطق عرضةً للنهب والسرقة والمتاجرة السوداء بها لتمرَّ الصفقات الكبرى بشرفٍ وأمان تحت ستار القبض على خميس ومن مثله.

كانت عامة الناس في تسعينيات الفقر والجوع تبيع أنتيكاتها، من سجاد يدوي وتحفيات وساعات وأواني، بينما الكبار يبيعون أنتيكات بلد، آثاره وغير الآثار.

فاللقى الأثرية لم تكن وحدها عرضة لذلك الاستهداف التجاري؛ لقد كانت المخطوطات التراثية ونوادر رواد التشكيل العراقي هي الأخرى مجالاً للنهب والتهريب والمتاجرة، وكانت الفضيحة الأشهر في التسعينيات في هذا المجال هي تهريب نسخة أثرية نادرة من التوراة مخطوطة على جلد غزال ووصولها إلى إسرائيل.

لقد تمّ الصمت على الفاعلين الكبار في هذه العملية التي جرى تداولها بشكل واسع في وسائل الإعلام حينها، لكن مسكيناً مثل خميس، لا ينبغي الصمت عليه. لم يقدِّر خميس طيلة وجودي معه في الزنزانة القيمةَ الأخلاقية لما فعل، لكنه يكاد ينهار الآن لأنه تسبب بحرج نفسي لشركاء له في الزنزانة يعتقد برفعتهم على مثل هذا الحرج الذي وضعهم فيه غناؤه في مثل هذا المكان.

قال لي مرةً إنه لا يعبأ كثيراً بهذه الأيام التي يقضيها في ((الحاكمية)) والتي يعتقد أن الحرب ستنهيها لكنه سيظل يفخر، كما يقول، بلقاءات أتيحت له هنا بناس ربما لن يلتقيهم طوال حياته الباقية.

بقيت أنظر إلى خميس السجين النائم الذي لا يريد أن يفكر بمصيره، بينما أنا أفكر بالمسؤولية عن تدمير آثار بابل التي أُخرِجت، حسب اليونسكو، من كونها منطقة آثار وتراث عالمي إلى اعتبارها منطقة لا تتعدى كونها سياحية، وذلك بعد إقدام السلطة على بنائها بالطابوق الجمهوري الذي حُفر عليه حرفا (ص ح) حتى يحفظ التاريخ جهد الباني الجديد لبابل، حيث جرى رفعُ شعارٍ لمهرجان بابل الدولي يقول: (من نبوخذ نصر الى صدام حسين بابل تنهض من جديد).

(٤٤)

لـم تكن سوى إغفـاءة عابرة، ربمـا لنصف ساعة، حيـن أيقظني صوت الحارس القاسي.. كان يتحدث مع زميل له قد يكون في طابق آخـر مـن المبنى، وكان على الجميـع أن يفيقوا لمجـرد أن الحارس يتحدث.

هذه بداية سيئة ليوم بدا منذ لحظته الأولى ثقيلاً وقاسياً وموحشاً، اكفهر معه وجهي وقلبي وعقلي، سألني محمد:

– ماذا بك، لم أرك هكذا من قبل؟

– يئست.. أشعر أن هذا يوم سيئ.

– اتق الله يا رجل، ما هكذا نستهل الصباح!

– إذا لم أخرج اليوم لن أخرج أبداً؟

– أنـت اليوم لسـتَ طبيعياً.. تعـال افطر ببرتقالة، هـي قريبة من الليمون.

– شكراً..

مـع استيقاظي استبـدت بي كآبة حادة.. اليوم هـو السبت، وبتّ أجهل كـم من السبوت مرّت بي وخلفتني هنا في ((الحاكمية)) التي وصلت إليها بسبت مشؤوم سابق.

كان الزمن ثقيلاً، وها أنا أفكر باستحضار أشكال وملامح عائلتي، خشيـت أنّ تقادم الأيام والأسابيع والشهور وربما السنوات قد يغيّب

تلـك الملامح عن ذاكرتي. كان مجرد استبداد مثل هذا التفكير كافياً لتحطيم أكبر المعنويات.

في السجن كنت أحاول ترميم وضعي المعنوي أمام سجناء كلهم أصغر مني سنّـاً وخبرةً، باستثناء الحاج حسين الذي يكبرني بعشرين عامـاً ومحمد الذي كان بعمر يقارب عمـري. في مثل هذا المكان، وهذا الظرف، تشعر بمسؤولية ليس إزاء نفسك حسب، بل أيضاً إزاء آخرين معك ينتظرون منك ما قد يعجزون هم عنه.

كان أول رد فعـل قد جاء مـن خميس الذي حاول أن يتخفف من كآبتـه حين بدأ يداريني ليخفف مـن الحال الذي بدوت عليه مع أول استيقاظي، قال لي:

– عرفنـا من الحاج حسيـن أنك لم تنم إلا منذ قليـل.. فكّرنا أن تستمر النهار نائماً، لم نحسب حساباً لسافل ايقظك بصوته الأرعن.

– ومتى نمت يا خميس حتى أنام هذا اليوم نهاري كله..؟

– لا بد من أن تنام، هكـذا أنت تدمّر أعصابك.. لا تنس، أستاذ، نحن نستمد صبرنا وقوتنا منك.

– أنا أضعفكم يا خميس.. أنا مرهق وأعصابي تالفة.

قطع الحديث فتحي بالقول:

– إيـه ده يا عم.. انت الصباح ده مش زي كل يوم.. ما احنا كنّا زي الفل بلاش كآبة يا سيدي، ما كفاية علينا خميس؟

أخـرج محمد، على غير العـادة، أكياسه قبل مجـيء الإفطار. لم أستطع تناول شيء..

عدت إلى فراشي ونمت.

كان من حسن حظي دائماً، وربما هذا جزء من المناعات الداخلية للجسد، أني غالباً ما أميل إلى النوم في الأوقات التي تعتريني فيها كآبة وحـزن ويأس، لكن فـي السجن لم يحضرني النوم أبـداً برغم كآبتي وحزني ويأسي هناك. فكرت أن هذا الصحو المستمر قد يكون جزءاً من تدبير لا واع للحاجة التي بقيت أفكر فيها منذ دخولي السجن إلى التركيـز والدقـة والصحو إزاء أي شيء. لم أنـم طيلة تلك الأيام، كما قلت سابقاً، إلا عند طلوع الفجر ولوقت محدود جداً.

لكنـي الآن شعرت بالحاجة نفسها إلى أحتاج فيها إلى النوم حين أكون كئيباً وحزيناً ويائساً، فنمت.

لم يوقظني صوت حارس فظ ولا جلجلة مفاتيح ولا حركة أقفال، بقيت نائماً حتّى أيقظني محمد بلطفٍ وهدوء:

– يكفي نوماً، اجلس لتتغدى، أنت لم تفطر بعد.

فركت عينيّ، وتأملت المكان والحاضرين، ونهضت إلى الحنفية لأغسل وجهي. سألت وأنا أغسل:

– انتهى الدوام النهاري..؟ الوقت غداء؟ لم ينادوا عليَّ أذاً؟

– اتق الله يا أخي، توكّل عليه وتغدَّ!

ما الـذي أفعل؟ ما ذنب هؤلاء الطيبيـن؟ غسلت وجهي، وعدت مصطنِعاً ابتسامةً كنت أعرف أنها باهتة:

– أنا جوعان جداً، لنأكل.. لنأكل، الأكل ضروري هنا.

كان الغداء رزاً مغمساً بمرق وعدد من حبات الفاصولياء، تناولت لقمـة، لم أشتهِ تماماً، مع حبّي للرز بالفاصولياء.. لكن لا بد أن آكل، ليس من أجلي وليس إكراماً للوجبة التي أحب، ولكن مراعاةً لصحب

لطفاء وطيبين ونبلاء.. تناولت لقمة أخرى، وقبل أن أضعها في فمي، سمعت صوتاً جافاً وغاضباً:

- ١٦، تحضّر..

وضعت اللقمة في فمي، ومددت يدي للثالثة، غير عابئ بنداء كريهِ أسمعه، فيما كانت كل العيون تتجه نحوي. فُتح الباب، ولم تزل اللقمة في يدي:

- لم تنهض؟ لماذا؟

- أنا آكل.. ولا يجوز النهوض من الأكل.

ابتلعت اللقمة، ونهضت نحو الحنفية لأنظف يدي وفمي، اعترض الحارس الفظ، وعصب عينيّ وقيّد يديّ وسط صمت الجميع الذين تركوا الأكل ونهضوا. صاح بهم:

- اجلسوا وتزقنبوا..

لم يجلسوا، غادرت الزنزانة وقد أمسك بذراعي.

نزلنا السلّم صامتَين. أردتُ أن اساله، فخشيت بذاءته، فصمتُّ، خصوصاً إنها المرة الأولى تقريباً التي يصحبني فيها على هذا السلّم العمودي الضيّق من دون سخافات أسمعها وأتوقعها منه دائماً.

وصلنا إلى غرفة خمّنت أنها في نهاية الممرّ الأرضي، هي غرفة مدير عام السجن إذاً، قلت مع نفسي: أكيد ثمة معلومات جديدة غيرت كل شيء.. ستبدأ حتماً دورة أخرى من التحقيق الذي ارتحت منه منذ عشرة أيام أو أكثر بقليل، لا أدري، كيف أضبط العد في مثل هذه اللحظة. هل سيكون في الغرفة المقدم ابراهيم وقسوته؟ هذا ما كنت أخشاه.

احتملت الخطوات القليلة التي مشيناها، أنا والحارس الفظ، حتّى وصلنا إلى باب مكتب المدير العام، احتملت كل هذه التساؤلات والتخمينات.. كان عند الباب اثنان، يبدو أنهما ينتظران مجيئي، وحين دخلنا، نحن الثلاثة، على المدير العام نهض من مكانه:

- لا، لا، لا.. لماذا ؟ افتح عيونهم!

الاثنان اللذان كانا معي هما شريكاي في التهمة: العميد من المدائن والشاب من الفلوجة.. ما زال المدير واقفاً، طلب منّا أن نجلس، ولكن لا توجد كراسي حديد للتحقيق فأين يمكننا الجلوس، تردُّدنا، فكرّر علينا:

- تفضلوا.. اجلسوا!

وأشار بيده إلى طقم الجلوس في مكتبه. شكرناه وبعد حيرة وتردّد جلسنا، فجلس، كنا ننتظر الكلام، التفت نحوي، وقال:

- استاذ، أنا زميلك بكالوريوس إعلام ولكن أيضاً بكالوريوس أمن قومي.. حالياً أنا أدرس لنيل الماجستير في الإعلام، وسنلتقي حتماً في مجال الإعلام فلا أريد إلّا الذكرى الطيبة؟

- إن شاء الله.

- تعرف، ويعرف الإخوان، أن الحكم عليكم في قضيتكم هو الإعدام، تعرفون هذا؟

- ......

لم يرد أحد. بقيت مذهولاً، وحتماً ذهل الآخران معي؛ هل هذا تبليغ بقرار حكم..؟ لا أدري، لكنه واصل كلامه، وما زال يتحدّث معي مباشرةً:

- أنــت تعرف طبعاً أن الرئيس، الله يحفظـه، قلبه كبير.. وتقديراً لسمعتك الأدبية وتقديراً لوالدك وهو وجه اجتماعي وعشائري كبير ومعـروف، وتقديراً أيضاً لجهـود الأخ العميد فـي القادسية (وأشار إليه)، أمر الرئيس القائد، حفظه الله ورعاه، بالإفراج عنكم على أن لا تكرروا هذا الخطأ..

وقبل أن يتمّ جملته، وبأسرع من برق، كان العميد قد نهض وغادر مقعـده ولفّ على مكتب المدير ووصل إليه وامسك بكفّه عنوةً رغم محاولة المدير التملص، وقبّل الكف، كف المدير الذي قال له:

- لا، أرجـوك.. أنـت الآن لست موقوفا.. أنـت أعلى مني رتبةً وأكبر سناً.. لا يجوز هذا.

بقيـت جالساً صامتاً، أطبقت كفّيّ خلـف راسي وأسندته عليهما مغمضـاً عينيَّ في حلـم لا أريـد الاستيقاظ منه. ربمـا غفوت، ربما سرحـت، ربمـا تهـت؛ سمعت المديـر يقول وهـو يشير إلـى علبة شوكولاتة موضوعة على الطاولة أمامنا:

- مبروك الإفراج، خذوا.. احتفاءً بالإفراج عنكم.

في هذه اللحظـة، ومع طلب المدير تنـاول الشوكولاتة، شعرت بانقباضـ واستعـدت يقظتـي ونباهتـي.. تـرددت. لا أدري كيـف حضرت صورة سعدون أمامي.

وسعـدون صديق فـي السبعينيات، لم يبق علـى تخرجه طبيباً في كليـة الطب في جامعـة البصرة سوى أيام الامتحانـات النهائية. كان رساماً بارعـاً ومثقفاً جيداً، جاء إلى الطب مـن عائلة معدمة، أراد أن يثأر لأمه التي أنهت حياتها عاملة خدمة في مستشفى، فقرر أن يكون طبيبـاً من أجل أمه، أمه التي عاشت من أجله ولكن هو الذي لم يعش

من أجلها.. لقد مات سعدون قبل الامتحانات بيومين في بغداد حين تناول عصيراً في مكتب مدير في الأمن العامة التي استدعي إليها حال وصولـه من البصرة إلى بغداد ليحضّـر ويستعد للامتحان قرب أمه.. كانـت التهمة الموجهة إليه هـي محاولة خلق تنظيم معارض شيوعي بعد انفـراط عقد الجبهـة الوطنية وتمـزق الشيوعيين بيـن عشرات الآلاف فـي السجـون ومعدومين وبين عشـرات آلاف تركوا العمل السياسي، وآلاف تمكنت مـن النجاة والهرب من البلاد. بعد يومين مـن التحقيق معه، قال له المدير في الأمـن:" نحن نعتذر كان القبض عليـك خطأً.. أنت بريء وقررنا الإفـراج عنك"، ناوله كأس عصير. مات سعدون مسموماً بعد الكأس بثلاثة ايام.

قلت للمدير وهو يطلب منا تناول الشوكولاتة:

– الآن.. أنا طليق ولست موقوفاً؟

– نعم، أنت طليق

– إذاً أتعامـل معـك كزميـل فـي الإعـلام، وأريـد أن آخذ منك شوكولاتة لشركائي في الزنزانة ولأودّعهم..

– كل الشوكولاتة أمامك.. ودّعهم براحتك.

– تناولـت كميـة تكفي، ونهضـت أعطيته قطعـة، كاختبار آخر ليطمئن معه قلبي.. تناول الشوكولاتـة، ضاحكاً وشاكراً، فالتهمها، وسأل:

– نوصلكم بسيارة، ما رأيكم؟

– شكـراً، انتهـى الدوام أعتقـد.. أنا راتبي لدى الأمانـات وأستطيع تأجير تاكسي. شكراً جزيلاً.

- كما تحب.

فـي الطريق إلـى الزنزانة، حاول الحارسـ الفظ أن يبـدو لطيفاً. لـم أوفر له مثل هـذه الفرصة. ترك زميلـيّ ليذهبا مباشـرةً إلى غرفة الأمانات. لم يطيقا الصعود إلى زنزانتيهما. تكلم الحارس بما توقعته نكتـةً منه، لم أعره اهتماماً فلم انتبه لها. لم يستطع التخلص من دوره فنسي أني مطلق السراح فعمد إلى الإمساك بي من زندي، وبلا وعي سحبتها منه، استغرب تصرفي ثم ضحك، وكنت سارحاً عنه ..

لقـد انتهى كلّ شـيء. كل جهدي كان يتركز خـلال أيام التحقيق علـى أن أُبعـد صورة الرسالة ومـا جاء فيها عن بالـي، كان يجب أن أنساهـا وأن أمحوها من الذاكرة، وقـد نجحت، إلى حدٍّ ما، في هذا حتـى خُيّل لي في مرات كثيرة أن لا وجـود للرسالة. لكن الآن، وقد أفرج عني وفي طريقي إلـى الزنزانة لتوديع زملائي، فإن الرسالة بكل مـا فيها هـي كل ما يسيطر عليّ، ها أنا أستعيـد صورة الرسالة، شكل ورقهـا، لون حبرهـا الجاف، ارتباك الخط حيـن يتحدث سامي عن قـراره بعدم العودة والانخراط في عمل معارضـ، وإشارته إلى أن لا مستقبـل لغير مثل هذا القرار، إشارات أخرى أقل وضوحاً عن تنسيق لـه مع جهات لم يسمّها، وكان أغرب ما فـي الرسالة وهو ما تذكرته فـي هذه اللحظة بالـذات ولا أدري لماذا لم أفكر به مطلقاً هو توقيعه الرسالـة باسم الممثل المصـري محمود عبد العزيـز بطل المسلسل التلفزيونـي الشهير (رأفت الهجان).. ومع استعـادة الرسالة وما جاء فيهـا، استعدت حيرتي في التصـرف مع موقف غير مسؤول وضعني فيـه سامي والشاب ناقل الرسالة والرسالـة الملغومة التي جعلتني بين خيارين: التبليغ عنها وهذا يتطلب الاتصال فوراً بأمن الجريدة للقبض

علـى الشاب الكـردي وكل ما يتبـع ذلك، أو ترك الشـاب ينصرف وتمزيـق الرسالة. ورأيـت أن الخيار الأخير لا يتعـدى كونه تأجيلاً، لوقـت أجهله، للنتائج التي ستترتّب حتمـاً على تستّري على الرسالة والكـردي وسامي.. كان لا بد حينها من الحسم في لحظات، وفعلاً حسمـت الأمر. اعتذرت من الكردي بادعـاء انشغالي طالباً منه ولو بلغة جافة الانصراف، مزقـت الرسالة حالما غادر، وخلصتُ إلى أنّ قـدراً سيئاً لـي ومؤجلاً هو أفضل من قدر أسـوأ أضع نفسي فيه حالاً بالتبليـغ عن الكردي ورسالته وأتحمّـل معه في داخلي عاراً لا يُغتفر، عـار الوشايـة بثقة أساء سامـي التصرف بها ولم يقـدّر حجم الحرج الـذي وضعني فيه مـن خلالها، لذلـك لا ينبغي لـي أن أشاركه سوء التصرف بالثقـة والاطمئنان الإنساني.. وهذا ما كنت قد تحدثت به إلى زوجتي عصر يوم الرسالة حين أشرت لها إلى توقّعي بأنّ موضوع هذه الرسالة وهذا الزائر لن يمرّ بسلام.

علـى السلم الضيق، كان الحارس خلفي يتثاءب على بعد درجات وهـو يجرجر خطاه بطيئاً. تصعد خطاي خفيفةً وتستقر قوتي عميقةً فـي داخلي. كنـت سعيداً بتحـرري، سعيـداً بالتصـرف بما يحفظ كرامتـي وإنسانيتي، سعيداً لأن الثمن الذي دفعته مقابل الحفاظ على تلك الإنسانية كان أقل من قيمتها بكثير..

حيـن دخلت الزنزانة نهض الجميع ينتظرون كلاماً مني، لاحظت أن إنـاء الغداء ما زال كما تركته مرمياً فـي زاوية ينتظر معهم عودتي، وبدل الكلام ضحكت وبكيت وضحكت:

– يومَ يُفرَج عنكم جميعاً.. ونلتقي بظروف أفضل.

– إفرااااااج؟

صرخ الجميع وانهالوا عليَّ معانقين. لم استطع أن أحدّق فيهم، كانت عيناي غارقتين في بحر من الدموع؛ كان الحاج حسين على بطانيته متّجها نحو القبلة يقرأ القرآن، انتظرته، صدّق وأطبق الكتاب، ونهض إليّ يبكي:

– أرجوك حين تزور أمير المؤمنين ألتمسك الدعاء بالفرج.

– لا أدري كيف تدبّر هذه الجملة كاملةً وبعربيّة سليمة. تعانقنا، فشعرت بحرارة دموعه على لحيتي.

كدت أسمع زغردةً من زنزانة السيدة، لكني سمعت نشيجاً لم ينقطع حتى قلت لها ولم آبه للحارس الذي كان يحتقن غيظاً:

– الإفراج عنكِ قريب إن شاء الله!

– بارك الله فيك.. وألف مبروك.. والله لا أتمنى إلا أن أخابر أهلي.

فهمتُ رسالتها التي مرّرتها بذكاء. ما زلت أحفظ رقم الهاتف الذي حفّظتْني إياه قبل أيام. قلتُ لها:

– لن يكون إلا الخير.

لفّ محمد بطانيّاتي، فسقطت من إحداها ورقة وقلم من دون أن ينتبه لها الحارس. تركتهما في المكان؛ كانت الورقة ما تزال بيضاء، وكان قلم الحبر الجاف مازال مغلقاً.. يا ألله! ما أجمل أن تكون قويّاً بشرف!

وزّعت الشوكولاتة على جميع أصدقائي، بقيت ثلاث قطع منها.. رجوتُ الحارس أن يعطي واحدة للسيدة فوافق. أعطيت الثانية له على مضض فشكرني وأخذها. قلت له:

- طلب أخير رجاءً!

شرحـــت له الطلب فتملصــ، ثم وافق عليه تحـــت الحاحي وبعد تردد ظل يبديه، حيث لم تزل الشوكولاتة في فمه.

أغلـق باب الزنزانة بعنفٍ على صحبــي، فاستدرت للمرة الأخيرة نحوهـــم، نحو صحب رائعين، كان البــاب مقفلاً وكان صوته حينما أُطبق عليهم بغلظة وقسوة قد نخر شيئاً ما في أعماقي..

مشيــت والحارس الفظ في الممر حتّى فتح نافذة زنزانة بعيدة عن زنزانتي.. سلّمت على حبيس وحيد في ظلامها، وتمنّيت له السلامة، ورميــتُ بآخـر قطعة شوكولاتـة معي عليــه، على الشــاب الكردي المسكين.

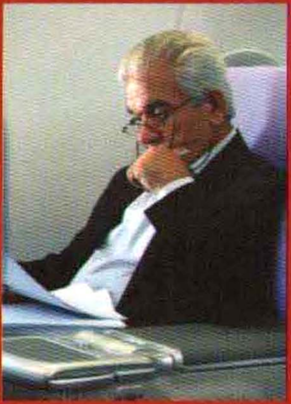

من السخف أن تتحول
قضية الاعتقال إلى امتياز
(لمن كان قد تعرض لها)،
ولكن من الشرف أن يتحول
الاعتقال (بعد التحرر منه) إلى
مسؤولية، مسؤولية الإيمان
العميق بالحرية وقيمتها
وبحفظ الكرامة الانسانية
من أن تُهدر على إيدي
المستهترين بمصائر الناس.

من حوار مع المؤلف

ISBN 284306244-6
9 782843 062445